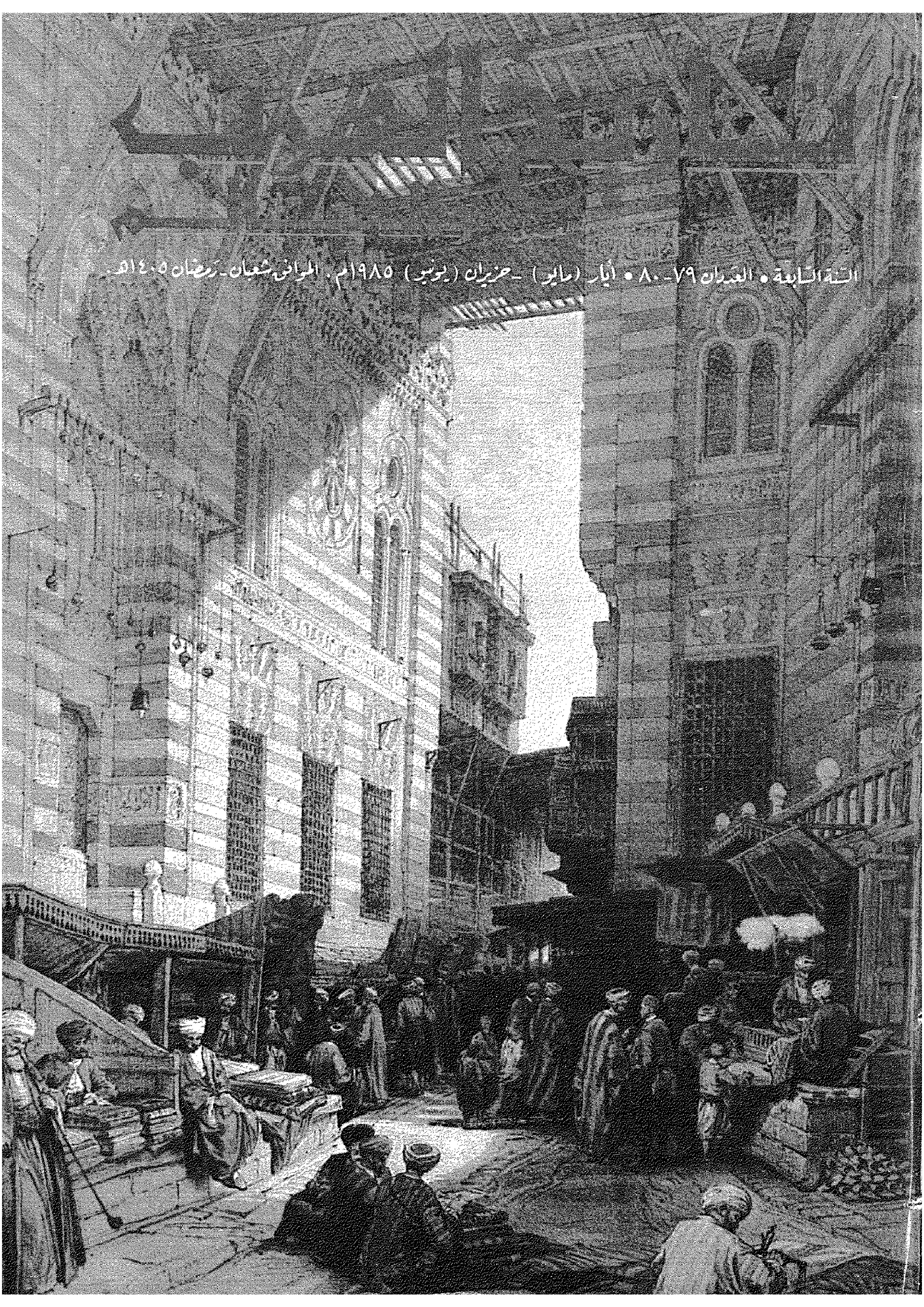
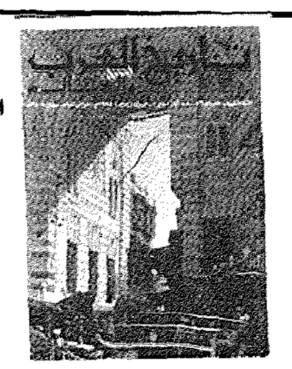

السنة السابعة • العددان ٧٩-٨٠ • أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٩٨٥م. الموافق شعبان - رمضان ١٤٠٥هـ.

□ من منازل البصرة القديمة التي تعود إلى القرن التاسع عشر. من الأجر والخشب.



الغلاف الأول

البازار في سوق الحرير في القاهرة. صورة لـ «ديفيد روبرت، ١٨٤٩»

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٩/ ٨٠ — ايار — حزيران ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

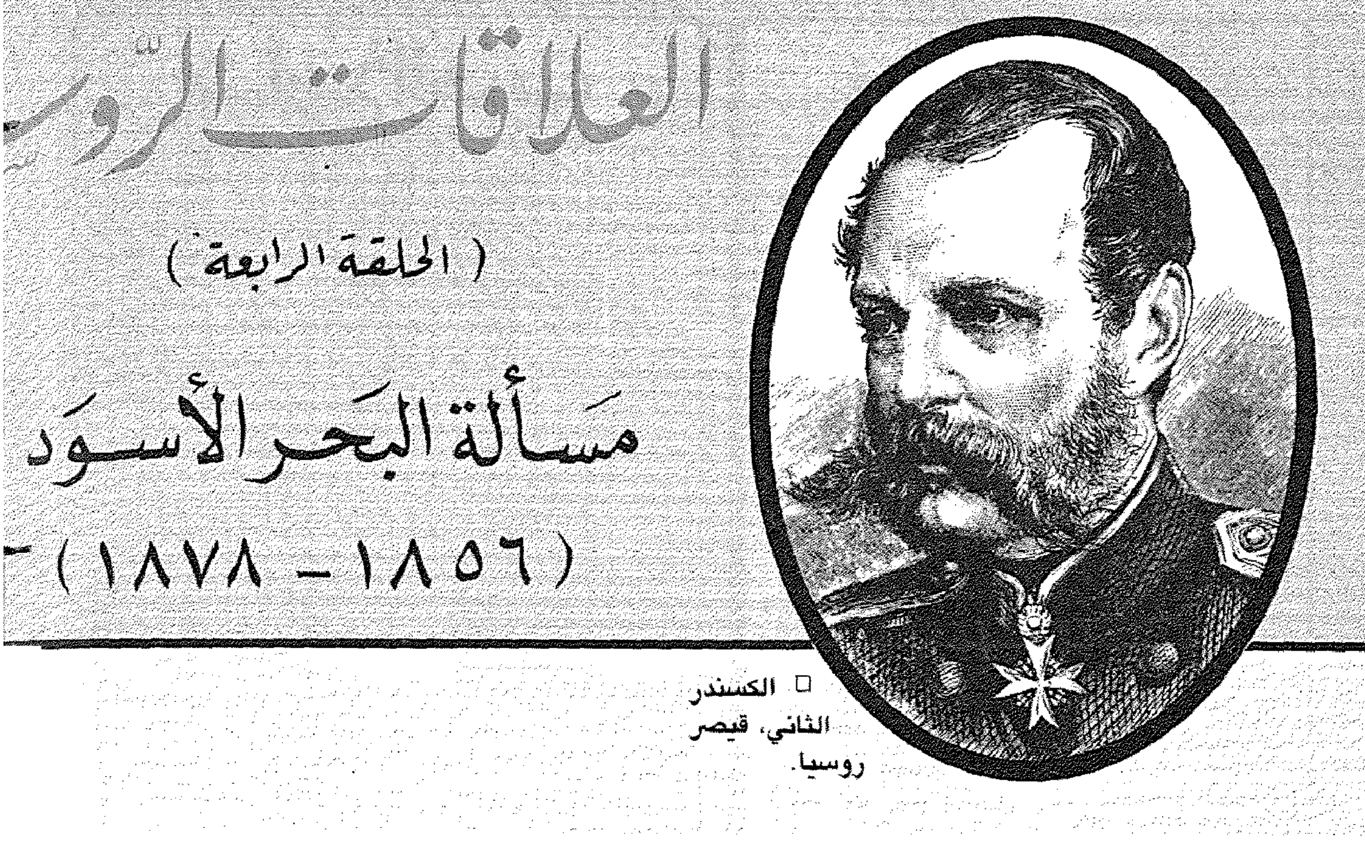
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT LEBANON

Vol. 7 — No. 79/80 — May-June 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



العلاقات الروس

(الحلقة الرابعة)

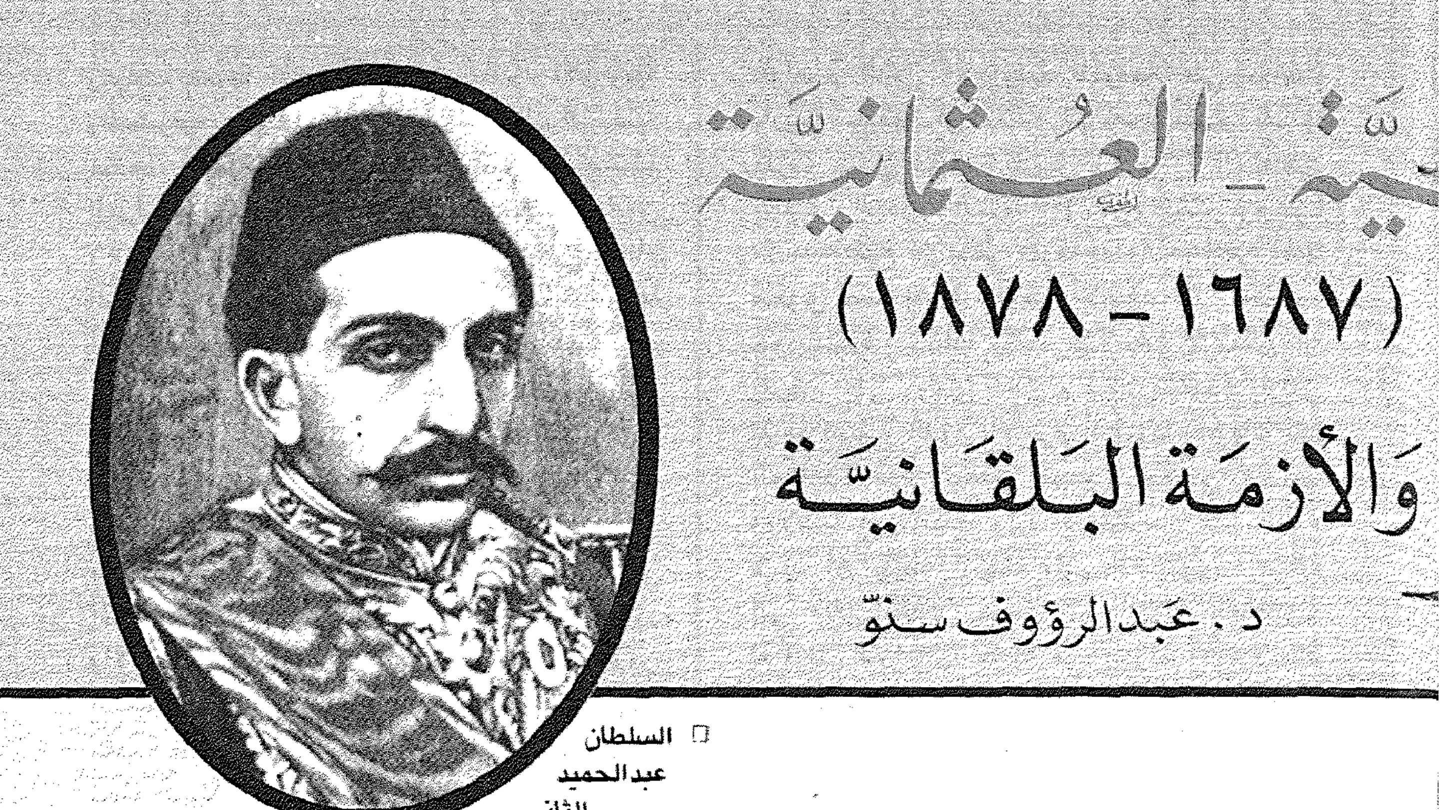
مسألة البحر الأسود (١٨٥٦ - ١٨٧٨)

□ الكسندر الثاني، قيصر روسيا.

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية والاستراتيجية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ إدعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وتارة أخرى بأسلوب التفاهم الدولي أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية ــ العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين، وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة برلين الحرة، دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية، جامعة كاسل.



...ية العثمانية (١٦٨٧ - ١٨٧٨) والأزمة البلقانية

د. عبد الرؤوف سنو

□ السلطان عبدالحميد الثاني.

— ١ —

الأوضاع الدولية ما بين ١٨٥٧ ــ ١٨٧١

إن هزيمة روسيا في حرب القرم وإجبارها على توقيع معاهدة باريس وما نتج عن ذلك من تباعد بينها وبين النمسا وتقرب إلى فرنسا وانشغال بريطانيا بمشاكلها الداخلية وابتعادها عن المسائل الأوروبية، إضافة إلى تحقيق إيطاليا والمانيا لوحدتهما القومية نتيجة الهزائم العسكرية التي لحقت بالنمسا وفرنسا على الساحة الأوروبية، وأخيراً صعود المانيا إلى مركز الزعامة في أوروبا ــ كل هذه الأمور كانت مؤشرات على تحطم جبهة القرم التي ضمنت استقلال الدولة العثمانية وعلى التغيير الراديكالي الذي أصاب التوازن الأوروبي ما بين ١٨٥٧ ــ ١٨٧١.

فبعد زوال دورها المهيمن بمصير إيطاليا والدويلات الألمانية، ركزت النمسا اهتمامها بعد تسوية ١٨٦٧ (Ausgleich) (المملكة الثنائية ــ النمسا/ المجر) بالمحافظة على نفوذها في البلقان ــ هذا النفوذ الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بسلامة الدولة العثمانية واستقلالها. أما فرنسا، التي ناصرت الحركات القومية في أوروبا والبلقان وزادت من تغلغلها التجاري في الدولة العثمانية وتدخلت في المسألة الشرقية لضرب النفوذ البريطاني، فقد خسرت هذه الميزة بعد هزيمتها على يد بروسيا (١٨٧٠/١٨٧١)، وأصبح همهما البحث عن حليف للخروج من سياسة العزلة التي فرضها عليها بسمارك واستعادة ما خسرته إلى ألمانيا. وكان بسمارك، الذي وصف بعد ١٨٧١ بـ «سيد أوروبا»، يرى أنه لا يمكن المحافظة على مكتسبات الحرب الألمانية الفرنسية إلا بعزل فرنسا عن أي تحالف أوروبي. فقرّب إليه روسيا والنمسا رغم تضارب مصالحهما في البلقان، وحاول إشغال الدول الأوروبية في مسائل بعيدة عن وسط أوروبا. وفي المسألة الشرقية رأى بسمارك أفضل طعم يمكن أن تتلهى به الدول المتصارعة، خاصة أن بلاده لم تكن مهتمة بتلك المسألة. أما بريطانيا المدافعة التقليدية عن سلامة الدولة العثمانية، فكانت تُحكم في تلك الفترة من قبل حكومة ليبرالية برئاسة غلادستون. وكانت هذه الحكومة قد انتقدت مشاركة بريطانيا في حرب القرم

وعزلت نفسها نسبياً عن المسائل الأوروبية والمشرقية ووجهت اهتمامها للمسائل الداخلية عندها. وفيما يتعلق بالدولة العثمانية فلم تستطع المراسيم التي صدرت في أعقاب «خط هيمايون ١٨٥٦» وشملت نواح عديدة في الادارة ونظام الضرائب وأوضاع أهل الذمة أن توقف تدهورها او أن تشد الشعوب المحكومة منها إلى السلطنة. ومن معالم هذا التدهور، الانتفاضات القومية في البلقان وأحداث لبنان (١٨٦٠) وثورة كريت (١٨٦٦)، وفساد الجهاز الحاكم، وكذلك الانهيار المالي نتيجة سياسة الاستدان من أوروبا وتغلغل الرأسمال الأجنبي في اقتصاد البلاد. على أن أبرز مسببات التدهور والانحطاط، كان تدخل الدول الكبرى في شؤون السلطنة الداخلية ومطامعها في ممتلكاتها. وفي مقدمة تلك الدول روسيا، التي اتسمت سياستها تجاه الدولة العثمانية بالهجومية.

● روسيا تستعيد سيطرتها على البحر الأسود.

ولم تكن تلك التطورات الأوروبية وأوضاع الدولة العثمانية في غير مصلحة روسيا. فبعد حرب القرم شهدت روسيا إصلاحات داخلية، وإن لم تستطع تغيير الكثير من سلبيات نظام القيصرية. وعلى صعيد السياسة الخارجية فقد حل جورشاكوف (Gorchakov) محل نسلرود كوزير للخارجية ومستشار للبلاد، وأخذت روسيا تبتعد نسبياً عن القضايا الأوروبية ملتفتة إلى الشرق الأقصى ووسط آسيا كحقلين لتوسعها الأمبريالي. لكن هذا لم يمنعها من التفكير في استعادة سيطرتها على البحر الأسود الذي انتزع منها وحُيِّد بموجب معاهدة باريس أو في زيادة نفوذها في البلقان[٢]. فاستغلت روسيا إذن الأحداث السالفة الذكر واحتياج بسمارك إليها في حربه المقبلة ضد فرنسا (اتفاقية ٢٧ آذار ١٨٦٧ السرية) وفي لعبة التوازن الأوروبي لتتنصل من بنود معاهدة باريس المتعلقة بالبحر الأسود.

وقبل أن تشارف الحرب البروسية الفرنسية على نهايتها، وبعدما حصل على تأييد بسمارك، بعث جورشاكوف في ٢٩ ت١ ١٨٧٠ إلى عواصم الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس يبلغها أن بلاده لم تعد تعتبر نفسها ملزمة ببندي معاهدة باريس ١١ و ١٣ المتعلقين بحياد البحر الأسود[٣]، لأن قيصر روسيا **«لا يستطيع أن يبقى ملزماً ببنود معاهدة تقيد حقوق سيادته في البحر الأسود»**[٤]. وقد برر جورشاكوف مسلك بلاده هذا بأنه لا يمكن أن يُفرض على روسيا احترام بنود معاهدة باريس بينما تسمح الدول الأخرى لنفسها بانتهاك تلك المعاهدة فيما يتعلق بتوحيد ولايتي ملدافيا وولاشيا (رومانيا)، وإن انتهاكاً من هذا النوع لا بد أن يقابله انتهاك بقدر المستوى. إضافة إلى ذلك أعلنت روسيا أن الدولة العثمانية لم تنفذ التزاماتها كاملة في إجراء الاصلاحات التي كانت قد وعدت بها وفقاً للمعاهدة المذكورة وأن ذلك يعتبر إخلالاً آخراً لتلك المعاهدة. بيد أنها أكدت أنه ليس في نيتها إعادة فتح ملف المسألة الشرقية[٥].

وكان من الطبيعي أن يؤدي القرار الروسي إلى إرباك الحكومة العثمانية. فروسيا كانت تستطيع بسهولة أن تحتل جنوب بسارابيا رداً على أية معارضة عثمانية، خصوصاً أن بريطانيا، التي خسرت كثيراً بخروج حليفتها السابقة فرنسا كقوة رئيسية على الساحة الأوروبية، لم تحرك ساكناً وفقاً لالتزاماتها في معاهدتي باريس و ١٥ نيسان ١٨٥٦. بل إن بريطانيا اكتفت بالاحتجاج وشاركتها النمسا بذلك وأعلنت أنها لا تعترض على مطالبة روسيا باستعادة سيادتها على البحر الأسود، بل على الأسلوب الذي استخدمته روسيا للتنصل من بنود معاهدة باريس المتعلقة بحياد ذلك البحر[٦].

إلا أن توقيت إعلان روسيا لتنصلها من بنود معاهدة باريس كان يحرج بسمارك، الذي لم يكن قد انتهى بعد من فرنسا ويخشى من تأزم دولي يؤدي إلى قيام تحالف ضد بلاده يفقدها ما حققته من انتصارات. ولهذا سارع لايجاد حل للمسألة، فدعا إلى عقد مؤتمر دولي تشارك فيه الدول الكبرى.

● معاهدة لندن ١٣ آذار ١٨٧١:

في ١٧ ك٢ ١٨٧١ افتتح في لندن مؤتمر

اوروبـي لبحث مسألة البحر الأسود. وقد تميز بتقارب عثماني روسي تقابله معارضة بريطانية نمساوية. فالدولة العثمانية، التي كانت تـدرك تضارب مصالح الدول الكبـرى في الممرات، حاولت استغلال الأمر لاستعادة سيطرتها على المرفق الاستراتيجي وجعل مرور السفن عبره وفقاً لمشيئتها. لكن بريطانيا والنمسا/المجر اعتـرضتا على ذلك بحجـة خشيتهما من أن تستغل روسيا ضعف الدولة العثمانية وتضع يدها على الممرات[٧]. والواقع إن هذه المعارضة كـانت تعـود إلى خشيـة الدولتين من عبـور الأسطول الحربـي الروسي الممرات إلى شرقي البحر المتوسط أو إلى البحر الأدرياتيكي مما قد يهدد مصـالحهما في هذين البحرين. كذلك كانت بريطانيا قد تلقت تقارير بأن الدولة العثمانية وروسيا قد اتفقتا سراً على تنسيق مواقفهما في المؤتمر وأن محاولة الدولة العثمانية لاستعادة نفوذها على الممرات تصب في خانة المصالح الروسيـة[٨]. إزاء ذلك تقـدمت بـريـطانيـا والنمسا/المجر باقتراح بـأن يحتفظ السلطان بحقه بفتح الممرات أمام السفن الأجنبية، على أن تستثنى من ذلك السفن الروسية. لكن الدولة العثمانية وروسيا رفضتا ذلك. وفي اخر الأمر توصلت الدول المجتمعة إلى صيغة حل اقترحته إيطاليا ونص على حق السلطان «**بفتح الممرات في أوقات السلم للسفن الحربية الصديقـة أو الحليفة**»[٩]. كذلك اتفق على إلغاء حياد البحر الأسود مما أعـاد للأسطول الروسي سيطرته السابقة عليه[١٠]. وبالاضـافة إلى ذلك جُعـل البحر مفتوحاً أمام السفن التجارية لكل الدول. وفي الوقت ذاته جُدد عمل اللجنة الدولية لنهر الدانوب[١١].

ولكن التقارب العثماني الروسي خلال المؤتمر لم يكن ينم عن تحسن في علاقات الدولتين. فبعيداً عن مسألة البحر الأسود، كانت مصالح الدولتين متضـاربة في أكثـر من محـطة من محطات المسألة الشرقية. وكان البلقان من أكثر تلك المناطق العثمانية سبباً للتـوتر وتضـارب المصـالح، ليس فقـط بين روسـيـا والدولة العثمانية، بل بين الدول الكبرى، التي كانت بعد عام ١٨٧١ تمسك بمصير الدولة العثمانية، وهي بريطانيا، النمسا / المجر، روسيا، وألمانيا إلى حد ما.

— ٢ —

اليقظة القومية في البلقان

وفي الفترة الممتدة ما بين معاهدة باريس واندلاع الأزمة البلقانية (١٨٧٥) كان قسم كبير من شبه جزيرة البلقان لا يـزال تحت الحكم العثماني. ومن هذه المناطق، بلغاريا، مقدونيا، البوسنة، الهرسك، البانيا، ابيروس، وتيساليـا. وكانت اليونان هي الوحيدة المستقلة، في حين كانت الصرب ورومانيا مستقلتين ذاتياً وتعترفان بسيـادة السلطان. أما الجبـل الأسـود فكـان مستقلاً من الناحية العملية دون أن يكون له وضع حقوقي كدولة مستقلة.

وبعد حرب القرم ازدادت انتفاضات شعوب البلقان للتخلص من الحكم العثماني. فمراسيم الاصلاح التي أصدرتهـا الحكومـة العثمانيـة لم تستطع أن تحد من تلك الثورات، رغم أن الفترة ما بين ١٨٥٦ ـــ ١٨٧١ شهدت تنفيذ العديد من الاصلاحات على يد اثنين من كبار المصلحين العثمانيين، فؤاد باشا وعلي باشا ـــ هذه الاصلاحات التي شملت نظام الملة وأنظمة الولايات وأسلوب المراقبة عليها[١٢]. كذلك قام مدحت باشا خلال ولايته على الدانوب بكثير من المشاريع الانمائية في بلغاريا ـــ ومع ذلك فقد استمرت الثورات[١٣].

وفي حين لا يستبعد البعض العامل الديني في ثـورة شعـوب البلقـان المسيحيين على سلطتهم الاسـلاميـة، ومـع تقـديـرنـا لهـذا العامل[١٤]، إلا أنه لم يكن هو الحاسم في تلك المسألة. فالفوارق الاجتماعية وعلاقات الانتاج والاتجاهات القومية لشعوب البلقان وتدخل الدول الكبرى، وخاصة روسيا والنمسا في المسألة الشرقية كانت في رأينـا محركاً دافعاً للثورة على الحكم العثماني. فالتقارير القنصلية المعاصرة والمـؤلفات الحـديثة تـذكـر أن «**الاضـطهـاد العثمـاني**» إذا صحت تلك التسميـة، لم يكن مقتصـرا على المسيحيين فقـط، بـل شمـل المسلمين على حد سواء. بـل إنه في بعض الأحيان كان الفلاحون المسلمون هم المعرضين

لتسلط الاقطاعي والملتزم المسيحي[١٥]. ويؤكد دايفسن الذي أرّخ لحركة الاصلاحات في الدولة العثمانية، أن وضع المسيحيين قد تحسن بفضل الاصلاحات وأنه في بعض المجالات كان أفضل من وضع المسلمين بسبب إعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من قبل القناصل الأجانب[١٦]. كما يرى دايفسن أن التفريق بين المُضطَهد والمُضْطَهَدْ لم يكن على أسس دينية، بل أن المسألة كانت مسألة طبقية[١٧]. فالفوارق الاجتماعية، كما يذكر باومغارت، لم تكن بين المسلمين وأهل الذمة، بل بين طبقة حاكمة وأخرى محكومة. وفي كل طبقة كان بإمكان المرء أن يجد أناساً من كلا الفئتين[١٨].

وبغض النظر عن التعسف والتسلط العثمانيين ونظام الضرائب والجباية في الولايات العثمانية والتي عانت منه فئات الشعب المحكومة وطوائفه بدون استثناء، فقد كان نمو الوعي القومي بين شعوب البلقان والذي كان سمة القرن الماضي، عاملاً حاسماً في دفع عجلة الثورة ضد الحكم العثماني ــ هذا العامل الذي دفعته روسيا إلى الأمام بعد حرب القرم لخدمة مصالحها وجعلته يتفوق على العامل الديني. وقد اشتد هذا الشعور لدى الشعوب البلقانية بعد حصول الصرب على استقلالها الذاتي في بداية القرن التاسع عشر مروراً باستقلال اليونان (١٨٣٠) وتوحيد رومانيا (١٨٦٢). ولم يكن أيضاً حصول جبل لبنان على الاستقلال الذاتي وثورة كريت (١٨٦٦) دون تأثير على الشعوب البلقانية.

وهكذا نشأت في البلقان تيارات كالجامعة الصربية والجامعة السلافية والتي كانت تكتلات عرقية وتيارات انفصالية عن الدولة العثمانية. وفيما اقتصرت الجامعة الصربية (Pan Serbism) على توحيد السلاف الجنوبيين بقيادة الصرب، كانت الجامعة السلافية (Pan Salvism) تدعو إلى توحيد جميع السلاف. وباختصار، فقد كانت الجامعة السلافية هذه التركيبة التي تجمع مصالح السلاف الأوروبيين وتاريخهم ولغتهم وعاداتهم ومستقبلهم السياسي، ولهذا كان تأثيرها على شعوب البلقان أقوى وأعمق من الجامعة الصربية. وكانت الجامعة السلافية المدفوعة من روسيا تؤكد على القيمة الجوهرية للثقافة الروسية أمام الثقافة الغربية[١٩].

● موقف النمسا/المجر المعارض للجامعة السلافية:

ولم يكن مصير البلقان معلقاً بثورات شعوبه المسيحين على الحكم العثماني، بل أيضاً بموقف الدول الكبرى، وبشكل خاص النمسا وروسيا. وكانت المسألة الشرقية بالنسبة للنمسا هي قبل أي شيء «**مسألة سلافية**». فالقضاء على الحكم العثماني في البلقان وخلق كيانات قومية وتعاطف سلاف الامبراطورية مع أبناء جنسهم، كان يهدد تماسك الامبراطورية النمساوية السياسي. ولهذا شاركت النمسا بريطانيا وفرنسا في ضمان سلامة الدولة العثمانية وفقاً لمعاهدة ١٥ نيسان ١٨٥٦. ولما كانت النمسا غير متأكدة من فعالية هذه الضمانة، فقد حاولت بعد هزيمتها على يد بروسيا (١٨٦٦) أن ترضي روسيا بتأييد مطالب شعوب البلقان بالاصلاحات العثمانية التي تحسن من وضعهم. ولكن قيام المملكة الثنائية ١٨٦٧ (النمسا/المجر) وتجميع أقوى جنسين في الامبراطورية (الألمان والمجريون) على قدم المساواة واستبعاد السلاف داخل الامبراطورية، قوبل برفض من قبل التشيكيين والسلوفاكيين والكراوتيين والصربيين في المجر، إذ أن المملكة الثنائية وضعتهم تحت سيطرة الارستقراطية المجرية والبرجوازية النمساوية[٢٠] مما قوى ــ رغم اختلاف اللهجات والعادات والمذهب والتجزئة الجغرافية ــ من تيار الجامعة السلافية بين تلك الشعوب وزاد في الوقت ذاته من مخاوف النمسا/المجر، مما جعلها ترفض الدعوات التي نادت بتطوير المملكة الثنائية لتصبح ثلاثية تضم الألمان والمجريون والسلاف[٢١].

● الجامعة السلافية في السياسة الروسية:

اما روسيا، التي فشلت في تقسيم الدولة العثمانية بوفاق أوروبي أو مواجهة تحالف دولي يسعى للحفاظ على الدولة العثمانية، فقد أدركت

بعد حرب القرم أن أفضل وسيلة لتجزئة الدولة العثمانية هي التعاون مع الشعوب البلقانية وإثارتها ضد الدولة العثمانية، وإن ذلك لن يورطها في مجابهة مع الدول الأوروبية، خاصة أن الرأي العام الأوروبي كان يتعاطف مع الحركات القومية لشعوب البلقان. ولهذا أهملت روسيا العامل الديني في سياستها البلقانية واستخدمت بدلاً منه العامل القومي والجامعة السلافية لتحقيق ما عجزت عنه بقوة السلاح أو بالوفاق الأوروبي[٢٢]. فزادت من اهتمامها بالشعوب السلافية وقوّت من علاقاتها التجارية معها وأدخلت الدراسات السلافية في المناهج الجامعية عندها وفتحت أبواب معاهدها العليا أمام الشبان البلغار. كذلك أسست «الجمعية الخيرية السلافية في موسكو» (١٨٥٨) وفروع لها في المدن البلقانية لنشر الدعاية السلافية، وساهمت في عقد «المؤتمر الاتنوغرافي السلافي في موسكو» (١٨٦٧) وعملت على إصدار العديد من الكتب والمؤلفات التي تدعو إلى توحيد السلاف والتعاون معها لتحريرهم من الحكم العثماني والهيمنة النمساوية[٢٣].

ولم تقتصر سياسة الجامعة السلافية بالتحريض على الثورة، بل إن روسيا قامت بمناصرة الحركات الثورية على الأرض. فدعمت ثورة الجبل الأسود وبلغاريا والبوسنة والهرسك. كما وقفت وراء استقلال الصرب الذاتي واستقلال اليونان والوحدة الرومانية، رغم أن الدولتين الأخيرتين لم تكونا سلافيتين. على أن أبرز معالم الجامعة السلافية في الدبلوماسية الروسية كانت تأييد روسيا لقيام كنيسة بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية (١٨٧٠)[٢٤].

ويتجلى دعم روسيا للجامعة السلافية في التأييد الذي حصلت عليه تلك الدعوة من دوائر روسية رسمية وعسكرية. فقد شارك فيها جنرالات وقناصل وشخصيات مقربة للحكم. ولعل أعظم شخصية روسية دفعت الجامعة السلافية إلى الأمام نيقولا أغناتيف (Nicolas Ignatiev)، السفير في استانبول (١٨٦٤ ــ ١٨٧٧)، الذي عمل على توحيد السلاف من خلال تقويض الحكم العثماني في البلقان[٢٥]. وتدل الوثائق والتقارير الدبلوماسية السرية الروسية التي كان يبعث بها اغناتيف والقناصل الروس في البلقان وكذلك مراسلات القسم الآسيوي في وزارة الخارجية الروسية، بالاضافة إلى نشاط الجمعيات السلافية الروسية، على مدى التورط الروسي في الجامعة السلافية، وأن أصابع روسيا الرسمية كانت وراء الدعاية السلافية وانتفاضات الشعوب البلقانية وتأييدها بالمال والسلاح والخبرات العسكرية لأجل تقويض الحكم العثماني هناك. فتوحيد السلاف جميعاً وقيام دولة سلافية عاصمتها القسطنطينية ظل الشغل الشاغل لأنصار الجامعة السلافية والصحافة الروسية[٢٦].

ومن بين الشعوب السلافية وجدت روسيا في الصرب القيادة المؤهلة لتزعم السلاف فشجعتها على الثورة وقدمت لها المال والدعم. وخلال حكم الأمير ميشال أبرنوفيش (Michael Obrenovic) (١٨٦٠ ــ ١٨٦٨) شهدت البلاد نهضة كانت أبرز معالمها إنشاء جيش حديث قائم على التجنيد. وقد تمكن ميشال بدعم روسي من أن يجلي العثمانيين عن قلاع الصرب وأن يجعل من بلاده محور التحالفات المناهضة للحكم العثماني[٢٧]. فبين عامي ١٨٦٥ ــ ١٨٦٨ عقدت الصرب سلسلة من التحالفات مع رومانيا والجبل الأسود و «الجمعية الثورية البلغارية» بهدف إنهاء الحكم العثماني في البلقان. وكانت آخر تلك التحالفات مع اليونان (١٨٦٨)، حيث قامت الدولتان بتسليح المسيحيين وخططتا للقضاء على الحكم العثماني. لكن جميع هذه التحالفات لم تؤد إلى نتيجة بسبب التمجيد العرقي (Ethnocentric) الذي طبع القومية في البلقان[٢٨] وبسبب الأوضاع الأوروبية وتحول اليونان ضد السلافية لتأييد روسيا لقيام كنيسة بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية، وأخيراً بسبب وفاة الأمير ميشال عام ١٨٦٨[٢٩]. ولكن بعد خسارة الصرب الحرب أمام الدولة العثمانية (ت، ١٨٧٦)، كما سنرى بعد قليل، فقد تحول انصار الجامعة السلافية في روسيا إلى بلغاريا كمجال لتوسع النفوذ الروسي بدلاً من الصرب.

ورغم تلقيها للدعم الروسي فإن شعوب البلقان الكارهة للحكم العثماني لم ترد استبدال ذلك الحكم بالهيمنة الروسية، وأفضل مثال على

ذلك بلغاريا، التي انقلبت ضد النفوذ الروسي بعد ١٨٧٨[٣٠]

ـ ٣ ـ

ثورة البوسنة والهرسك (تموز ١٨٧٥)

وتحتل ثورة البوسنة والهرسك، التي تعتبر استمرارا لثورات الشعوب المسيحية في البلقان للتخلص من الحكم العثماني، أهمية خاصة في تاريخ الأزمة البلقانية. فقد حدثت بعد عامين على توقيع روسيا والنمسا/المجر والمانيا معاً على اتفاقية «عصبة الأباطرة الثلاث» (١٨٧٣) (Dreikaiserbund) التي أبانت بوضوح عمق التناقضات الروسية النمساوية في البلقان، تلك التناقضات التي حاول بسمارك بفراسته السياسية لا أن يزيلها، بل أن يبقي عليها ويشغل الدولتين بها شرط ألا يؤدي ذلك إلى صدام المتنافسين كي لا يخل ذلك بوضع ألمانيا الدقيق في التوازن الأوروبي[٣١]. كذلك أحدثت تلك الثورة صدمة لبريطانيا وأيقظتها من عزلتها وجعلتها تدرك المخاطر التي تتعرض لها مصالحها نتيجة تكثيف روسيا من تدخلها المباشر في المسألة الشرقية. هذا بالاضافة إلى أنها جاءت في وقت كانت الدولة العثمانية تعلن فيه إفلاسها (١٨٧٦) وتعاني من أزمة سياسية داخلية[٣٢]. وأخيراً إنها جاءت بعد سلسلة من الثورات في المنطقتين (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦، ١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) وشكاوى أهاليهما للدول الكبرى والمطالبة بالتدخل (١٨٥٧، ١٨٥٨، ١٨٧٢، ١٨٧٣، ١٨٧٥) وبفرار العديد من الثوار إلى الصرب والنمسا[٣٣].

أما أسباب تلك الثورة فتعود إلى عاملين: المسألة الزراعية وتيار الجامعة السلافية. فمنذ السبعينات كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية مدار شكوى وتذمر سكان المنطقتين. فقد كان الفلاحون المستأجرون يتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد من قبل سادتهم الاقطاعيين المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ليسهل عليهم استرجاع أراضيهم. كما كانوا يشكون من التضخم المستمر لحقوق هؤلاء ومن زيادة الرسوم وأعباء الضرائب عليهم. وقد توج ذلك بسوء المحصول عام ١٨٧٣ وبالمجاعة عام ١٨٧٤ وبمنافسة السلع الأجنبية المستوردة للانتاج المحلي[٣٤]. وبالاضافة إلى ذلك، ساهمت زيارة الامبراطور النمساوي فرانس جوزيف إلى دلماشيا (ربيع ١٨٧٥) بإلحاح العسكريين الذين كانوا يدعون لاحتلال المنطقتين في إعطاء أهالي البوسنة والهرسك الانطباع بأن النمسا/المجر ستقوم بضم مناطق سلافية بحيث يؤدي ذلك إلى قيام «المملكة الثلاثية»[٣٥].

وما إن اندلعت الثورة في الهرسك (تموز ١٨٧٥) على إثر محاولة لجباية الضرائب في إحدى مقاطعاتها، حتى تدخلت الدول السلافية وفي مقدمتها الصرب لتقدم لها العون. أما روسيا والنمسا/المجر فقد وقفتا حذرتين، رغم أن موظفيهما وقناصلهما في البلقان كانوا يحثون على الثورة[٣٦]. وفي آب امتد نطاق الثورة ليشمل البوسنة، ليمتد في العام التالي ويصل إلى بلغاريا.

● جورشاكوف، اغناتيف والثورة:

والواقع إن كلاً من روسيا والنمسا/المجر لم تفاجئا بالثورة، لكنهما كانتا تدركان أنهما قد تتورطان من جرائها في حرب إن لم تسارعا لحل المسألة دبلوماسياً. فالنمسا/المجر أرادت أن تحل الأزمة وفقاً لاستراتيجيتها البلقانية. ولهذا حاول أندراسي (Andrassy)، وزير خارجيتها، أن يبقي زمام الأمور بيده كي يأتي الحل منسجماً مع سياسة بلاده ويضبط الأطماع الروسية في البلقان[٣٧]. وبدوره جورشاكوف، فقد كان يفضل التعاون مع الشريكين في العصبة لايجاد حل للمسألة. وهذا مرده إلى أنه، وهو الدبلوماسي المحترف، كان يعتبر المسألة الشرقية جزءاً مكملاً للدبلوماسية الأوروبية، ورأى أن التعاون مع النمسا/المجر والمانيا يعطي روسيا تغطية سياسية تحتاجها لأجل تنفيذ مصالحها البلقانية وتطبيق إصلاحات في البلقان دون الوصول إلى حالة حرب مع الدولة العثمانية[٣٨].

وعلى عكس جورشاكوف، فقد كان أغناتيف لا يحبذ أي عمل دولي في الشرق الأدنى ولا أن تلزم روسيا نفسها بالتزامات دولية في المنطقة. وكانت كراهيته لأندراسي تجعله يمقت أي تعاون لبلاده مع النمسا/المجر. ولهذا رأى أغناتيف أن



□ أغناتيف.

تقوم روسيا بعمل منفرد في الأزمة البلقانية يصب في خانة الجامعة السلافية[39]. ولكن هذه السياسة لم تجد في تلك المرحلة الترحيب في بطرسبرغ، إذ أن القيصر، متأثراً بجورشاكوف، كان يفضل التعاون مع النمسا وألمانيا[40] والقيام بتحرك مشترك معهما، وهذا ما كان يفضله بسمارك، الذي خشي من أن تتضعضع عصبة الأباطرة الثلاث نتيجة تضارب المصالح الروسية النمساوية في البلقان[41].

وفيما كان سفراء دول عصبة الأباطرة يقومون بتحرك مشترك في استانبول لحث الباب العالي على إصدار إصلاحات لتحسين أحوال المسيحيين في البوسنة والهرسك والعفو عن الثوار، وبعدما انضم إليهم سفراء الدول الأوروبية الأخرى، كان أغناتيف وبمبادرة شخصية ودون إعلام الخارجية الروسية يقوم بتحرك مستقل لدى الباب العالي ويجري مفاوضات مع السلطان العثماني مباشرة لأجل عقد لقاء سري بينه وبين القيصر في القرم. وكان اغناتيف يهدف بذلك إلى عزل النمسا/المجر عن أية مشاركة في حل المسألة. ولكن هذا التحرك سرعان ما أحبطه جورشاكوف، الذي حث القيصر على السير مع النمسا/المجر في حل المسألة[42].

ورغم خيبة الأمل هذه تمكن أغناتيف، وكان مقرباً من السلطان عبدالعزيز، من إقناع هذا الأخير بالقيام ببعض الاصلاحات. ففي ٢ ت١ ١٨٧٥ أصدر السلطان مرسوماً خفض بموجبه الضرائب عن سكان البوسنة والهرسك ومنحهم الحرية الدينية ولجنة للمراقبة ومجلس استشاري منتخب. وقد أعقب ذلك مرسوم آخر (١٢ ك١ ١٨٧٥) وشمل ولايات الامبراطورية كلها. وبموجبه أعلن السلطان عن نيته بإصلاح القضاء ونظام الضرائب والملكية وبدل الخدمة العسكرية لأهل الذمة، وأخيراً تأليف مجالس إدارية تتمثل فيها مختلف الطوائف الدينية. ولكي يظهر جديته أمام الدول الكبرى، عين السلطان في ٢٠ ك١ لجنة برئاسة الصدر الأعظم وتتألف من وزراء عثمانيين وعدد من المسلمين والمسيحيين مهمتها تنفيذ المراسيم الاصلاحية التي صدرت[43]. ولكن الثوار ظلوا مستمرين بثورتهم مشككين بجدية الدولة العثمانية بتنفيذ الاصلاح.

● مذكرة أندراسي (٣٠ ك١ ١٨٧٥):

وإزاء استمرار الثورة حركت النمسا/المجر دبلوماسيتها ووضعت بموافقة روسيا مذكرة لحل المسألة سلمياً. وقد عرفت باسم «مذكرة اندراسي» وأرسلت إلى عواصم الدول الكبرى في ٣٠ ك١ ١٨٧٥. وفي مذكرته طالب أندراسي الباب العالي بإجراء إصلاحات تشمل الحريات الدينية وإلغاء الالتزام والدعوة إلى تحسين الزراعة في المنطقتين بشراء الحكومة العثمانية للأراضي من الاقطاعيين وتقديم ضمانات بأن تصرف الحكومة العثمانية العائدات التي تحصلها من البوسنة والهرسك على المنطقتين، وأخيراً أن تجري الاصلاحات بإشراف لجنة محلية مؤلفة من المسلمين والمسيحيين[44]. وفي حين أن فرنسا وإيطاليا أعطتا موافقتهما على المذكرة، ظلت بريطانيا مترددة ولم توافق عليها إلا بعدما قبلها الباب العالي في ٦ شباط. ولكن الحكومة العثمانية أعلنت في ١١ و ١٣ شباط معارضتها للبند الذي يدعوها إلى صرف عائدات البوسنة والهرسك على المنطقتين وللجنة الاشراف على الاصلاحات. إلا أنها أعلنت في الوقت ذاته العفو عن الثوار

وسمحت لهم بالعودة إلى منازلهم. كما ألغت ضريبة العُشر لمدة عام وجميع الضرائب الأخرى لمدة عامين. بالاضافة إلى ذلك تعهدت بإعادة بناء المنازل والكنائس التي هدمت خلال الثورة(٤٥).

ومع ذلك فقد رفض الثوار رمي سلاحهم واستمروا في ثورتهم وسط احتجاج النمسا/المجر. وفي بيان أصدره الثوار (سوتورنيا Sutorina) ٢٦ شباط ١٨٧٦) أعلنوا عن شكرهم للنمسا/المجر لاستقبالها اللاجئين. وختموا بيانهم بأنهم يتوقعون تأييد روسيا لهم(٤٦). وبذلك طويت مذكرة أندراسي.

وفي آذار تصاعدت نغمة الحرب داخل الصرب والجبل الأسود وازداد تدخل روسيا بالمسألة، مما جعل النمسا/المجر تستدرك الأمر وتفرض على الدولة العثمانية هدنة (نيسان ١٨٧٦) وتدعو دول عصبة الأباطرة الثلاث للتشاور في برلين. وفي هذا الوقت كانت الثورة قد امتدت إلى بلغاريا (أيار) وحدثت تطورات داخلية في أستانبول ابتدأت بتوقف الدولة العثمانية عن تسديد ديونها إلى البنوك الأوروبية (١٨٧٥) وانتهت بالانقلاب الذي قاده مدحت باشا وجماعة تركيا الفتاة لعزل السلطان عبدالعزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس مكانه. وفي بداية آب عزل أيضاً مراد الخامس واعتلى عبدالحميد الثاني عرش السلطنة(٤٧).

● مذكرة برلين (١٣ ايار ١٨٧٦) والمعارضة البريطانية:

وفيما الثورة مشتعلة في بلغاريا كان وزيرا خارجية روسيا والنمسا/المجر مجتمعين مع بسمارك في برلين لمناقشة الأزمة البلقانية. وقد تمخض عن هذا الاجتماع ما عرف بـ «مذكرة برلين». وكانت المذكرة في الواقع امتداداً لمذكرة أندراسي، إلا انها كانت أكثر تحديداً وتضمنت دعوة للهدنة لمدة شهرين ودخول الباب العالي خلال ذلك بمفاوضات مع الثوار في البوسنة والهرسك ــ أن تعمل السلطات العثمانية على تطبيق الاصلاحات بإشراف لجنة دولية ــ أن تعيد توطين المهجرين في منازلهم ــ أن يبقى



□ بسمارك في سنة ١٨٧٧.

الثوار على سلاحهم خلال مرحلة تنفيذ الاصلاحات، وأخيراً أن تضمن الدول الكبرى تنفيذ الاصلاحات. واختتمت المذكرة بتحذير الباب العالي، لا بل الدول الكبرى أيضاً، بأن عصبة الأباطرة الثلاث سوف تتخذ «**إجراءات فعالة**» (Mesures efficaces) للسيطرة على الموقف إذا ما انتهت الهدنة المعلنة ولم يتوصل الباب العالي إلى اتفاق مع الثوار(٤٨). وعندما استلمت إيطاليا وفرنسا المذكرة قبلتاها على الفور، في حين رُفضت من قبل بريطانيا جملة

وتفصيلاً، رغم أنها كانت تمنح الدول الكبرى الحق بالاشراف على تنفيذ الاصلاحات ورغم أنها لم تكن بعيدة عن روح مذكرة أندراسي.

والواقع إن هناك عدة أسباب لرفض بريطانيا لمذكرة برلين. ففي مقدمتها أن حكومة المحافظين البريطانية برئاسة دذرائيلي، التي كانت تحكم منذ ١٨٧٤، كانت قد خرجت عن العزلة التي فرضتها حكومة غلادستون على سياسة البلاد الخارجية. فعادت إليها حيويتها في المسألة الشرقية، فاشترت أسهم قناة السويس من الخديوي اسماعيل (١٨٧٥) وزاد أسطولها التجاري من استخدامه للقناة[٤٩]. وبالنسبة للبلقان، فرغم الطريقة التي كانت تقمع فيها الحكومة العثمانية الثورة البلغارية، ظلت الحكومة البريطانية متحفظة تجاه الثورات هناك، رغم احتجاج الحزب الليبرالي على ذلك وحملة غلادستون على الدولة العثمانية[٥٠]. وعلى ما يبدو فقد خشيت حكومة دذرائيلي إن هي أيدت الثورة من أن يؤدي ذلك إلى إضعاف نفوذها لدى الباب العالي أو أن يساعد ذلك روسيا على تنفيذ سياستها تجاه الدولة العثمانية[٥١].
كذلك رأت أن مذكرة برلين قد تعدت مسألة الاصلاحات وخاضت في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا بأن تحصل النمسا/المجر على البوسنة مقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا، وأن ذلك ليس إلا تمهيداً لتقويض الدولة العثمانية في أوروبا. وقد فسرت«**إجراءات فعالة**» لدول الحلف بأنها دعوة صريحة لتنفيذ التقسيم[٥٢]. وأخيراً يعود رفض بريطانيا للمذكرة إلى أن العصبة لم تستشرها حين وضعتها، بل فرضتها عليها فرضاً، وأنها بذلك قد عاملتها كدولة من الدرجة الثانية أو الثالثة[٥٣].
وبينما تضامنت إيطاليا وفرنسا مع العصبة لفرض المذكرة على الباب العالي دون مشاركة بريطانية، كانت الاضطرابات الداخلية في استانبول قد أسفرت عن عزل السلطان عبدالعزيز. وقبل أن يتم تنصيب خليفته مراد الخامس على العرش، تلقى دذرائيلي تقاريراً عن أن روسيا تسعى للقيام بانقلاب معاكس يعيد السلطان المعزول إلى العرش وأن أغناتيف قد حث السلطان عبدالعزيز على الاستنجاد بالأسطول الروسي. واستدراكاً للأمور أمر دذرائيلي الأسطول البريطاني بالتوجه إلى خليج بزيكا (أيار) وبالرسو خارج الدردنيل، كي لا تستغل روسيا اقتحامه للدردنيل وتقوم باحتلال الأستانة والممرات[٥٤]. وكانت هذه الخطوة بداية تورط بريطانيا في الأزمة البلقانية.

وإزاء الموقف البريطاني خففت الدول الخمس الموافقة على مذكرة برلين من تشددها وعرضت في السادس من حزيران على الحكومة العثمانية تأجيل إرسال المذكرة إليها إن هي أصدرت المراسيم الاصلاحية. ولكن بريطانيا رفضت هذه الصيغة المعدلة وهذا مما شجع الحكومة العثمانية من جانبها على رفض المذكرة[٥٥].

● مناورات أندراسي لافشال التقارب الروسي ــ البريطاني:

وبينما وصلت مذكرة برلين إلى طريق مسدود، قام جورشاكوف بخطوة خرج فيها لأول مرة عن سياسته في حل المسألة البلقانية بالتعاون مع العصبة، فدخل في مفاوضات مباشرة مع الحكومة البريطانية بواسطة شوفالوف (Schouvalov) السفير الروسي في لندن. وقد حاول السفير تبديد شكوك بريطانيا بنوايا بلاده تجاه الدولة العثمانية وأنه ليس لديها نيات توسعية في البلقان. فاقترح على الانكليز صيغة حل يقضي بمنح البوسنة والهرسك استقلالاً ذاتياً كالذي حصلت عليه الصرب ورومانيا، أي بمعنى آخر ضرب النفوذ النمساوي/المجري في تلك المنطقتين[٥٦]. وكاد البريطانيون أن يوافقوا لولا ان علم أندراسي بالمفاوضات وتمكن في آخر لحظة من أن يحبط الاتفاق بعدما ناور في اتجاهين:

فبعد جهد كبير تمكن من إقناع الروس بالتخلي عن تلك الفكرة والالتزام بخططه للاصلاح. وفي الوقت ذاته قام بتحذير دربي، وزير الخارجية البريطاني، من مخاطر فكرة الاستقلال أو الاستقلال الذاتي للبوسنة والهرسك على السلام الأوروبي بسبب الاختلافات الدينية والعرقية بين المسيحيين والمسلمين وإمكانية قيام شعوب بلقانية أخرى بالاحتذاء بالمنطقتين والثورة في سبيل الاستقلال مما يعرض السلام الدولي للخطر[٥٧].

— ٤ —

حرب الصرب والجبل الأسود ضد الدولة العثمانية ونتائجها

ومنذ اندلاع ثورة البوسنة والهرسك اكتفت الصرب والجبل الأسود بدعمهما بالمال والمتطوعين، دون أن تتدخلا مباشرة بالقتال. ولكن اتساع الثورة إلى بلغاريا والطريقة التي أخمدت بها من جانب السلطات العثمانية، إلى جانب تسلم الجماعة المؤيدة للحرب زمام السلطة في الصرب بزعامة ريزتش (Ristic') ووزير الخارجية، والضغوطات التي مارسها أغناتيف بواسطة القنصل الروسي في بلغراد — كل هذه الأمور فرضت على الأمير ميلان الرضوخ للرأي العام المؤيد للحرب، رغم أنه كان يعلم جيداً أن بلاده لا تستطيع أن تخرج من الحرب منتصرة[٥٨]. لكن ريزتش وجماعته كانوا يعتقدون أن روسيا سوف لن تترك الصرب فريسة بأيدي العثمانيين، بل ستضطر لدخول الحرب. إلا أن ريزتش لم يضع في اعتباره أنه قبل أن تقدم روسيا على مثل هذه الخطوة، كان عليها تخطي عقبات دبلوماسية داخل عصبة الأباطرة وخارجها، وخلال ذلك الوقت تكون الهزيمة قد لحقت بالصرب[٥٩].

وقبيل الحرب كان الأمير ميلان قد استطلع موقف النمسا/المجر وروسيا من الحرب ضد الدولة العثمانية. فالنمسا/المجر مدعومة من بريطانيا وفرنسا كانت قد حذرت الأمير ميلان من الحرب، حتى أن ممثلها في بلغراد كاد أن يرسل إنذاراً إلى الأمير ميلان بأن القوات النمساوية/المجرية والعثمانية سوف تحتل الصرب إذا ما أعلن الحرب على الدولة العثمانية[٦٠]. أما روسيا فكانت تتعاون رسمياً مع النمسا في تهدئة الصرب والجبل الأسود، ولكنها كانت تريد ضمناً أن تقع الحرب وتشتعل الثورة في كل أنحاء البلقان مما يسهل إعادة بحث المسألة الشرقية بكاملها[٦١].

وبعد إنذار شكلي (٢٧ حزيران ١٨٧٦) أعلنت الصرب الحرب على الدولة العثمانية (٣٠ حزيران) ولحق بها الجبل الأسود في ٢ تموز.

وبعد عدة أيام على ذلك (١٠ تموز) عقدت الصرب والجبل الأسود تحالفا عسكريا فيما بينهما. وكان مجموع القوات التي حشدتاها يصل إلى ٩٠ ألفا من الجند، مقابل ١٥٠ ألفا في الجانب العثماني. وقد وضعت قيادة القوات الصربية بإشراف الجنرال الروسي تشرنيف (Chernaev)، كما انضم إليها عدد كبير من الضباط والمتطوعين الروس[٦٢]. وعند بدء العمليات اندفعت القوات الصربية عبر حدود البوسنة، في حين عبرت قوات الجبل الأسود الحدود إلى الهرسك.

● اتفاقية رايخشتادت بين روسيا والنمسا/المجر (٨ تموز ١٨٧٦):

حتى دخول الصرب والجبل الأسود الحرب ضد الدولة العثمانية ظل التيار الرافض للحرب هو المهيمن في روسيا. لكن بعد ذلك اشتد ضغط أنصار الجامعة السلافية الداعين للحرب وخصوصاً العسكريين منهم، على القيصر لاعلان الحرب على الدولة العثمانية. فمشاركة المتطوعين الروس وقيادة القوات الصربية من قبل ضباط روس وإعلان قيصرة روسيا لنفسها حامية للجمعيات الخيرية الصربية والدعوات التي انطلقت من الكنائس لدعم الصرب وملايين الروبلات التي جمعت لذلك — كل هذه الأمور جعلت بامبرغ (Bamberg) يتساءل عما إذا كانت كل هذه التحركات حصلت داخل روسيا دون موافقة القيصر[٦٣]. ولكن أي تحرك في اتجاه الحرب كان يحمل معه احتمال الصدام مع النمسا/المجر. لذا رأى القيصر أن أية خطوة عسكرية يجب أن يسبقها اتفاق سياسي مع النمسا/المجر.

ولأجل ذلك عُقد في ٨ تموز لقاء في رايخشتادت (Reichstadt) (بوهيميا) بين جورشاكوف وأندراسي اتفق فيه على عدم التدخل في الحرب بالمرحلة الراهنة. لكن إذا ما هُزمت الصرب والجبل الأسود فيجب حرمان الدولة العثمانية من انتصاراتها وإعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقاً. أما إذا ما أُلحِقَتْ الهزيمة بالدولة العثمانية فإن روسيا تقوم بضم جنوب بسارابيا، بينما لا تعارض النمسا/المجر استيلاء

روسيا على باطوم ومناطق أخرى على الحدود الآسيوية مع الدولة العثمانية. وفي حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا تقرر أن تعلن استانبول مدينة حرة، وتلحق ابيروس وتيساليا باليونان وتصبح بلغاريا وروميليا مستقلتان ذاتياً أو تماماً(٦٤).

ولما كان الاتفاق شفهياً فقد كان عرضة للتفسيرات المتناقضة من قبل الجانبين. فقد فسر كل فريق الاتفاق من وجهة مصالحه. وكانت نقطة الخلاف حول مصير البوسنة والهرسك، هل تضمان إلى النمسا/المجر أو تقسمان بين الصرب والجبل الأسود الخاضعتان للنفوذ الروسي؟ كذلك أبدت بريطانيا انزعاجها من تلك الخطط التي تدعو لتقسيم الدولة العثمانية في البلقان، دون أي اعتبار للتوازن الدولي المرتبط بذلك.

● هزيمة الصرب والتورط الروسي:

وبينما حقق الجبل الأسود نجاحات كبيرة في الحرب، كانت الصرب تتلقى الهزيمة تلو الأخرى مما جعل القيصر (٢٧ ايلول) يعاود الاتصال بالنمسا/المجر مقترحاً عليها هذه المرة احتلال البوسنة والهرسك، مقابل احتلال بلاده لبلغاريا(٦٥). هذا في حين كان أغناتيف من استانبول يدعو الدول الكبرى إلى الموافقة على إعلان استقلال بلغاريا والبوسنة والهرسك (١٩ ت١ ١٨٦٧)(٦٦). وهكذا أخذت روسيا تطور مشروع تقسيم الدولة العثمانية ليشمل بلغاريا، وهذا يظهر التوجه الجديد الذي سارت فيه الدبلوماسية الروسية في طريق الجامعة السلافية ووضع السلاف الجنوبيين تحت هيمنتها. ولذلك رفضت النمسا/المجر وبريطانيا هذه المقترحات، رغم أن القيصر دعاهما مع غيرهما من الدول الكبرى إلى إرسال أساطيلها والقيام بمظاهرة بحرية أمام استانبول(٦٧). فبدلاً من ذلك اقترحت النمسا/المجر حل الأزمة دبلوماسياً بعمل مشترك للدول الكبرى في استانبول.

وقبل أن تدرس الدول الاقتراح النمساوي/المجري كانت التطورات تسير مسرعة على الأرض. فقد انهزمت الصرب بعدما كانت قد خرقت الهدنة التي كانت الدول الكبرى قد فرضتها (٢٧ ت١) وباتت الطريق إلى بلغراد مفتوحة أمام الجيش العثماني. وهذا ما دفع قيصر روسيا مهدداً بالحرب إلى توجيه إنذار إلى الباب العالي لوقف القتال خلال ٤٨ ساعة وعقد هدنة من ٦ ــ ٨ أسابيع(٦٨). ولم يكن أمام الباب العالي سوى الرضوخ للانذار الروسي (٣١ ت١ ١٨٧٦). أما في بريطانيا فقد سبب الانذار استياء، فوصفته ملكتها بـ «المتهور»(٦٩).

ولم تكن هزيمة الصرب لتمر دون ردود فعل داخل روسيا. فقد سببت خيبة أمل لدى أنصار الجامعة السلافية فتحولوا عن الصرب إلى بلغاريا لتكون سلاحاً ضد الدولة العثمانية ومنطقة نفوذ لروسيا. كذلك وضعت هزيمة الصرب القيادة الروسية وسمعتها كحامية للسلاف في مواجهة الرأي العام الروسي المطالب بالحرب على المحك، ليس فقط لحماية البوسنة والهرسك أو الصرب، بل جميع سلاف البلقان. وهكذا أصبحت المسألة بالنسبة للقيادة الروسية «**الحرب ضد تركيا أو المجازفة باضطرابات داخل البلاد**»(٧٠). وهذا ما دفع القيصر إلى إبلاغ السفير البريطاني في بطرسبرغ (٢ ت٢ ١٨٧٦) بأنه إذا لم يجد لدى الدول الكبرى حلاً للمسألة فإنه يعتزم العمل منفرداً، وقد يضطر لاحتلال بلغاريا، لكن دون المساس باستانبول أو بالمصالح البريطانية مع الهند(٧١).

ورغم خطورة تصريحه إلا أنه يفهم منه أن القيصر ظل يأمل بإمكانية إيجاد حل سلمي للمسألة بواسطة الدول الكبرى يضمن لروسيا مصالحها البلقانية. فاستغل دربي (Derby) ذلك ودعا (٤ ت٢) إلى عقد مؤتمر دولي في الأستانة للنظر في تلك المشاكل وإيجاد حل لها. ولكن دربي اشترط موافقة الدول الكبرى المسبقة على عدة ثوابت كان أهمها «**تأكيد الدول الكبرى على استقلال وسيادة الدولة العثمانية الاقليمية**» وحصول البوسنة والهرسك على استقلال إداري فقط (إرضاء للنمسا/المجر)(٧٢). وفي رده على دربي (٦ ت٢) قبل القيصر جميع المقترحات البريطانية باستثناء ما يتعلق منها باستقلال وسيادة الدولة العثمانية الاقليمية، إذ رأى أن على الدول الكبرى احتلال أراض عثمانية واستخدامها كضمان لتنفيذ الباب العالي

للاصلاحات. كما اقترح على دربي أن تقوم روسيا بذلك باسم الدول الكبرى مستشهداً بالعزو الفرنسي «للبنان» عام ١٨٦٠[٧٣]. لكن بريطانيا رفضت ذلك إذ كانت تدرك أن روسيا سوف تحول الاحتلال المؤقت باسم الدول الكبرى إلى احتلال دائم لحسابها. وإزاء الرفض البريطاني اضطر القيصر إلى قبول الثوابت البريطانية كاملة. إلا أنه كرر تحذيره (١١ ت٢) بأنه سيلجأ إلى السلاح إذا ما فشل مؤتمر الأستانة، وعندئذ «**فإنه مقتنع بأن روسيا ستستجيب (لندائه) عندما ترى أن شرف روسيا يتطلب ذلك**»[٧٤]. ولكي يعطي تحذيره القوة الكافية أعلن في ١٣ ت٢ نصف تعبئة باستدعاء ست فرق من الجيش وعين شقيقه الدوق نيقولا قائداً للجبهة[٧٥]. وتحت هذه الظروف وفد ممثلو الدول الكبرى إلى الأستانة للمشاركة في المؤتمر.

● مؤتمر الأستانة والدستور العثماني:

عقدت جلسات المؤتمر على مرحلتين: مرحلة اولى واستمرت من ١١ ك١ ـ ٢٢ ك١ ١٨٧٦ وشاركت فيها الدول الأوروبية فقط، بعدما استبعدت الدولة العثمانية عن تلك الجلسات بناء على اقتراح المندوب الروسي. أما المرحلة الثانية فبدأت في ٢٣ ك١ ١٨٧٦ واستمرت متقطعة حتى ١٨ ك٢ ١٨٧٧ وانضمت إليها الدولة العثمانية. وقد شارك في المؤتمر ممثلو الدول الكبرى. على أن أبرز هؤلاء كان أغناتيف، مندوب روسيا، وسالسبوري (Salisbury)، مندوب بريطانيا. ومما يلفت النظر التقارب الذي حدث بين سالسبوري وأغناتيف خلال جلسات المؤتمر، خاصة أن الأول كان يرى استحالة استمرار الحكومة البريطانية بسياستها التقليدية في المحافظة على سلامة الدولة العثمانية. وكان سالسبوري متحمساً لمسيحيي البلقان ولا يخشى روسيا، بل كان يرى ضرورة وجود تفاهم بينها وبين بريطانيا[٧٦]. وقد استغل اغناتيف آراء سالسبوري هذه إلى أقصى الحدود، بحيث جاءت قرارات المؤتمر لمصلحة روسيا، رغم ما أدخل عليها من تعديلات.

وكانت أهم النقاط التي اتفق عليها المؤتمرون: توحيد البوسنة والهرسك في ولاية واحدة يحكمها حاكم يعين من قبل الحكومة العثمانية بموافقة الدول الكبرى، على أن ترسل هذه الولاية الجديدة ثلث عائداتها فقط إلى الخزينة العثمانية ـ إعطاء الجبل الأسود والصرب مكاسب إقليمية بسيطة ـ الاعتراف باللغة السلافية لغة رسمية للاقليم ـ إنشاء لجنة دولية للاشراف على تنفيذ الاصلاحات[٧٧]. أما مشروع أغناتيف القاضي بخلق دولة بلغارية كبيرة تمتد من البحر الأسود إلى الصرب القديمة في الغرب مع ساحل على بحر إيجه، فقد رُفض بشدة من قبل سالسبوري، رغم تقارب الأخير إلى أغناتيف واقتناعه بحتمية انهيار الدولة العثمانية. وكان سالسبوري يرى أن قيام بلغاريا الكبرى سوف يقضي على استقلال الدولة العثمانية[٧٨]. وبتأييد من مندوب النمسا/المجر تمكن سالسبوري من تعديل الاقتراح وتم الاتفاق على تقسيم دولة بلغاريا الكبرى التي اقترحها أغناتيف إلى قسمين، واحد شرقي، والآخر غربي، على أن تحرم من منفذ على بحر إيجه[٧٩]. وكان هذا يتناسب مع استراتيجية كل من بريطانيا والنمسا/المجر في المسألة الشرقية.

وفي ٢٣ ك١ ١٨٧٦ افتتحت أول جلسة رسمية للمؤتمر بحضور المفاوض العثماني. ولكن بعد قليل على بدء الجلسة أبلغ المؤتمرون بأن السلطان عبدالحميد قد أصدر دستوراً للبلاد من عمل مدحت باشا، الذي كان السلطان قد عينه صدراً أعظماً في ٢٥ ت٢ ١٨٧٦. ونص الدستور على إنشاء برلماناً (مجلس المبعوثان) ومجلساً للشيوخ (مجلس الأعيان). كما لحظ إعادة تنظيم القضاء وجعله مستقلاً وتشكيل إدارة للولايات على أساس اللامركزية وضمان الحرية الكاملة لجميع السكان وجباية الضرائب بصورة عادلة[٨٠].

وكان الهدف من توقيت إصدار الدستور مع افتتاح أولى جلسات المؤتمر الرسمية هو قطع الطريق على الدول الأوروبية للتدخل السافر بشؤون الدولة الداخلية لحماية المسيحيين وإفهامها أن ما صدر عنها من قرارات لصالح المسيحيين لا حاجة لها، طالما أن الدولة العثمانية قد أصبحت دولة دستورية وأن رعاياها يتمتعون



□ مدحت باشا وسكرتيره.

بالحرية والمساواة بموجب الدستور. وعلى هذا الأساس رفض الباب العالي مقررات مؤتمر الأستانة، وخصوصاً تلك التي تتعلق ببلغاريا ولجنة المراقبة الدولية[٨١]، وقد برر مسلكه بأن معاهدة باريس ومعاهدة ١٥ نيسان ١٨٥٦ بين بريطانيا وفرنسا والنمسا قد نصتا على عدم تدخل الدول الأوروبية مجتمعة أو منفردة في شؤون السلطنة الداخلية[٨٢]. ولكي يدعم السلطان عبدالحميد قرار حكومته استحصل على موافقة جماعية برفض المقررات من مجلس ضم أكثر من ٢٤٠ شخصية من رجالات الدولة ومندوبين مسيحيين ويهود (١٨ ك٢ ١٨٧٧)[٨٣].

ورغم احتجاج أغناتيف على الرفض العثماني وسؤال جورشاكوف الدول المشاركة عن الموقف الذي ستتخذه، فقد انفض المؤتمر لتعذر الاتفاق بين الدول على السبل التي قد تجعل الباب العالي يوافق على المقررات. وعلى ما يبدو فقد كان الباب العالي مشجعاً برفضه من قبل السير هنري اليوت (Sir Henry Elliot) السفير البريطاني في الأستانة ذو الاتجاهات العثمانية[٨٤]. وكان اليوت يحظى بتأييد دذرائيلي ودربي ويؤيد سياسة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية على عكس سالسبوري. وهذا ما جعل الأخير يطلب خلال جلسات المؤتمر نقل اليوت من الأستانة دون أن ينجح في ذلك. فدذرائيلي، الذي رفض استخدام الأسطول البريطاني للضغط على الحكومة العثمانية لقبول المقررات، انتقد ودربي الليونة التي أظهرها سالسبوري في المؤتمر تجاه المطالب الروسية، حتى أن دربي وصفه بأنه كان «**روسياً أكثر من إيجناتيف**»[٨٥]. ولهذا أخبر دربي السفير العثماني في لندن (١٠ ك٢ ١٨٧٧) أن حكومته سوف تعارض أية إجراءات قسرية ضد الدولة العثمانية[٨٦]. ولهذا أيضاً تصلب العثمانيون بموقفهم بعدما شعروا أن بريطانيا لن تتخلى عنهم في حال أعلنت روسيا الحرب عليهم. وعندما عقدت الدولة العثمانية في ٢٨ شباط ١٨٧٧ اتفاقية مع الصرب لاعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب، تشجعت بريطانيا بتلك المبادرة وأعلنت أنها تعطي الدولة العثمانية مهلة سنة لتنفيذ الاصلاحات. ولكن روسيا رفضت ذلك وأعلنت أنها لا تستطيع إبقاء جيشها تحت السلاح طوال هذه الفترة[٨٧]. وكان معنى هذا أن روسيا لم يعد أمامها سوى خيار الحرب.

وبالفعل خرجت روسيا من مؤتمر الأستانة وهي تدرك أن الحرب هي الحل المتبقي لها لتأمين مصالحها. ويذكر بامبرغ نقلاً عن مدحت باشا أن إصدار الدستور العثماني هو الذي عجل بالحرب، لأن روسيا خشيت من أن يعقد المسيحيون في الدولة العثمانية الآمال على الدستور الجديد وتفقد بذلك تعاطفهم مع مخططاتها ومبرر تدخلها في البلقان وسائر أنحاء الامبراطورية[٨٨].

● بروتوكول لندن (٣١ آذار ١٨٧٧):

وعندما بحث مجلس الوزراء الروسي مسألة إعلان الحرب انقسم على نفسه بين مؤيد ورافض لها، حتى أن أغناتيف الداعي للحرب كان يرى أن بلاده قد تأخرت في ذلك وأضاعت على نفسها نصراً مؤكداً. ولهذا دعا أغناتيف المجلس إلى إيجاد حل سلمي وتأمين عمل موحد للدول الكبرى. وقد وافق المجلس على اقتراحه وطلب إليه القيام برحلة أوروبية، في الوقت الذي تستمر فيه روسيا باستعداداتها الحربية وإتمام التحالفات البلقانية الضرورية لذلك[٨٩].

وفي آذار ١٨٧٧ زار أغناتيف برلين وباريس ولندن وفيينا وعرض مشروعا يدعو الحكومة العثمانية لعقد السلام مع الجبل الأسود وفقاً لبنود مؤتمر الأستانة وإجراء الاصلاحات المنشودة وأخيراً إلغاء حالة الاستنفار في الجيش العثماني. وبينما أكد بسمارك لأغناتيف حياد ألمانيا طالما ظل الصراع محصوراً بين روسيا والدولة العثمانية ولم يمس بعصبة الأباطرة، كان الفرنسيون متحفظون تجاه إلغاء حالة الاستعداد العسكري من جانب واحد. وفي لندن وفيينا اشترطت حكومتا البلدين إلغاء روسيا أولاً حالة الاستنفار قبل بحث أي حل للمسألة.

ورغم هذه الردود استطاع اغناتيف إقناع الدول الكبرى أن بلاده لا تستطيع إلغاء حالة الاستعداد العسكري لأن الجبل الأسود لا يزال في حالة حرب ضد الدولة العثمانية[٩٠]. كما أعلن عن استعداد روسيا للتخلي عن إحدى

بنود مؤتمر الأستانة المتعلق بإجراء الاصلاحات العثمانية بإشراف لجنة دولية[٩١]. وهكذا تمكن اغناتيف من الحصول على موافقة الدول الكبرى على «بروتوكول لندن» (٣١ آذار ١٨٧٧)، الذي دعا الدولة العثمانية لاجراء الاصلاحات وإلغاء حالة الاستنفار وعقد السلام مع الجبل الأسود. وفي نهاية البروتوكول حذرت الدول الحكومة العثمانية بأنه إذا لم تتحسن أحوال المسيحيين عندها، فإنها، أي الدول الكبرى، سوف تتصرف مجتمعة لأجل مصلحة أوروبا[٩٢].

ورغم توقيعها على البروتوكول، فإن الحكومة البريطانية أعلنت أنها لن تنفذ التحذير ما لم تقم روسيا والدولة العثمانية بإلغاء حالة الاستنفار في آن واحد[٩٣]. وفي ٩ نيسان رفضت الدولة العثمانية بروتوكول لندن، لأنه نص على تجريدها من سلاحها، بينما يحتفظ الروس المتربصون بالسلطنة بسلاحهم.

— ٥ —

الحرب الروسية العثمانية (٢٤ نيسان ١٨٧٧ ـ ٣١ ك٢ ١٨٧٨)

● التحضيرات الروسية للحرب:

حتى قبل أن ينفض مؤتمر الأستانة كانت روسيا تدرك أن المؤتمر لن يصل إلى أية نتيجة. ولهذا استبقت فشله وعقدت معاهدة عسكرية مع النمسا/المجر (١٥ ك٢ ١٨٧٧) نصت على أن تحتل النمسا/المجر البوسنة والهرسك مقابل حيادها في الحرب الروسية العثمانية المقبلة. ثم ما لبثت الدولتان ان طورتا المعاهدة إلى اتفاقية سياسية (١٨ آذار) سمحت للنمسا استبدال احتلالها للبوسنة والهرسك إلى ضم للمنطقتين، مقابل استيلاء روسيا على جنوب بسارابيا. ووفقاً لمعاهدة ١٨ ك٢ واتفاقية ١٨ آذار تقرر أن يكون سنجق نوفي بازار منطقة محايدة وعدم احتلال القوات الروسية لرومانيا وإلا تقدم الصرب والجبل الأسود مساعدات عسكرية لروسيا إلا خارج حدودهما. وأخيراً اتفق على عدم قيام دولة سلافية كبيرة في البلقان وتبادل الدعم الدبلوماسي لمواجهة أي تحرك دولي ضد سياستهما البلقانية.

وفي حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا، اتفق على جعل الأستانة مدينة حرة[٩٤]. وباختصار، فقد أدركت الحكومة النمساوية/المجرية أنه لا يمكنها منع تدخل روسيا في البلقان، ففضلت التزام «الحياد الودي»، والحصول على البوسنة والهرسك مقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا وامتناعها عن دولة بلغارية كبرى.

وتلي الاتفاق مع النمسا/المجر اتفاقيتين عسكرية/فنية وأخرى سياسية (١٦ نيسان) مع رومانيا. وبموجب هاتين الاتفاقيتين سمحت رومانيا، ولم يكن لديها خيار آخر، للجيش الروسي الزاحف إلى البلقان بعبور أراضيها وتعهدت بالمشاركة بالحرب ضد الدولة العثمانية. ومقابل ذلك تعهدت روسيا باحترام الحقوق السياسية لدولة رومانيا والمحافظة والدفاع عن سيادتها[٩٥].

● اندلاع القتال:

وفي ٢٤ نيسان ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وعبر جيشها نهر بروث، فيما كانت قوات روسية أخرى تهاجم الأراضي العثمانية في القوقاز. وفي ١٣ أيار انضمت رومانيا إلى الحرب، لكن الروس لم يسمحوا للجيش الروماني بالعمل مستقلاً، بل ضمن وحدات الجيش الروسي. كذلك انضم متطوعون بلغار إلى الجيش الروسي. وسواء في أوروبا أو في آسيا فقد اتسم تقدم الجيوش الروسية عبر الأراضي العثمانية في مراحل الحرب الأولى بالبطء الشديد. فعلى الجبهة الأوروبية لم يتمكن العثمانيون من عبور الدانوب قبل ٢٣ حزيران. وبعد ذلك اتجهوا جنوباً نحو جبال البلقان حيث أوقفتهم المقاومة العثمانية غير المتوقعة عند بلفنا (Plevna) حتى أواخر تشرين الثاني. وفي آسيا تلقى الروس أيضاً صدمة مؤقتة عند قلعة قارس. لكنهم حققوا بعد ذلك انتصارات سريعة وحاسمة على الجيش العثماني.

وعلى عكس حروبها السابقة ضد الدولة العثمانية شددت روسيا في بيان الحرب الحالية على العامل القومي لشعوب البلقان وأعلنت أنها تخوض الحرب لأجل تحريرهم من الحكم العثماني. ففي كلمة له عند إعلان الحرب خاطب

القيصر البلغار قائلاً: «**يا مسيحيي بلغاريا، أنتم تمرون في فترة حاسمة. لقد حانت ساعة الخلاص من الطغيان الاسلامي.. تكتلوا تحت الراية الروسية.. أطيعوا السلطات الروسية واتبعوا تعليماتها بإخلاص.. ففيها تجدون قوتكم وأمنكم**»[٩٦].

وكانت القيادة الروسية وفي مقدمتها جورشاكوف وسوسولوف تريد حرباً سريعة وألا تعبر الجيوش الروسية جبال البلقان وتقيم دولة بلغارية في جنوبيها. وكان الاثنان يريان أن سياسة «معتدلة» كهذه سوف تجنب البلاد تعقيدات دولية، خصوصاً مع شريكتيها في عصبة الأباطرة الثلاث أو مع بريطانيا. ومقابل هذا التيار كان أنصار الجامعة السلافية يرون — في ضوء ضعف الجيش العثماني والوضع الدولي — فرصة ذهبية لخلق دولة بلغارية كبرى والاستحواذ على الأستانة و «**إعادة بعث العالم السلافي**»[٩٧].

● مواقف الدول الكبرى من الحرب:

وفي اليوم الذي أعلنت روسيا فيه الحرب على الدولة العثمانية، ذكّر الباب العالي الدول الأوروبية الموقعة على معاهدتي باريس والضمان بالتزاماتها في الدفاع عن استقلال وسيادة الدولة العثمانية واعتبار ذلك مصلحة أوروبية عامة[٩٨]. ولكن الأوضاع الدولية عشية الحرب كانت في مصلحة روسيا وتمنع قيام أي تكتل أوروبي ضدها كالذي حصل خلال حرب القرم. فما هي إذن هذه الأوضاع؟ وكيف كان الموقف الدولي خلال الحرب؟

وفيما كانت إيطاليا وفرنسا غير مباليتين بالحرب الروسية العثمانية، انحصر التحرك الدولي في النمسا/المجر وألمانيا وبريطانيا. وكانت النمسا/المجر لا تمانع بموجب الاتفاقيتين السالفتين الذكر مع روسيا حرباً روسية عثمانية، شرط ألا تخل بالتوازن في البلقان وتضر بمصالحها الاستراتيجية، ومنها خلق دولة بلغارية. وطالما أن استراتيجية الحرب الروسية لن تتعدى هذه الحدود، رأت النمسا/المجر ألا تتدخل في الحرب، خصوصاً أنها أرادت أن تحافظ على علاقاتها مع روسيا ضمن عصبة الأباطرة الثلاث[٩٩]. أما ألمانيا فأعلنت أنها ستقف على الحياد في المسألة الشرقية. لكن بسمارك، الذي كان يدرك أخطار الجامعة السلافية على استقلال النمسا/المجر، أعلن أن بلاده سوف لن تقف مكتوفة اليدين إذا ما تعرض استقلال النمسا/المجر للخطر[١٠٠] وكان هذا تحذيراً غير مباشر لروسيا من مغبة الاعتماد على مساعدة ألمانيا في أية حرب ضد الشريك الثالث في العصبة، كما كان أحد الأسباب التي جعلت روسيا تسعى للاتفاق مع النمسا/المجر قبل بدء الحرب. ومع ذلك فقد كان بسمارك يخشى ألا تسير الأمور كما يشتهي وتتورط الدول الأوروبية في حرب عامة كما حدث في حرب القرم مما قد يؤدي إلى قيام تحالفات جديدة تنسف مركز ألمانيا الدقيق في التوازن الأوروبي. ولذلك رأى أن أفضل وسيلة هي إشباع أطماع الدول الكبرى بمسائل بعيدة عن وسط أوروبا. ومن هنا جاء اقتراحه بحل المسألة الشرقية عن طريق تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول الكبرى. فالمسألة الشرقية بالنسبة له لم تكن تستحق «**التضحية بعظمة جندي ألماني**»[١٠١]. وفي ١٥ حزيران ١٨٧٣ عاد إلى ما كان قد عرضه على روسيا والنمسا/المجر في ك٢ ١٨٧٦ بتقسيم البلقان بينهما، في حين تحصل بريطانيا على مصر وتعوض فرنسا بتونس وإيطاليا بطرابلس. أما بالنسبة للأستانة فرأى بسمارك أن تكون منطقة نفوذ روسية[١٠٢].

وكانت أولى ردود الفعل البريطانية على عروض بسمارك غاضبة. فقد اعتقد الانكليز بأن بسمارك يسعى لأن يضرب بريطانيا بروسيا. وقد صرح دذرائيلي، الذي كان لا يثق ببسمارك، أن بلاده لا تحتاج لاذنه إذا ما قررت احتلال مصر، وأن قوة بريطانيا «**هي في البحر؛ إن الأستانة هي مفتاح الهند وليست مصر وقناة السويس**»[١٠٣]. والواقع إن تأكيد دذرائيلي على أهمية الممرات لبريطانيا جاء في وقت كانت «شركة الهند الشرقية» تطلق صيحات الخوف من التطورات الحاصلة في الشرق، إذ اعتبرت المسألة الشرقية «**مسألة روسية هندية**» وطالبت «**بضمان حياد الأستانة وبرزخ السويس حيث أنهما يؤثران على المواصلات إلى الهند وعلى علاقتنا (بريطانيا) مع**

روسيا، حيث أصبحت الأخيرة جارتنا، بعدما استقرت في آسيا الصغرى وعلى حدودنا الهندية»(١٠٤).

والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت قبل شهر على عروض بسمارك وبسبب انقسامها حول عمل موحد ضد روسيا يقي مصالحها من الضرر، قد اكتفت بتوجيه إنذار إلى الأخيرة (٦ أيار ١٨٧٧) بعدم التعرض لمصالحها التجارية أو الاستراتيجية وهي الطريق إلى الهند (قناة السويس، والممرات العثمانية والأستانة). وفي رده على دربي (٣٠ أيار) نفى جروشاكوف أية نية لبلاده لتعطيل الملاحة في قناة السويس أو احتلال الأستانة، لأن الأخيرة مسألة أوروبية عامة(١٠٥). وفي ١٧ و ٢١ تموز تكرر الانذار البريطاني، حينما كان الجيش الروسي مندفعاً نحو جبال البلقان. وفي الوقت ذاته (٢٨ تموز) لم تنجح بريطانيا في جر النمسا/المجر إلى تحالف معها ضد روسيا(١٠٧).

● معاهدة سان استيفانو (٣ آذار ١٨٧٨) ونتائجها:

وكما ذكرنا آنفاً، فقد توقف الزحف الروسي في الجبهة الأوروبية عند قلعة بلفنا، بعدما استبسل العثمانيون بقيادة عثمان باشا في الدفاع عنها. وقد اضطر هذا القيادة الروسية إلى طلب العون من دول البلقان. إلا أن هذه الدول ترددت في ذلك، إذ خشيت من أن يتمكن العثمانيون من سحق الجيش الروسي. ولكن المقاومة العثمانية انهارت في ١١ ك١ ١٨٧٧، مما جعل دربي يحذر روسيا مجددا بأن بلاده سوف لن تقف مكتوفة اليدين حتى ولو احتلت روسيا الممرات والأستانة احتلالاً مؤقتاً. وبعدما رفض الروس وساطة بريطانية لانهاء الحرب(١٠٨)، اندفعوا بقواتهم واحتلوا صوفيا وادرنة (ك٢ ١٨٧٨). ثم ما لبثت روسيا والدولة العثمانية أن توصلتا إلى عقد هدنة (٣١ ك٢ ١٨٧٨). وبموجب البند الخامس لاتفاقية الهدنة تعهد السلطان العثماني **«بالوصول إلى اتفاق مع قيصر روسيا في سبيل الحفاظ على حقوق روسيا ومصالحها في ممرات البسفور والدردنيل»**(١٠٩)، وهو ما أثار بريطانيا. كذلك نصت الاتفاقية على إيجاد دولة بلغارية في البلقان.

وبعد هذا الاتفاق أخذت الحكومة البريطانية تدرك أكثر مخاطر السياسة الروسية على مصالحها، ولم تعد المسألة هي المحافظة على الدولة العثمانية، بقدر ما أصبحت **مسألة التفوق الروسي أو البريطاني في العالم**(١١٠) ولهذا قررت الحكومة البريطانية في شباط صرف مبلغ ستة ملايين جنيه استرليني لدعم قدرات البلاد العسكرية(١١١). وفي الوقت ذاته حاولت فاشلة إنشاء جبهة من دول البحر المتوسط ضد النفوذ الروسي(١١٢). وبعد تردد أمرت الحكومة البريطانية أسطولها بالتقدم نحو الممرات (١٢ شباط ١٨٧٨) وسط احتجاج عثماني واستقالة دربي(١١٣). وبموافقة عثمانية رد الروس على التحرك البريطاني بالتقدم إلى سان استيفانو (San Stefano) حيث عسكروا على بعد عشرة أميال من العاصمة العثمانية. وهكذا أصبح الأسطول البريطاني في الممرات، بينما الجيش الروسي في سان استيفانو ولا يفصل بينهما سوى مسافة خمسين ميلاً(١١٤). وبدى أن الحرب أصبحت وشيكة بين الدولتين. ولكن روسيا توصلت في ٣ آذار ١٨٧٨ إلى معاهدة سان استيفانو مع الدولة العثمانية. وقد أوجدت المعاهدة دولة بلغارية كبيرة تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه. وتضم روميليا الشرقية ومقدونيا. كما تخلت الدولة العثمانية إلى روسيا عن قارس وباطوم وأردهان وبايزيد كجزء من تعويضات الحرب التي كان عليها أن تدفعها إلى روسيا. كما ضُمت جنوب بسارابيا إلى روسيا، مقابل إعطاء جزء من إقليم دبروجة (Dobrudja) إلى رومانيا. أما الصرب والجبل الأسود فتقرر حصولهما على مكاسب إقليمية ومنحهما مع رومانيا الاستقلال. كما قضت الاتفاقية تنفيذ الاصلاحات التي كان مؤتمر الأستانة قد قررها للبوسنة والهرسك. وهكذا لم تُبق الاتفاقية للدولة العثمانية في أوروبا سوى منطقتين منفصلتين، تراقيا الشرقية والبانيا وسهول فاردار في الجانب الآخر وتفصل بينهما بلغاريا الكبرى(١١٥).

وقُوبلت اتفاقية سان استيفانو بعاصفة من الاحتجاج من جانب دول البلقان، بريطانيا



□ مؤتمر برلين والوفود المشاركة



والنمسا/المجر. فدول البلقان شعرت أن التوازن في شبه الجزيرة قد اختل لصالح بلغاريا الواقعة تحت النفوذ الروسي. أما بريطانيا فوجدت بقيام دولة بلغارية كبرى تحت النفوذ الروسي مع منفذ على بحر إيجه، وكذلك استيلاء روسيا على مناطق عثمانية في آسيا الصغرى تهديداً للهند ولمصالحها في الممرات والأستانة. فقامت على الفور باستدعاء ٧٠٠٠ جندي من الهند[١١٦]. ولم يكن قيام دولة بلغارية كبرى مع منفذ على البحر هو الذي أقلق النمسا/المجر فحسب، بل اتساع تلك الدولة نحو الغرب، وهو الذي اعتبرته انتهاكاً صارخاً لاتفاقية ١٨ آذار ١٨٧٧[١١٧]. فهددت النمسا/المجر باحتلال البوسنة والهرسك وأعلنت التعبئة في دلماشيا وفي ولايات الدانوب[١١٨]. كما أعلنت أن عقد السلام بين روسيا والدولة العثمانية هي مسألة أوروبية يجب أن تحظى باتفاق الدول الكبرى. بل إن النمسا/المجر دعت بناء على ذلك إلى عقد مؤتمر دولي. وفي حين وافقت معظم الدول على عقد مؤتمر، ربطت بريطانيا مشاركتها فيه بمناقشة بنود اتفاقية سان استيفانو على طاولة المفاوضات. إلا أن روسيا رفضت ذلك في البداية، ثم ما لبثت أن وافقت بعدما رأت إجماعاً دولياً حول تلك المسألة، وبعدما أدركت أن الأوضاع المالية والعسكرية السيئة للبلاد لا تسمح بخوض حرب جديدة[١١٩].

وقبل عقد مؤتمر برلين الذي دعا إليه بسمارك، حاولت روسيا أن تمنع أي تقارب بين النمسا/المجر وبريطانيا، كي تأتي الدولتان إلى المؤتمر دون اتفاق مسبق بينهما حول حل المسألة. لذلك دخلت روسيا في مفاوضات مع النمسا/المجر دون التوصل لأي اتفاق بسبب تضارب مصالحهما في البلقان[١٢٠]. وفي الوقت ذاته كانت روسيا تجري مباحثات مع الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها في لندن. وفي ٢٠ أيار توصلت الدولتان إلى اتفاق تعهدت روسيا بموجبه لبريطانيا الا تمتد بلغاريا جنوبي جبال البلقان. ومقابل ذلك وافقت بريطانيا على استيلاء روسيا على باطوم وقارس وجنوب بسارابيا[١٢١]. ولما كانت بريطانيا تدرك أن توسع روسيا في آسيا اصغرى سيؤثر على مصالحها في الهند، قررت الحصول على قاعدة في أراضي الدولة العثمانية تكون مفتاحاً لغرب آسيا. فوقع اختيارها على جزيرة قبرص فاحتلتها بموافقة السلطان، بعدما تعهدت لقاء ذلك بالدفاع عن ممتلكاته في آسيا ضد روسيا[١٢٢].

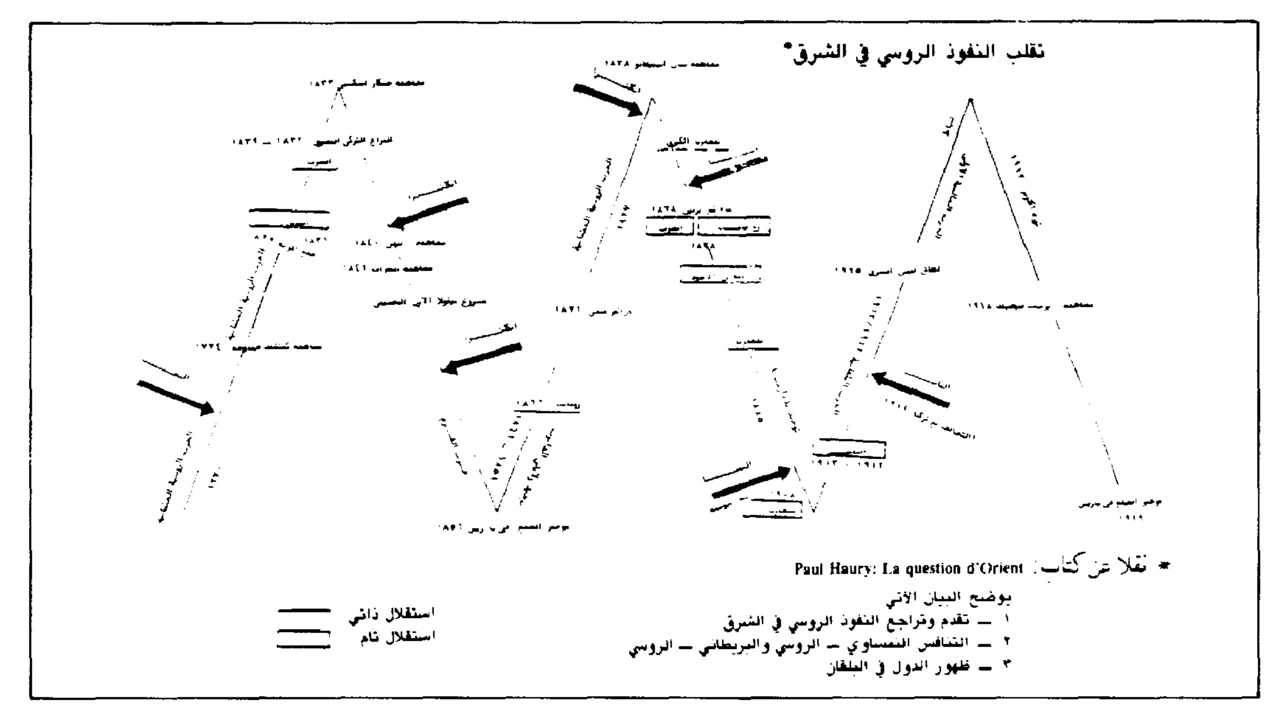
ورغم اتفاقها مع روسيا، فإن بريطانيا لم تشأ الذهاب إلى مؤتمر برلين وحيدة. ولذا عقدت مع النمسا/المجر اتفاقاً (٦ حزيران) يقضي بمنع قيام دولة بلغارية كبيرة تمتد عبر جبال البلقان وعلى إعادة المناطق البلغارية المنزوعة من الدولة العثمانية إلى سيادة السلطان. وأخيراً تعهدت بريطانيا بدعم مطالب النمسا/المجر بالبوسنة في مؤتمر برلين[١٢٣].

— ٦ —

مؤتمر برلين
(١٣ حزيران ــ ١٣ تموز ١٨٧٨)

افتتح مؤتمر برلين في ١٣ حزيران بعد دعوة وجهها بسمارك إلى الدول الكبرى. وعدا اليونان، فقد استثنيت دول البلقان من الدعوة بسبب إصرار روسيا على ذلك. ورغم أن المسألة البلغارية كانت من أكثر المسائل أهمية على طاولة المفاوضات، فلم يحضر البلغار المؤتمر، إذ أصرت روسيا على التحدث باسمهم. وبنتيجة المؤتمر (معاهدة برلين) منحت الصرب، رومانيا، والجبل الأسود استقلالاً تاماً، وبلغاريا استقلالاً ذاتياً مع دفع الجزية للسلطان. كما أعيدت مقدونيا إلى الدولة العثمانية. أما روميليا الشرقية، وهي بلغاريا الجنوبية، فجعلت ولاية مستقلة ذاتياً تحت سيادة السلطان. ومقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا، حصلت رومانيا على تعويض بضم إقليم دبروجة. ولعل أهم المقررات التي اتخذها المؤتمر فيما يتعلق بمصير مناطق أوروبا العثمانية كانت منح النمسا/المجر حق احتلال البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار. وفي آسيا الصغرى تقرر ضم روسيا منطقتي باطوم وقارس وأردهان وإعادة بايزيد التي احتلتها روسيا خلال الحرب إلى الدولة العثمانية[١٢٤].

وكان من نتائج المؤتمر أن الجامعة السلافية، التي عملت روسيا على تنميتها بعد ١٨٥٦



ووصلت إلى ذروتها في معاهدة سان استيفانو، قد أجهضت خلال مؤتمر برلين من قبل الدول الكبرى، بريطانيا، النمسا/المجر والمانيا. فبسمارك، الذي عرض أن يكون «وسيطاً أميناً» (Ehrlicher Makler) بين الفرقاء، لم يدخر جهداً في مساعدة النمسا/المجر وبريطانيا على رسم خريطة البلقان، في حين استعادت الدولة العثمانية الكثير من ممتلكاتها التي خسرتها خلال الحرب. ولهذه الأسباب خسرت روسيا كثيراً من نفوذها في البلقان، بينما تحطمت عصبة الأباطرة الثلاث في السنوات التالية وارتمت روسيا في احضان فرنسا. ●

الهـــوامش

(١) انظر: Hajo Holborn: Deutschland und die Tuerkei 1878-1890, Berlin 1926, P. 6

وعلى إثر تدخل القنصل الألماني بالقدس في نزاع روسيا مع الكليروس اليوناني أوعز بسمارك (١٨٧٢) إلى جميع القناصل الألمان في الشرق بالامتناع عن التدخل في الشؤون السياسية للمنطقة، انظر:

Derek Hopwood: The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914: Church and Politics in the Near East, Oxford 1969, P. 184.

(٢) انظر: B.H. Sumner: Russia and the Balkans 1870-1880, Oxford 1937, PP. 2-15; Barbara Jelavich: A Century of Russian Foreign Policy 1814-1914, Philadelphia & N.Y. 1964, PP. 169-172.

وأ.ج. جرانيت/هارولد تمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠، ترجمة محمد علي أبو درة/ لويس اسكندر، ط. ٦، ج ٢، القاهرة بت، ص ٥ ــ ٧؛ وانظر أيضاً هامش ١٠٧ من الحلقة الثالثة لهذه الدراسة.

(٣) انظر: Serge Goriainow: Le Bosphore et les Dardanelles. Études historique sur la question des détroits, Paris 1910, P. 156ff.

ويخصص المؤلف الفصل الثاني عشر لدبلوماسية مؤتمر لندن.

(٤) نقلاً عن: Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks. London 1878, 2.ed. Beirut 1961, 546f.; Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'à la paix de Sèvres (1920), Paris 1921, P. 204; Goriainow, op.cit., P. 156.

بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر) ١٨١٥ ــ ١٩١٤، تعريب جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٤١٧ و ٤١٨.

(٥) انظر: Goriainow, op.cit., P. 162, Felix Bamberg: Geschichte der orientalischen Angelgenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892, P. 429; C. Phillipson, N. Buxton: The Question of the Bosphorus and Dardanelles, London 1917, P. 107.

(٦) راجع: Barbara Jelavich: The Ottoman Empire, The Great Powers and the Straits Question 1870-1887, Bloomington and London 1973, 48; M.S. Anderson: The Eastern Question 1774-1923, N.Y. 1966, PP. 172-173; Creasy, op.cit., P. 547.

(٧) Jelavich, The Ottoman Empire, P. 55.

(٨) تفاصيل أخرى حول الشكوك البريطانية للاتفاق السري بين الدولة العثمانية وروسيا خلال المؤتمر توردها المؤرخة استنادا للأرشيف البريطاني:

Ibid, P. 80-81.

(٩) نقلاً عن: Goriainow, op.cit., PP. 270ff.

(١٠) تفاصيل ذلك لدى: Paul Haury: Exposé simple et clair de la question d'orient, 1770-1915, 2ed. Paris 1923, P. 29; James T. Shotwell, Francis Déak: Turkey at the Stratis, N.Y. 1940, P. 54.

(١١) انظر: Shotwell/ Déak, op.cit., P. 53f.; Haury, op.cit., P. 29; Jelavich, Ottoman Empire, P. 65f.

(١٢) راجع: Roderic H. Davison: Reform in the Ottoman Empire 1856-1876, N.Y. 1973, PP. 81-134, 234-269; L.S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y./London 1958, pp. 385-387; Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der'orientalischen Frage' bis auf die Gegenwart, Wain 1908, P. 356.

(١٣) راجع: Davison, op.cit., P. 136-171; Stavrianos, op.cit., 387.

(١٤) Stavrianos, op.cit., p. 399.

بالاضافة إلى العامل الديني يقر ستفريانوس بعوامل أخرى، كالجامعة السلافية والأوضاع الاقتصادية.

(١٥) انظر: Ibid, p. 383f; Davison, op.cit., 116.

(١٦) Davison, P. 115ff.;Sax, op.cit., P. 356.

(١٧) Davison, P. 114f.; Stavrianos, p. 384f.

(١٨) راجع: Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 26f.

(١٩) انظر: Anderson, op.cit., p. 169; Stavrianos, pp. 397f.

(٢٠) انظر: Weltgeschichte in Zehnbaenden, Redaktion: J.J. Sutis, vol. VII, Berlin 1966, P. 181; Mihailo D. Stojanović: The Great Powers and the Balkans 1875-1878, Cambridge 1939, reprinted 1968, p. 9.

ويمكن الاطلاع حول هذه النقطة على كتاب المؤرخ البريطاني هربرت فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠)، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط ٦، القاهرة بت، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٢١) انظر: Sumner, op.cit., p. 138f.; Stavrianos, p. 399.

وكتاب فيشر، ص ٣٦٥.

(٢٢) انظر: Driault, op.cit., p. 207; Stojanovic, op.cit., p. 8.

(٢٣) Sumner, op.cit., p. 111f.; Stavrianos, p. 398; Driault, p. 207f.

(٢٤) انظر: Sir Charles Eliot: Turkey in Europe, reprinted London 1965 p. 315; Jelavich A Century of Russian Foreign Policy, op.cit., p. 178;

وجرانت/ تمبرلي، ص ١٢ ــ ١٣.

(٢٥) انظر: Stavrianos, 398; G.D. Clayton: Britain and the Eastern Question Missolonghi to Gallipoli, London P. 127.

(٢٦) Bamberg, op.cit., p. 429-443; Jelavich, Century of Russian Foreign Policy, p. 175.

(٢٧) Anderson, op.cit., p. 165f.; Stojanovié, op.cit., pp. 5-7.

(٢٨) ويظهر التمجيد العرقي بصورة واضحة خلال الحروب البلقانية (١٩١٣) عندما اندلعت الحرب بين الدول البلقانية بعضها البعض.

Baumgart, op.cit., p. 28.

(٢٩) انظر: Stavrianos, p. 395f.

(٣٠) راجع كتاب فيشر، ص ٣٦٩.

(٣١) راجع: Gebhardt: Handbuch der deutschen Geschichte. 9. neu bearbeitete Aufl. Hrsg. Herbert Grundmann, Bd. III, von der franzoesischen Revolution bis zum ersten Weltkrieg, Stuttgart 1973, pp. 277-279; Stojanović, 10f.; Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, p. 176.

(٣٢) راجع:

Herbert Feis: Europe the World's Banker 1870-1914, N.J. 1974 313f.; Sumner, p. 170; Anderson 185.

(٣٣) راجع: Weltgeschichte in Zehnbaenden, vol. VII, pp. 179-180; Bamberg, p. 317; R. Grant Barnwell: The Russo-Turkish War, California 1877, p. 384.

(٣٤) انظر: Weltgeschichte, op.cit., vol VII, p. 179f.; Sax 399f.; Stavrianos 396-397. وكتاب رنوفان، ص ٤٩٤.

(٣٥) انظر: Stavrianos, 399.

(٣٦) Stavrianos, 381-382, 399.

كما يثبت المؤرخ ذلك من خلال التقارير الروسية والنمساوية.

(٣٧) انظر: Stejanović, op.cit., p. 22f. 42f.

(٣٨) Anderson, 181f.; Sumner, pp. 145-151;

وراجع بيير رنوفان، ص ٤٩٥.

(٣٩) Stavrianos, 398; Anderson 181; Sumner, 145.

(٤٠) Stojanocić, p. 40.

(٤١) Gebhardt, op.cit., p. 281f.

(٤٢) Barnwell, op.cit., pp. 387-381; Anderson 182; Sumner 148f., 150.

(٤٣) راجع: Barnewell 386f.; Sax, p. 401f.; Bamberg p. 450.

(٤٤) انظر: Driault, p. 210; Stojanović, p. 42f.; Sax p. 402f.

(٤٥) انظر: Georg Webers: Lehr-und Handbuch der Weltgeschichte. neu bearbeitet von Alfred Baldamus, IV.Bd. Neuste Zeit, Leipzig 1911, p. 667; Barnwell pp. 385-389; Driault 210.

(٤٦) راجع: Creasy, p. 548f.; Anderson 182f.; Sax, pp. 409-417.

(٤٨) Driault, p. 211.

(٤٩) راجع: Paul Dehn: Deutschland und Orient in ihren wirtschaftspolitischen Beziehungen, 1. Teil Nach dem Orient, Muenchen/Leipzig 1884, p.135f.; A.D. Farnie: East and West of Suez. The Suez Canal in History 1856-1956, Oxford 1969, p. 751.

(٥٠) William L. Langer: European Alliances and Alignments 1871-1890, 2.ed., N.Y., 1966, p. 94f.;

وبيير رنوفان، ص ٤٩٦.

(٥١) بيير رنوفان، ص ٤٩٦، جرانت/ تمبرلي، ص ١٤ ــ ١٥.

(٥٢) انظر: Sumner, p. 165; Anderson, p. 183.

(٥٣) راجع: Sumner, p. 164; Stavrianos, op.cit., p. 401.

(٥٤) انظر: Dwight E. Lee: Great Britain and the Cyprus Convention Policy of 1878, London 1934, p. 24f.; Stojanović, op.cit., p. 66f.

(٥٥) انظر: Jelavich, Century of Russian Foreign Policy, p. 177.

(٥٦) راجع: Stojanović, pp. 70-72.

(٥٧) انظر: Ibid, p. 72.

(٥٨) Bamberg, op.cit., p. 470.

(٥٩) Stavrianos, p. 402.

(٦٠) Sumner, p. 178f.; Barnwell, p. 399.

(٦١) انظر: Stojanović, p. 78.

(٦٢) انظر: Handbuch der Europaeischen Geschichte, Hrsg. Theodor Schieder, vol. V, p. 1019; Anderson, p. 186; Creasy, p. 549.

(٦٣) Bamberg, p. 469; Anderson 187

(٦٤) Driault, p. 218; Anderson 185f.

(٦٥) انظر: Sax, op.cit., p. 420.

(٦٦) Barnwell, p. 419f.

(٦٧) راجع: Sax, p. 420; Bamberg, p. 476.

(٦٨) انظر: Sumner, p. 220.

(٦٩) نقلاً عن: Ibid, p. 224.

(٧٠) نقلاً عن: Anderson, P. 187.

وقارن: Clayton, p. 136.

(٧١) Sumner, p. 225f.

(٧٢) Sumner, p. 232f.

(٧٣) انظر: Anderson, p. 157; Stojanović, p. 28.

(٧٤) نقلاً عن: Langer, op.cit., p. 104; Barnwell, p. 424.

(٧٥) Wevers, op.cit., p. 669.

(٧٦) انظر: Lee, op.cit., p. 41; Langer, p. 105; Clayton, p. 137.

(٧٧) راجع: Bamberg, p. 438f.

(٧٨) Langer, p. 106; Stojanović, p. 131.

(٧٩) انظر: محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٤١.

(٨٠) انظر: Davison, op.cit., p. 386f. ولمزيد من التفاصيل، راجع:
Robert Devereux: The First Ottoman Constitutional Period, A Study of the Midhat Constitution and Parliament, Baltimore 1963.

(٨١) Sumner, p. 246f.; Langer, p. 107f.

(٨٢) Barnwell, p. 96f.

(٨٣) Devereux, p. 96f.

(٨٤) Stavrianos, p. 405f.

(٨٥) نقلاً عن الدسوقي: الدولة العثمانية، ص ٢٤٦.

(٨٦) Stavrianos, p. 406.

(٨٧) Sumner, p. 256.

(٨٨) راجع: Bamberg, p. 479f.; 488.

(٨٩) Sumner, p. 259f.

(٩٠) Anderson, 139.

(٩١) Driault, p. 219.

(٩٢) Ibid, p. 219; Stojanović pp. 142-144.

(٩٣) Sumner, p. 267.

(٩٤) انظر: Anderson, 193f.

(٩٥) Driault, p. 219; Sumner, p. 299; Weltgeschichte in Zehnbaenden, Vol. VII, p. 182.

(٩٦) نقلاً عن: Clayton, op.cit., p. 142.

(٩٧) نقلاً عن: Webers, op.cit., p. 671.

(٩٨) Bamberg, p. 489f.

(٩٩) انظر: Anderson, 196f.

(١٠٠) Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, p. 179; Gebhardt, op.cit., p. 282.

(١٠١) انظر مروان بحيري: بسمارك والمسألةالشرقية. ترجمة وليد حمارنة، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٢٦ (١٩٨٠)، ص ٢٨.

(١٠٢) راجع: Goriainow, op.cit., p. 314f.; Gebhardt, op.cit., p. 283f.

(١٠٣) نقلاً عن: Clayton, p. 139; Lee, p. 143; Farnie, p. 253.

(١٠٤) نقلاً عن: L.H. Hoskins: Bristish Routes to India, N.Y./ London/ Toronto 1928, p. 437.

(١٠٥) Ibid, p. 260; Anderson 195.
والهامش: Driault, p. 219f; Sax, p. 329; Shotwell/ Déak, op.cit., 56f.

(١٠٦) Anderson 106.

(١٠٧) Ibid, p. 196f.

(١٠٨) Jelavich, The Geat Powers, op.cit., p. 95.

(١٠٩) نقلاً عن: Ibid, p. 98; Sum ner, p. 625.

(١١٠) Clayton, p. 19.

(١١١) Langer, op.cit., p. 135.

(١١٢) Ibid, pp. 135-137.

(١١٣) Jelavich, the Great Powers, p. 96f.

(١١٤) انظر: Sax, op.cit., p. 435f.; Stavrianos, p. 408.

(١١٥) انظر: Weltgeschichte in Zehnbaenden, vol. VII, p. 183f.
وقارن بيير رنوفان، ٤١٩ ـــ ٥٠٠.

(١١٦) clayton 143.

(١١٧) Jelavich, Great Powers, p. 108; Webers, p. 674.

(١١٨) Weltgeschichte, op.cit., Vol. VII, p. 184.

(١١٩) Ibid, P. 184.

(١٢٠) Langer, op.cit., p. 142.

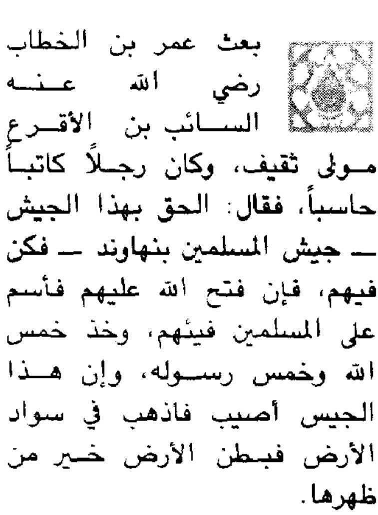
(١٢١) Anderson, p. 207.

(١٢٢) راجع دراسة Lee حول الظروف التي أحاطت بعقد المعاهدة بين بريطانيا والدولة العثمانية. كما قارن Shotwell/Deak, p. 61.

(١٢٣) انظر: W.N. Medlicott: The Congress of Berlin and After 1878-1880, London 1938, p. 23-29; Langer 207.

(١٢٤) راجع: Ibid, p. 45-125; Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, op.cit., p. 184.

في فتح نهاوند *



بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه السائب بن الأقرع مولى ثقيف، وكان رجلاً كاتباً حاسباً، فقال: الحق بهذا الجيش ــ جيش المسلمين بنهاوند ــ فكن فيهم، فإن فتح الله عليهم فأسم على المسلمين فيئهم، وخذ خمس الله وخمس رسوله، وإن هذا الجيس أصيب فاذهب في سواد الأرض فبطن الأرض خير من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إني لأقسم بين الناس إذ جاءني علج من أهلها، فقال: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي على أن أدلك على كنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يشركك فيها أحد؟ قلت: نعم! قال: فابعث معي من أدله عليها، فبعث معه، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت.

فلما فرغت من قسمي بينالناس احتملتهما معي، ثم قدمت على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستشهد النعمان[1] بن



مقرن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم بكى فنشج[2].

فلما رأيت ذلك قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه!

ثم قام ليدخل، فقلت: إن مالاً عظيماً قد جئت به، ثم أخبرته خبر السفطين، فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك، فجدخلتهما بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة.

وبات تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين: فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن! قلت: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟ قال: لا أدري والله.

فركبت معه حتى قدمت عليه، فلما رآني قال: مالي ولابن امّ السائب؟ بل ما لابن أم السائب ومالي؟ قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك! والله ما هو إلا نمت في الليلة الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا أبالك، والحق بهما فبعهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم!

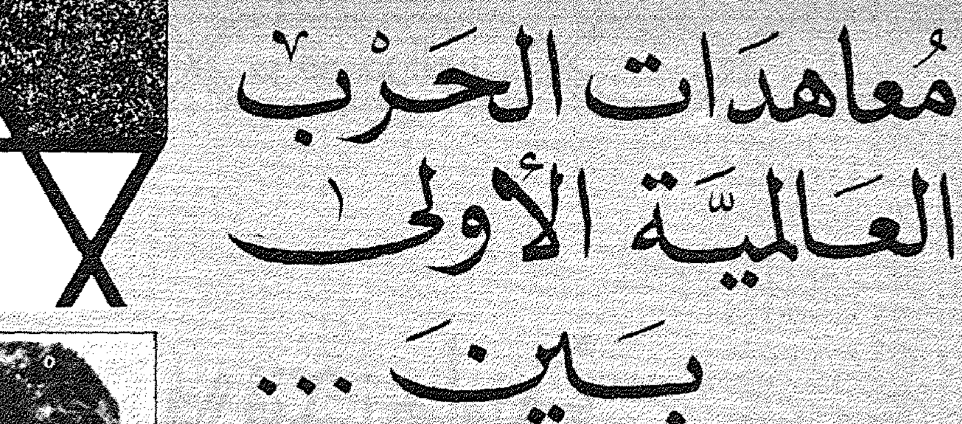
فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، فابتعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف.

الهوامش

(*) الطبري: ٤ ــ ٢٣٢.

(١) صحابي فاتح من الأمراء القادة الشجعان، فتح القادسية، وولاه عمر إمرة الجيش فغزا أصبهان ففتحها، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١هـ.

(٢) نشج الباكي: غص بالبكاء فيحلقه من غير انتحاب.

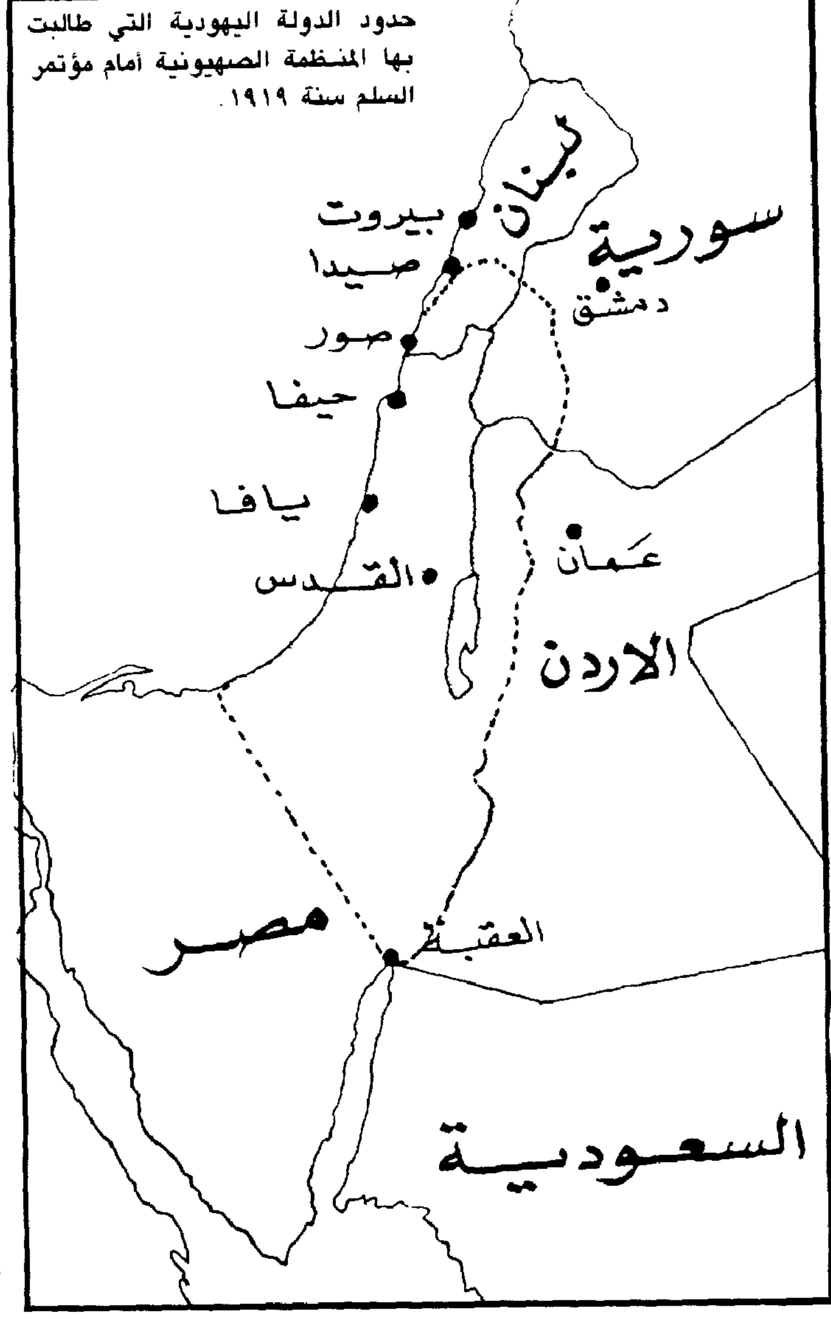


معاهدات الحرب العالمية الأولى بين...



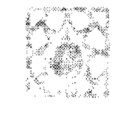
تيودور هرتزل.





«سندان» الاستعمار و«مطرقة» الصهيونية

د. صالح زهر الدين



أثارت المنطقة العربية منذ وقت طويل شهية الدول الاستعمارية الطامعة ببسط السيطرة والنفوذ والتوسع، كما أسالت ثرواتها وخيراتها لعاب المتنافسين عليها باعتبارها عصب الحياة وشريان الوجود.

وليس من المستغرب أن تحظى فلسطين بالأهمية الكبرى في مخطط هذه الدول انطلاقاً من المكانة الدينية التي تحتلها بين سائر دول المنطقة، بالاضافة إلى موقعها الاستراتيجي الحساس بين القارات الثلاث التي يطلق عليها اسم «العالم القديم»: آسيا وأوروبا وأفريقيا. والحروب الصليبية المدمرة التي اتخذت شعارها «تحرير الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين»، حسب إعلان البابا أوربانوس الثاني، كانت تخفي وراءها أبعاداً تتجاوز العامل الديني الذي أثبت ضآلة أهميته بالمقارنة مع العوامل الأخرى. وانطلاقاً من أن الحرب هي جزء من كل، وهذا الكل يسمى بالسياسة، وهي إحدى أشكال النضال السياسي بين الطبقات والأمم والدول، وإنها شكل يتميز باستعمال العنف... فقد كانت الحرب العالمية الأولى نتيجة للسياسة الدولية ذاتها ولم تخرج عن إطارها؛ في الوقت الذي أثبت فيه القادة العسكريون الذين اشتركوا في هذه الحرب، أنهم كانوا أيضاً قادة سياسيين، ولم يخوضوا معاركهم العسكرية إلا لقاء هدف سياسي وبناء على قرار سياسي، ولقد ولّى الزمن الذي يتصرف فيه القادة العسكريون في ميدان المعركة فقط. هذا مع العلم أن الحمى الاستعمارية الأوروبية هذه كانت متوافقة ومترابطة مع الحمى الصهيونية في كثير من التطلعات والأهداف والمصالح، والتي مثّلت طليعتها تلك الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس: بريطانيا.

وهكذا مثّلت المنطقة العربية هدفاً مركزياً على الجدول الصهيوني والاستعماري، وفقاً لخطة مبرمجة من العمل في اتجاه التجزئة وتجيير كل خيراتها وثرواتها لمصلحة هذين الاستعمارين دون إفساح المجال أمام شعبها للتقدم والتطور والاستقلال.

من هذا المنطلق كان لا بد من اتخاذ الخطوات الضرورية التي تكفل ضمان الوصول إلى الأهداف المرجوّة؛ وفق المصلحة الصهيونية البحتة. وعلى هذا الأساس كانت «اتفاقية سايكس ــ بيكو» و«وعد بلفور» و«مؤتمر الصلح» المتوّج «بمعاهدة فرساي» الصهيونية.

كيف جرى ذلك؟ ومن هم أبطال هذه الفضائح

في الواقع، إن جهود القادة الصهيونيين لم تهدأ منذ انعقاد أول مؤتمر لهم في بال عام ١٨٩٧ برئاسة تيودور هرتزل؛ وبروز المنظمة الصهيونية السياسية إلى الوجود. وكانت بريطانيا بمثابة «كعبتهم» العالمية الأولى، التي استطاعوا عبرها من الحصول على «البراءة الدولية» لتأسيس «وطنهم القومي اليهودي» في فلسطين.

من خلال بعض الشخصيات البريطانية «المتصهينة» التي شكلت «جسر العبور» من حيّز المشروع إلى الواقع الحقيقة. ويأتي في مقدمة هذه الشخصيات: هربرت صموئيل، وآرثر جيمس بلفور، ولويد جورج، وونستون تشرشل.

ففي ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥، قدم الوزير البريطاني الصهيوني هربرت صموئيل — الذي أصبح أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين عام ١٩٢٠ — مذكرة إلى حكومته وإلى عدد من النواب في البرلمان، اقترح فيها فيما اقترح، تأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا، شارحاً الفوائد الاستعمارية المهمة التي ستجنيها بريطانيا من هذه الدولة. وقد أوضحت المذكرة أن من شأن هذا المشروع أن يبعد فلسطين عن السيطرة الفرنسية لأن «... تمركز قوة أوروبية كبرى بمثل هذا القرب من قناة السويس، يشكل تهديداً خطراً ومستمراً للخطوط الأساسية للامبراطورية البريطانية». كذلك يجب أن تبعد فلسطين عن التدويل، لأن «التدويل في هذه الحالة قد يكون خطوة تمهيدية لحمية ألمانية». وخلصت المذكرة إلى تأكيد أن الحل الوحيد المنسجم مع المصالح البريطانية، هو في إنشاء دولة يهودية في فلسطين: «إن إنشاءها سيكون حماية لمصر... ومن المأمول في ظل الحكم البريطاني أن تقدم التسهيلات إلى المنظمات اليهودية لكي تقوم بشراء الأراضي، وتأسيس المستعمرات، وإقامة المؤسسات الثقافية والدينية... وأن تعطى الهجرة اليهودية الأفضلية بحيث يمكن للسكان اليهود، بعد أن يصبحوا الأكثرية ويستقروا في الأرض، أن يعطوْا درجة من الحكم الذاتي...»[١].

وفي نفس التاريخ، دوّن رئيس الوزراء الانكليزي المستر اسكويث الفقرات التالية في سجله اليومي: «تلقيت للتوّ من هربرت صموئيل، مذكرة بعنوان (مستقبل فلسطين). وهو يظن أننا نستطيع إسكان ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين في ذلك البلد، وقد بدت لي فكرته هذه كنسخة جديدة من أقاصيص الحروب الصليبية، وأعترف بنفوري من هذه المقترحات التي تضم مسؤوليات إضافية إلى مسؤولياتنا...»[٢].

خفايا وأسرار
اتفاقية سايكس — بيكو

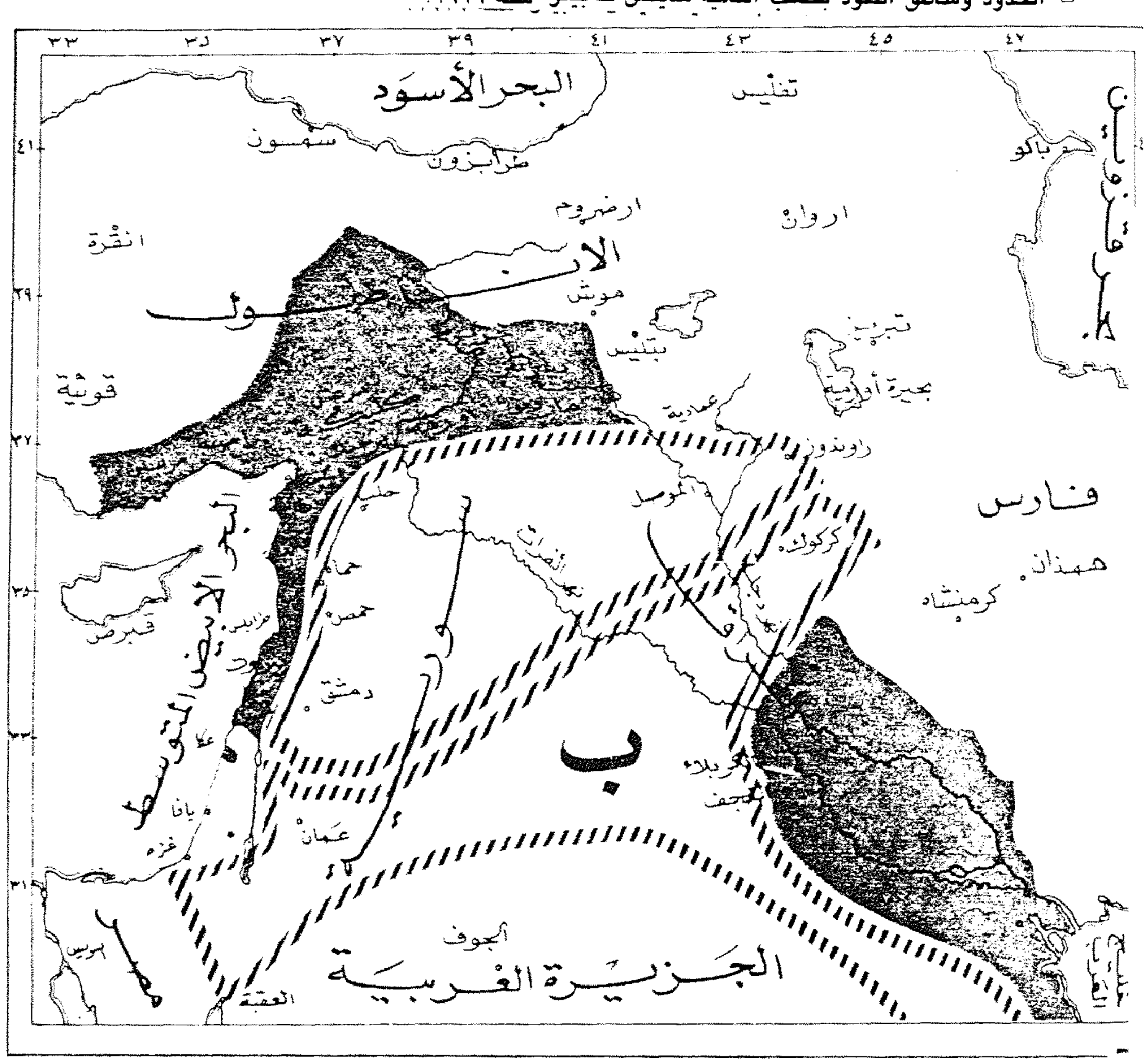
في الوقت الذي تزايد فيه النشاط الصهيوني في فلسطين بعد عملية عزل السلطان العثماني عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٨، كانت الدوائر الاستعمارية الأوروبية ترسم الخطط السرّية فيما بينها، لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية. وهكذا توصلت بريطانيا وفرنسا في ١٦ أيار ١٩١٦، إلى عقد معاهدة سرية لاقتسام المشرق العربي فيما بينهما إبّان الحرب العالمية الأولى بموافقة روسيا القيصرية، عرفت باسم معاهدة سايكس — بيكو، بالرغم من كل الوعود التي كانت بريطانيا قد قطعتها للشريف حسيْن والعرب، تضمن لهم فيها منح الحرية والاستقلال.

إلا أن الواقع يتلخص بشكل واضح بالحقيقة التالية: إن القليلين جداً في الوطن العربي هم الذين يدركون صهيونية مارك سايكس وجورج بيكو، كما يعترف كريستوفر (ابن مارك سايكس) بصراحة في كتابه الذي صدر عام ١٩٥٣، ويتناول فيه ريتشارد سبثورب، أحد رجال الكنيسة في القرن الماضي، كما تتناول دراسته الأخرى حياة والده مارك (وعنوان كتابه هذا «دراسة مأثرتين»)، حيث يقول عن والده في جهوده نحو الصهيونية: «كان قد اعتنق الصهيونية سنة ١٩١٥ [أي قبل توقيع الاتفاقية بسنة واحدة] اعتناقاً لم يدر به العرب، وكانت مساعيه من أقوى العوامل في حصول اليهود على وعد بلفور. وترك مارك سايكس وثائقاً وأوراقاً مختلفة مما يعد كله مصدراً مهماً في أخبار النشاط الصهيوني في لندن بعد سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب»[٣]. وحسب قول مارك سايكس نفسه فإن الدكتور موسى غاستر، وهو صهيوني بريطاني، هو الذي أدخله في الصهيونية بعيد تعيينه وزيراً مساعداً لوزارة الحرب في خريف ١٩١٥[٤]. أما فيما يتعلق بجورج بيكو، ممثل فرنسا، فإن بعض المراجع يشير إلى سوكولوف بشأن إدخاله وتحوله إلى القضية الصهيونية، وقد نجح كذلك مع لويد جورج، رئيس وزراء

بريطانيا على حد قول آلن تايلر[٥]، في حين أن «لويد جورج لم يدخله أحد وإنما أعطى وجارى»[٦]. ولا شك في أن مارك سايكس يعتبر من الأوائل الذين خدموا الصهيونية خدمات ثمينة، دفعت بوايزمن للاعتراف بفضله على الحركة قائلاً: «لا أستطيع أن أفي خدمات سايكس حقها من القول، فهو الذي أرشدنا في عملنا، إلى مداخل ومخارج أبعد مدى في صبغتها الرسمية. ولولا المشورة التي كان يقدمها لنا رجال من أمثال سايكس واللورد روبرت سيسل، في وقت لم تكن لنا فيه خبرة في المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة، لارتكبنا أخطاء كثيرة ولا شك»[٧].

وقد برهنت معاهدة سايكس ــ بيكو عن النوايا الاستعمارية وخفاياها الصهيونية، وكذلك عن أسلوب الخداع لتحقيقها، حيث كانت بريطانيا تفاوض العرب واعدة إياهم بالاستقلال والتخلص من الحكم العثماني، وكانت مراسلات الحسين ــ مكماهون تدخل جوهرياً في هذا الاطار. وكان للثورة البلشفية في روسيا ــ بعبارة لينين ــ الفضل الأول في الكشف عن هذه المعاهدة وأسرارها الخطيرة.

□ الحدود ومناطق النفوذ بحسب اتفاقية سايكس ــ بيكو سنة ١٩١٦م.





□ هربرت صموئيل أول مندوب انتدبته بريطانيا لادارة فلسطين.

خفايا وأسرار «وعد بلفور»

في الحقيقة، لم يكن «وعد بلفور» الذي صدر في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧، وليد الصدفة مطلقاً، ولا قراراً عفوياً ارتجالياً، بل سبقته إجراءات على جانب كبير من السرّية والخطورة في آن معاً.

وقد كانت المؤامرة التي أدت إلى استقالة رئيس الوزراء البريطاني المعادي للصهيونية «اسكويث» من أهم ما جرى وراء الكواليس إبان الحرب العالمية الأولى في شهر كانون الأول ١٩١٦، لتحل مكانه حكومة ائتلافية يمثل أقطابها الثلاث، لويد جورج ونستون تشرشل وبلفور، أركانها الأساسية.

فعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان اسكويث رئيساً للوزراء في بريطانيا، كما كان معادياً للصهيونية؛ فقرر المموّلون الدوليون الصهاينة إزاحة حكومته واستبدالها بحكومة ائتلافية مكانها على أن يكون للويد جورج ونستون تشرشل عمل كبير فيها. حيث كان دافيد لويد جورج محامياً عن الحركة الصهيونية التي خططت لها وموّلتها عائلة روتشيلد.

أما ونستون تشرشل كان مؤازراً للصهيونية السياسية منذ دخوله إلى المعترك السياسي، وهو الذي صرّح خلال اجتماعه «ببرنارد باروخ» (أحد كبار الصهيونيين) قائلاً «أنا صهيوني وقد عملت من أجل تقدم الصهيونية»(٨).

واستغلت الحركة الصهيونية معاداة اسكويث لها ولسياستها، فكالت له شتى التهم والافتراءات لاقصائه عن أهم منصب في الامبراطورية البريطانية. وقد وصل بها الأمر إلى توريط بعض الرسميين ذوي المناصب العليا، بفضائح «النادي الزجاجي» الصهيوني في لندن الذي اتخذ مقراً للتسلية والفساد لكبار الضباط ورجال السياسة، وتمكنت فعلاً من الوصول إلى تنحية اسكويث وتسلّم «الثلاثي» مقاليد الأمور من بعده.

وانطلاقاً من الاشارة التي كتبها اسكويث في سجله اليومي حول المذكرة التي قدمها إليه هربرت صموئيل في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥، فقد برهنت هذه العبارات بما لا يقبل الشك أن المستر اسكويث لم يكن ميالاً إلى الصهيونية. ويبدو أن مصيره ومصير وزارته تقررا منذ ذلك الحين. إلا أن خطة مؤامرة إبعاده كانت ترمي أيضاً إلى هدف أكبر وأهم، حيث يتمثل بعملية تقويض أجهزة النظام القائم آنئذ بمجموعها.

فقد كان الصهيونيون يسيطرون منذ أمد بعيد على الصناعات الحربية في انكلترا. وعندما قررت المؤامرة محاربة نظام اسكويث المعادي للصهيونية وجدت بريطانيا نفسها فجأة في وسط الحرب أمام أزمة شديدة في الصناعات الكيميائية التي هي الأساس لصنع الذخائر الحربية والمتفجرات الخ... وامتدت الأزمة أيضاً إلى مصانع المدافع التي اضطرت لتقنين إنتاجها، وألقى الشعب التبعة بالطبع على عاتق الحكومة.

وكان المشرف على الانتاج الكيماوي في انكلترا «السير فريدريك ناثان». وقد عهد هذا إلى معامل «برونر ــ موند» بتلافي أزمة إنتاج المواد الكيماوية ومنحها أرصدة حكومية ضخمة، لهذا الغرض. أما مالكا هذه المعامل السيدان «برونر» و «موند» اليهوديان فقد بنيا معملاً كيماوياً ضخماً في «سيلفرتاون». وبالرغم من أنه بني بأرصدة حكومية إلا أنه حين بدأ هذا المعمل

إنتاجه أخذت أجهزة الدعاية والصحافة التي يسيطر عليها المرابون الصهيونيون تكيل آيات المديح جزافاً لبرونر وموند هذين، وتنسج هالات التمجيد المزيفة حولهما وحول الماليين اليهود ناسبة إليهم أنهم يدعمون الانتاج الحربي البريطاني في وقت تحيط فيه الأخطار ببريطانيا. وهكذا أظهر هؤلاء بمظهر المنقذين، وبقيت تبعة اللوم على عاتق الحكومة... بيد أن معمل «سيلفرتاون» لم يلبث أن انفجر فجأة، وقتل أكثر من أربعين شخصاً في هذا الانفجار المدبّر، وتهدّم ثمانمائة منزل... وكانت النتيجة أن الانتاج الحربي الكيماوي رقد من جديد، وعادت الأزمة تهدد وزارة اسكويث، وظل الأبطال المزيّفون بمنأى عن اللوم ويحيط بهم العطف والمديح... ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن «السير الفرد موند» المذكور والذي كان يشرف على المعمل الكيماوي كمبعوث من قبل الملك، «أصبح هو بعينه فيما بعد رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين»[٩].

بالاضافة لذلك، يشير المؤرخ «فيلر» في كتابه المعنون «كل هذه الأشياء» إلى القول: «لقد أصبح التأثير اليهودي في السياسة البريطانية واضحاً بعد عزل اسكويث وظهور السيد لويد جورج»[١٠]. وتميز شهر شباط ١٩١٧، بدخول الحكومة البريطانية في مباحثات رسمية مع الزعماء الصهيونيين لوضع صيغة بيان رسمي يعلن تأييد بريطانيا لأهداف الصهيونية في فلسطين. وفي الوقت نفسه، «كان نشاط صهيوني موازٍ يسير في الولايات المتحدة الأميركية بقيادة القاضي الأميركي الصهيوني «لويس برانديس»، الذي استطاع أن يجند عدداً من زعماء اليهود لمصلحة الصهيونية، وأن يكسب عطف الرئيس الأميركي «وودرو ولسون»[١١]. وهكذا عقد الاجتماع الأول للجنة السياسية للمنظمة الصهيونية بعد تسلّم لويد جورج الحكم، يوم ٧ شباط ١٩١٧ في لندن، وذلك في منزل الدكتور موسى غاستر. وقد حضر هذا الاجتماع كل من اللورد روتشيلد (رئيس الفرع الانكليزي لمجموعة روتشيلد)، وجيمس دي روتشيلد (ابن ادموند دي روتشيلد رئيس الفرع الفرنسي لمجموعة روتشيلد ومؤسس مستعمرات روتشيلد في



□ الشريف حسين بن علي شريف مكة.

فلسطين وأهمها «ريشون لوزيون»)، والسير مارك سايكس (الذي كان منزله في حي «باكنغهام غايتس» في لندن مجهزاً ليكون مركز قيادة الحركة الصهيونية في انكلترا، وقد جهز لهذا الغرض بجهاز تلغرافي وآلات لاسلكية)، والسير هربرت صموئيل (الذي أصبح أول مندوب سام بريطاني في فلسطين عام ١٩٢٠، ومنظم الهجرة الصهيونية إليها)، وهربرت بنتويتش (النائب العام في فلسطين فيما بعد)، وهاري ساشر، وجوزيف كاوين، وحاييم وايزمن، وناحوم سوكولوف (مؤلف كتاب «تاريخ الصهيونية»).

وقد نوقش في هذا الاجتماع بالتفصيل البرنامج الصهيوني الذي سيستخدم كقاعدة في المفاوضات الرسمية التي تشمل مصير فلسطين وارمينيا والعراق والحجاز. وقد أبلغت تفاصيل هذا الاجتماع بالشيفرة إلى التنظيم الصهيوني في الولايات المتحدة. وأصبح الفرع الأميركي هذا يتداخل منذ ئذ في صياغة السياسة البريطانية، وفي توجيه القضايا البريطانية الداخلية، وذلك بعد أن «أجبرت الحرب العالمية الأولى ـ حسب موسوعة المعرفة اليهودية عن الصهيونية ـ المنظمة الصهيونية على نقل مركزها من برلين إلى

نيويورك، ونقلت السلطة بأجمعها إلى لجنة الطوارىء الاحتياطية للصهيونية برئاسة القاضي الأميركي الصهيوني لويس ديمبتز برانديس»[١٢].

وفي مطلع شهر تشرين الثاني (٢ ت٢ ١٩١٧)، كانت طبخة «الكواليس» البريطانية ــ الصهيونية قد نضجت، وتوّجت بريطانيا تحالفها وعلاقتها العضوية بالحركة الصهيونية عبر إصدار ما سمي بـ «وعد بلفور»، وذلك بعد أن شعرت بتعرض مصالحها الشرق أوسطية للخطر، وبعد أن لاحت في الأفق «جهود الصهاينة الألمان للحصول على وعد الماني بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين عام ١٩١٧. حتى أن هذا العامل كان من جملة العوامل الضاغطة على الحكومة البريطانية للتعجيل في إعلان وعد بلفور»[١٣].

كما إن أميركا لعبت دورها في هذا المجال عن طريق سفيرها في استانبول، مورغنتو، عندما ألقى خطابه في مدينة «سين سيناتي» الأميركية في شهر أيار ١٩١٦، والذي جاء فيه أنه بالإمكان وضع ترتيبات شراء فلسطين من الأتراك لصالح اليهود بعد انتهاء الحرب[١٤]. ثم كان دخولها الحرب رسمياً في نيسان ١٩١٧، ضد المانيا وحليفتها تركيا. وهناك عامل مهم لعب دوره في الاسراع بإعلان وعد بلفور، كان انخراط الشبان اليهود في روسيا في صفوف الحزب البلشفي بقيادة لينين الذي وقف ضد استمرار روسيا في الحرب، حيث كان في نتيجتها توقيع معاهدة بريست ــ ليتوفسك بين المانيا والاتحاد السوفياتي بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧. وهذا ما دفع الجنرال «ماكدونف»[١٥] قائد المخابرات البريطانية إلى طلب الاسراع في إعلان فلسطين وطناً قومياً يهودياً لكي يتجه الشبان اليهود نحو العقيدة الصهيونية الرجعية الموالية للاستعمار عوضاً عن الانخراط في صفوف الأحزاب الثورية المعادية لبريطانيا. وقد أوضح «هايمان لومر» رئيس تحرير مجلة الشؤون السياسية الأميركية في كتابه عن الصهيونية «توافق ظهور الصهيونية مع موجة جديدة من العداء للسامية، مرتبطة بظهور الامبريالية الحديثة، وتطويرها للعنصرية إلى أقصى حد


□ اللورد اللنبي قائد الجيش البريطاني

باعتبارها أداة ايديولوجية للقهر. وقد استجابت جماهير الطبقة العاملة اليهودية ــ وبخاصة في روسيا ــ بالانضمام إلى الحركة الثورية، والصراع دون هوادة ضد الصهيونية»[١٦].

ويعتبر «وعد بلفور» من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ، إذ «منحت بموجبه دولة استعمارية ارضاً لا تملكها [فلسطين] إلى جماعة لا تستحقها [الصهيونيين] على حساب من يملكها ويستحقها [الشعب العربي الفلسطيني]، مما أدى إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب بكامله على نحو لا سابقة له في التاريخ»[١٧]. ولم يكن ذلك ليتحقق بهذه السرعة، لو لم يحل لويد جورج محل اسكويث كرئيس للوزراء، ولو لم يعين بلفور وزيراً للخارجية، ولتصبح المراكز الحساسة في الحكومة الانكليزية في أيدي صهيونيين متسلحين بالهوية البريطانية.

كما يعتبر هذا الوعد المشؤوم بمثابة «جواز السفر» و «تذكرة المرور» لمشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلى حيّز الواقع العملي، بإضفاء الصفة «الرسمية» الدولية عليه، وهذا

ما سعى الصهيونيون طويلاً لتحقيقه، حتى انه اقر كهدف صهيوني أعلى في مؤتمر بال ١٨٩٧ مع التأكيد على أن «هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي، يضمنه القانون العام»[١٨]. ومن المؤكد إن هذا «القانون العام» كان حكراً على الزعامة الدولية التي كانت تمثلها بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، هو أن الرئيس الأميركي ويلسون، صاحب المبادىء الأربعة عشر المتضمنة حق تقرير مصير الشعوب بنفسها، لعب دوره الخطير إلى جانب «الوطن القومي اليهودي» من خلال وعد بلفور، وهو الذي قال عن اتفاقية سايكس ــ بيكو بأنها ظاهرة من ظواهر الاستعمار وعمل مناقض لحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وعن طريق المفاوضات التي جرت بين بريطانيا وأميركا بصدد وعد بلفور، والنص الذي يجب أن يصدر به، كان للرئيس الأميركي ويلسون دوره الأول في اختيار الكلمات التي تضمّنها هذا التصريح، حيث انتقاها كلمة كلمة، فأتت بما هو معروف اليوم «بوعد بلفور» وبشكل كتاب رسمي موجّه من بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد روتشيلد الصهيوني. وقد تلقى الرئيس ويسلون من لويد جورج وحاييم وايزمن نص ما اتفق عليه من عبارات وعد بلفور، فوافق على ذلك وباركه قبل أن يصدر الوعد رسمياً في ٢ ت٢ ١٩١٧[١٩].

وبعد أن عُمل على استصدار وعد بلفور الذي ايدته كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، صدرت الأوامر إلى اللورد اللنبي بطرد الأتراك من آسيا الصغرى واحتلال الأرض المقدسة. ولم يكشف عن حقيقة النوايا في تسليم فلسطين إلى الصهاينة إلا بعد أن انتهى العرب من مساعدة الجنرال اللنبي في تحقيق مهمته. وكان الشعور العام في ذلك الوقت أن فلسطين ستصبح محمية بريطانية. وما إن تم احتلال فلسطين حتى طلب المرابون العالميون من الحكومة البريطانية والحلفاء تعيين لجنة صهيونية في فلسطين، وتعيين مندوبيهم السياسيين أعضاء لها، على أن تكون مهمة هذه البعثة، تقديم النصح للجنرال كلايتون الحاكم العسكري لفلسطين وتعمل أيضاً كوسيلة اتصال بين اليهود والقيادة العسكرية. وقد باشرت هذه اللجنة عملها بالفعل في آذار عام ١٩١٨ وكان أعضاؤها الرئيسيون هم:

١ ــ الكولونيل أورمسباي غور الذي كان مديراً لبنك «ميدلاند» وبنك «ستاندارد» في جنوب أفريقيا، وهو البنك الذي يسيطر على مناجم الذهب والماس في جنوب أفريقيا، كما أنه هو الذي يموّل سياسة التفرقة العنصرية بين سكان تلك البلاد.

٢ ــ حاييم وايزمن (وهو لا يحتاج إلى تعريف).

٣ ــ الكولونيل جيمس دي روتشيلد ابن ادموند دي روتشيلد، رئيس الفرع الفرنسي لهذه الأسرة.

٤ ــ الملازم ادوين صاموئيل الذي عين مديراً للرقابة في الحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما تأسست «إسرائيل» عام ١٩٤٨ عين مديراً للاذاعة الاسرائيلية.

٥ ــ المستر اسرائيل سيف مدير شركات ماركس وسبنسر البريطانية الضخمة.

٦ ــ ليون سيمون الذي أصبح المدير المسؤول عن مكاتب البريد العامة في بريطانيا.

٧ ــ الدكتور الدر.

٨ ــ السيد جوزيف كاوين.

ويقول السيد ستورز (Storrs) بأن اللجنة هذه أرسلت إلى فلسطين قبل أن ينعقد مؤتمر السلام في باريس، وحتى قبل نهاية الحرب، وذلك لاعداد الجو الملائم فيها لانشاء الوطن القومي لليهود وتحريك أعوانهم للمساعدة المالية[٢٠].

وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب بانتصار الحلفاء وهزيمة دول المحور، عقد مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩، والذي انتهى بمعاهدة فرساي الصهيونية.

خفايا وأسرار مؤتمر الصلح ومعاهدة فرساي

في الواقع، إن مؤتمر «الصلح والسلام» الذي عقد في باريس سنة ١٩١٩، كان ذا طبيعة صهيونية، شأنه شأن اتفاقية سايكس ــ بيكو ووعد بلفور. كما كانت «اتفاقية فرساي» التي

انتهى إليها، صهيونية التوقيع والهدف بدورها، عبر «الأربعة الكبار» الذين شكلوا أقطاب المؤتمر وهم: الرئيس ويلسون عن أميركا، ولويد جورج عن بريطانيا، وكليمنصو عن فرنسا، وأورلندو عن ايطاليا. لكن انسحاب ويلسون من المؤتمر فيما بعد، وهامشية الدور الايطالي، جعل من العالم رهينة تحكّم المنتصرين (بريطانيا وفرنسا) ومن ورائهما الصهيونية العالمية. خصوصاً وان للمستشارين والمساعدين دورهم الأساسي في اية قضية مصيرية يتوقف عليها مصير العالم، فكيف بمؤتمر كمؤتمر باريس «للسلام»؟ وقد لعب هؤلاء دورهم المهم إلى جانب الصهيونية، حتى ان اختيار فرساي ليس وليد الصدفة أبداً، حيث يوضح الدكتور ديلون (Dillon) أن «اليهود الصهاينة (ممثلي المولين الدوليين) هم الذين وجهوا مؤتمر السلام هذا التوجيه، واختاروا فرساي ليحققوا برنامجهم المخطط بدقة والذي نفذ حرفياً»[٢١].

فعندما بدأت المحادثات التمهيدية للمؤتمر كان رئيس الوفد الأميركي «بول واربورغ Warburg» الممثل الرئيسي لمجموعة المرابين العالميين في أميركا. ولم يكن رئيس الوفد الألماني سوى شقيقه «ماكس واربورغ» الذي كان يمثل الدولة العدوة التي خسرت الحرب[٢٢].

هذا بالاضافة إلى أن الرئيس ويلسون كان لديه كبير أخصائييه ومساعديه والذي كان يعتبر الابرة المغناطيسية في دماغ ويلسون، وهذا المستشار الأول هو القاضي الأميركي الصهيوني برانديس المشهور بقوله عام ١٩١٦ «إن القصد من طلب اليهود تسهيل الهجرة إلى فلسطين، هو أن يصبح اليهود أكثرية السكان فيها، وأن يرحل العرب عنها إلى الصحراء»[٢٣]. وهو الذي شغل رئاسة «لجنة الطوارىء الاحتياطية للصهيونية في نيويورك بعد أن نقلت الحركة الصهيونية مركزها إليها من برلين[٢٤]. كما كان إلى جانب ويلسون أيضاً، بالاضافة إلى برانديس، إثنان من مستشاريه الأقوياء، وكانا من الصهاينة الأقحاح، وهما مترجم لم يعرف إلا باسم «منتو» وآخر اسمه «كيش» أو «قيس». وقد ساهم هذا الأخير في صياغة معاهدات الصلح في باريس، مع أن صفته الظاهرة هي «خبير عسكري» ملحق بوفد الرئيس الأميركي، وهو من الجنسية البريطانية. ولكن الذي أتى به، ليس الرئيس ويلسون، بل القاضي الصهيوني المساعد برانديس، والصهيونية العالمية. ولما قدّم وايزمن المذكرة الصهيونية إلى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ يطلب فيها حدود فلسطين أن تكون واصلة في لبنان إلى قرب صور مع جبل الشيخ، وأن تكون واصلة في سوريا إلى قرب درعا، ومن هناك على محاذاة سكة حديد الحجاز إلى العقبة، كان «كيش» هذا من العاملين على ترويج المطالب بكل وسيلة مستطاعة[٢٥]. كما «كان هناك أيضاً المستر «هنري مورغنزاو» أحد أفراد الوفد الأميركي وكان مستشاراً كبيراً وهو نفسه والد الرجل الذي أصبح فيما بعد السكرتير المالي للرئيس روزفلت. وحضر أيضاً تلك المحادثات المستر «أوسكار ستراوس» الذي عرف بتبنّيه الشديد لمخطط المولين والذي كان له دور بارز في تكوين «عصبة الأمم» وصياغة سياستها بشكل يناسب خطة أسياده البعيدة المدى والتي تهدف إلى السيطرة العالمية»[٢٦].

هذا بالاضافة إلى الدور الهام الذي قام به ممثل أميركا أيضاً في مؤتمر الصلح وهو «لنسننغ» إلى جانب الصهيونية عبر صديقه وايزمن. حيث «بعد أن ارفضت جلسة مؤتمر الصلح وخرج الناس، سأل الممثل الأميركي لنسننغ، وايزمن: انك قد طلبت وطناً قومياً يهودياً في فلسطين، فماذا تعني بالوطن القومي؟ فأجاب وايزمن إني أعني خلق إدارة نابعة من أحوال البلاد الطبيعية — ودائماً مع المحافظة على مصالح غير اليهود — حتى، مع اطراد الهجرة، تصبح فلسطين يهودية كما هي انكلترا انكليزية. ثم سأله وايزمن: أهذا واضح؟ فقال لنسننغ: بالتأكيد»[٢٧].

أما على الصعيد الفرنسي، فقد كان المستشار الخاص للسيد كليمنصو، رئيس الوزراء في فرنسا، هو السيد «مانديل روتشيلد» العريق في صهيونيته هو وعائلته. وكذلك الحال بالنسبة لبريطانيا، حيث كان إلى جانب لويد جورج سكرتير صهيوني اسمه ساسون، حتى ان لويد جورج نفسه كان رئيس الوزارة التي أصدرت وعدها المعروف بـ «وعد بلفور» ومن هذا المنطلق،



□ بلفور وونستون تشرشل عام ١٩١٧.

تطرق الكاتب الفرنسي «جورج باتو» في كتابه عن «المشكلة اليهودية» قائلاً بأن «المسؤولية تقع على عاتق اليهود الذين أحاطوا بلويد جورج وويلسون وكليمانصو»[٢٨].

وفوق كل ذلك، لم تكن معاهدة فرساي التي تمخضت عن هذا المؤتمر من عمل هؤلاء فقط، بل يشير «لوسيان وولف» في كتابه الذي نشره عام ١٩٣٤ بعنوان «دراسات عن تاريخ اليهود» بقوله ان: «هناك مجموعة صغيرة أخرى من اليهود البارزين تظهر تواقيعهم على معاهدة السلام. فقد وقّع معاهدة فرساي عن فرنسا «لويز كلوتز» (الذي تورط فيما بعد بقضية مالية واختفى عن الأنظار)، وعن إيطاليا البارون «سومينو» ومستر «أدوين مونتاغ» عن الهند»[٢٩].

ولا بد هنا من الاشارة إلى حادثة معروفة جرت خلال المحادثات التمهيدية لمؤتمر فرساي. حيث من الظاهر ان هذه المحادثات بدأت تميل إلى سياسة لا يرضى عنها الممولون الدوليون الصهاينة، لأن برقية مكونة من ألفي كلمة أرسلها «يعقوب شيف» من نيويورك إلى الرئيس ويلسون، الذي كان يحضر المؤتمر في باريس، وقد تضمنت هذه البرقية تعليمات للرئيس بشأن ما سيفعله بكل من قضية فلسطين ومصير الانتداب فيها، وبشأن التعويضات الألمانية الخ... وأرخت البرقية بتاريخ ١٨ أيار ١٩١٩، وقد أرسلها «شيف» باسم اتحاد الأمم المتحررة الذي كان يسيطر عليه ويموله خمسة من أصحاب البنوك الأميركية الصهيونية.

بعد استلام البرقية تغير موقف الرئيس ويلسون فجأة، وأخذت المفاوضات تجري مجرى آخر. وبهذا الصدد يقول الكونت «دي سانت أولاير» (الذي كان سفير فرنسا في انكلترا آنئذ، ومؤلف كتاب «جنيف نحو السلام») «إن النصوص التي تضمنتها معاهدة فرساي فيما يتعلق بالقضايا الخمس الرئيسية هي من وضع يعقوب شيف وأبناء جلدته»[٣٠].

وهكذا كانت فلسطين وشعبها العربي ضحية من ضحايا «العدل الدولي» الذي كان بمثابة «شاهد الزور» على كل الاختراقات اللاإنسانية بحق العرب.

خلاصة عامة

لقد أمر مؤتمر السلم الباريسي ميثاق «عصبة الأمم» في ٢٨ نيسان ١٩١٩، وضمّن هذا الميثاق معاهدة فرساي في ٢٨حزيران ١٩١٩. واختصت المادة ٢٢ من الميثاق بـ «نظام الانتداب بإشراف عصبة الأمم» وهو «تعبير مهذب» للاستعمار؛ وهو شكل استعماري جديد اقترح كمخرج للتناقض بين مبادىء حق تقرير المصير التي أعلنتها دول الحلفاء في أثناء الحرب، وبين سعيها لضمان مصالحها الاستعمارية في مؤتمر السلم بعد الحرب. وكان لهذه المادة من ميثاق العصبة علاقة خاصة بالقضية العربية وقضية فلسطين، إذ حدّد بموجبها المستقبل السياسي لأقطار المشرق العربي بعد الحرب الأولى، وذلك في الفقرة الرابعة منها بالتحديد، حيث حدّدت لها انتداباً من الدرجة الأولى تقتصر على «إسداء المشورة الإدارية والمعونة»[٣١]. بيد أنها كانت في الواقع سياسة مخادعة ومراوغة احترفها الاستعماريون منذ وقت طويل، وفي هذا الصدد أجاب الصهيوني ونستون تشرشل عندما سئل عن رأيه في معاهدة فرساي قائلاً: انها ليست اتفاقاً ولا معاهدة. بل هي هدنة مدتها عشرون سنة». وبالفعل بعد عشرين سنة بالضبط اندلعت الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩.

ومن هذا المنطلق أيضاً كتب لينين قائلاً: «إن نظام فرساي بعيد جداً من أن يلغي واحدة من التناقضات الامبريالية، إنما خلق تناقضات جديدة غيرها». وكان يتوقع بأن حرباً عالمية جديدة لا يمكن تحاشيها «إذا بقي الامبرياليون والبرجوازيون في الحكم»[٣٢].

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد جاءت باتفاقية سايكس ــ بيكو، ووعد بلفور، ومعاهدة فرساي، وعصبة الأمم (الصهيونية بأجمعها)؛ كذلك فإن الحرب العالمية الثانية خلقت دولة «إسرائيل» على أرض فلسطين العربية في ظل «شهود الزور» الدوليين الممثلين بهيئة الأمم المتحدة. وما زلنا حتى اليوم نعاني مآسي هذه الاتفاقيات والمعاهدات والوعود وفي عملية مستمرة، ندفع الثمن.

الهوامش

(١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية «فلسطين: تاريخها وقضيتها» الطبعة الأولى نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٣. ص ٣٦.

(٢) وليام غاي كار «احجار على رقعة الشطرنج». دار النفائس. ترجمة سعيد جزائرلي. مراجعة وتحرير م. بدوي. بيروت ١٩٧٥. ص ١٩٣.

ــ أيضاً وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة» شرح وتعليق خيرالله الطلفاح. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ١٨١.

(٣) عجاج نويهض «بروتوكولات حكماء صهيون». منشورات فلسطين المحتلة. الطبعة الثانية. المجلد الأول. بيروت ١٩٨٠. ص ١٦٥ ــ ١٦٦.

(٤) د. الن تايلر «تاريخ الحركة الصهيونية» ترجمة بسام أبو غزالة. بيروت دار الطليعة ١٩٦٦. ص ٢٩.

(٥) المصدر نفسه. ص ٣٥.

(٦) عجاج نويهض. مصدر سبق ذكره. ص ١٥٤.

(٧) قسطنطين خمار. «الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية». منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦٦. ص ٤٥.

(٨) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» (مرجع سبق ذكره) ص ٢٢٣.

(٩) المصدر نفسه. ص ١٩٤. أيضاً:

ــ وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة» (مرجع سبق ذكره) ص ١٨٢.

(١٠) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» ص ١٩٧.

(١١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية «فلسطين: تاريخها وقضيتها» (مرجع سبق ذكره). ص ٣٦ ــ ٣٧.

(١٢) وليام غاي كار، مرجع سبق ذكره. ص ١٩٦ ــ ١٩٨. أيضاً:

ــ أسعد رزوق. «اسرائيل الكبرى». مركز الأبحاث. بيروت. الطبعة ٢. بيروت ١٩٧٣. ص ٣٤٩.

ــ وليم كار. مرجع سبق ذكره. ص ١٨٣ ــ ١٨٥.

(١٣) د. عبدالوهاب كيالي. الطبعة الثانية ١٩٧٣. ص ٩٥. أيضاً:

ــ د. حسان علي حلاّق «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ــ ١٩٠٩» بيروت. الدار الجامعية. الطبعة الثانية ١٩٨٠. ص ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(١٤) د. عبدالوهاب كيالي. مرجع سبق ذكره. ص ٩٥.

(١٥) وليام غاي كار «مرجع سبق ذكره. ص ١٩٨.

(١٦) هايمان لومر «الصهيونية ودورها في السياسة العالمية» ترجمة محمد مستجير مصطفى. القاهرة ١٩٧٤. ص ٧.

(١٧) د. عبدالوهاب كيالي. تاريخ فلسطين الحديث. ص ١٠٠.

(١٨) إسرائيل كوهين. تاريخ الصهيونية المختصر. لندن ١٩٥١. ص ١١ و ٤٧ و ٤٨ (بالانكليزية) وأيضاً:

ــ د. الن تايلر. مرجع سبق ذكره. ص ١٥.

ــ د. فايز صايغ. «الاستعمار الصهيوني في فلسطين» ترجمة د. عبدالوهاب كيالي. مركز الأبحاث (م. ت. ف) ١٩٦٥. ص ٩ ــ ١٠.

(١٩) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٢٨.

(٢٠) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

ــ وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة». ص ١٩٣.

(٢١) وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ٢١٨.

(٢٢) المرجع نفسه. ص ٢١٧ ــ ٢١٨.

(٢٣) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٤٦.

(٢٤) وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ١٩٦.

(٢٥) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٢٩ ــ ٣٠، وأيضاً:

ــ كتاب «الغزو الاقتصادي الاسرائيلي للبنان ١٩٨٢» إعداد يولا البطل، وإشراف محمود سويد. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. الطبعة الأولى. نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٤. ص ٦٣.

(٢٦) وليام غاي كار «احجار...» ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢٧) عجاج نويهض. مصدر سبق ذكره. ص ١٥٣.

(٢٨) المصدر نفسه. ص ٣٠ وأيضاً:

ــ وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢٩) المصدر نفسه. ص ٢١٩.

(٣٠) المصدر نفسه. ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.

(٣١) د. ملحم قربان «تاريخ لبنان السياسي الحديث» ج ١. المؤسسة الجامعية للدراسات. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨١. ص ١٥٨.

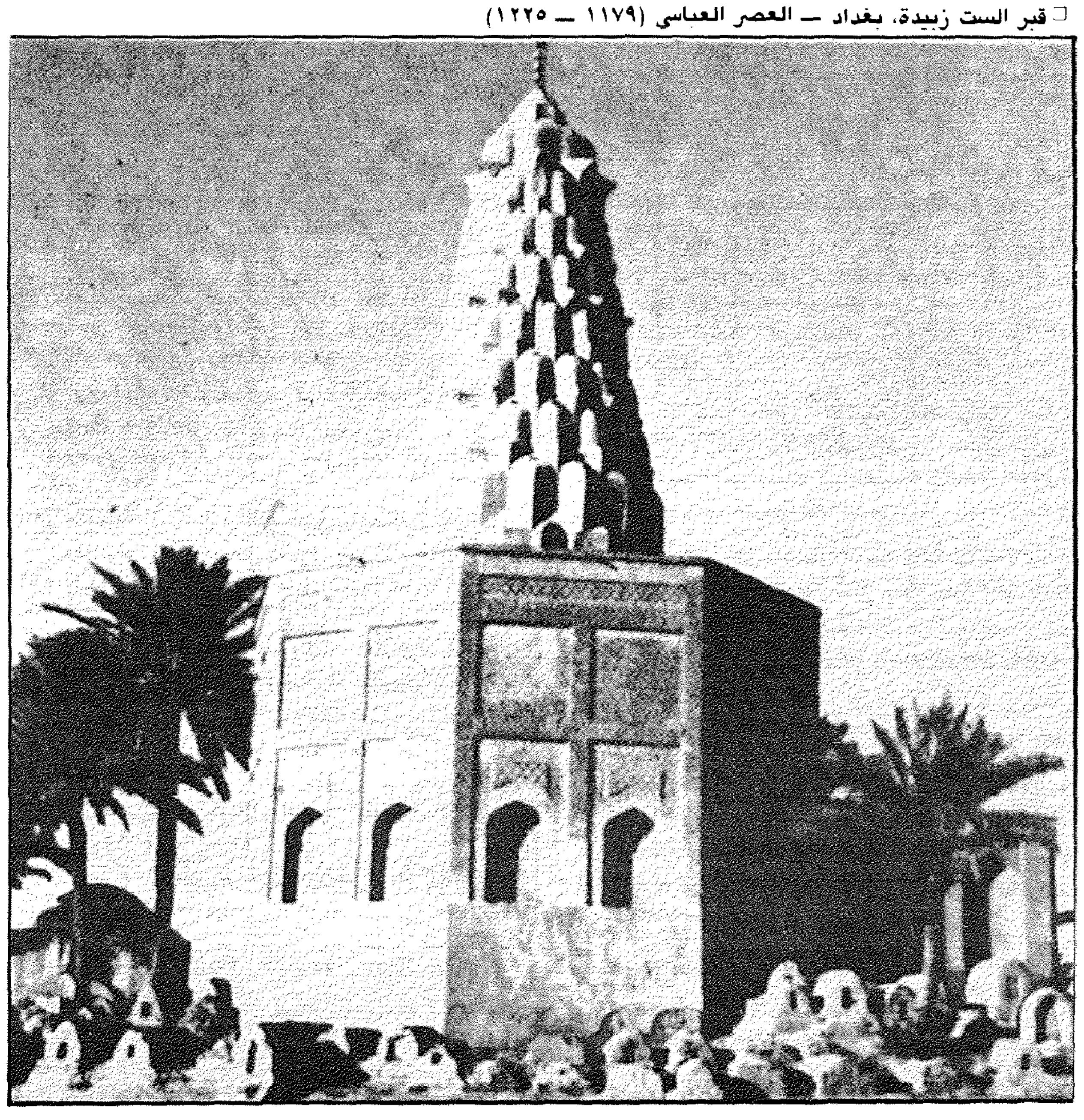
(٣٢) شفتكوف وآخرون. «لينين والعلم العسكري». دار الفارابي. بيروت ١٩٧٣. ص ٣٩.



العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية

خالد محمّد القاسمي

□ قبر الست زبيدة، بغداد ــ العصر العباسي (١١٧٩ ــ ١٢٢٥)





يجب أن تحتل السياسة الخارجية للعصر العباسي الأول مكانها من الدراسات الجادة وأن تظفر بتقييم جديد يكشف عن حقيقة الموقف الدولي وجهود الخلفاء فيه. فقد بذل هؤلاء الخلفاء جهوداً تظفر بالتقدير والاعجاب وتضعهم في صف واحد مع أوفر المجاهدين المسلمين عملاً وأكثرهم إخلاصاً، وأن تنفض عنهم أباطيل الدعايات العلوية ومفترياتها[1]. فقد تحقق لهم السلم الاسلامي وكانت نتائجه الثقافية ابقى أشداً من السياسة. فلم يكن الأمر مجرد كسب دبلوماسي، فقد ساعد ذلك في التسرب الثقافي للحضارة العربية التي بدأت في ذلك الوقت تفتح آفاقاً جديدة في تركستان وما وراء النهر والهند والشرق الأقصى وصقلية وجنوب ايطاليا، كما ساعد ذلك على أن يقتبس العرب من الثقافات الاغريقية والهندية والصينية ما طاب لهم[2].

وفي ظل هذا السلم كان الانتشار التجاري العظيم الذي جعل من موانيء البصرة والابلة وسيراف في مقدمة المواني العالمية، ودفع بالمتاجر العربية إلى أسوار الصين وإلى البحار الدافئة وإلى حوض الفولجا والدون وشمال غرب أوروبا وساعد ذلك على تكدس الثروات وأحداث التحول الرأسمالي الذي سنشير عليه في هذا البحث.

وبعد فهذه مقدمة عن العصر العباسي والعلاقات السياسية الخارجية التي سنقوم بالتحدث عنها من خلال هذا البحث الوجيز محاولاً أن أغطي في هذا البحث معظم الحوادث السياسية التي جدت في هذا العصر، مشيراً إلى تقدمها وازدهارها في العصر الذهبي من الرشيد إلى المتوكل، وحيث أننا لا نستطيع الخوض في كل المجالات السياسية في هذا العصر فإنني سأكتفي بالتعليق على بعض الحوادث الصغيرة وفي نفس الوقت سأتحدث عن العلاقات والتطورات السياسية التي تحتاج إلى شيء من التأمل والتفصيل.

وسنتحدث في هذا البحث القصير المتواضع بإذن الله عن العباسيين والعلاقات الدولية حيث سنتعرض للعلاقات الحربية في عهد الرشيد وأيضاً العلاقات الدبلوماسية في عهده.

ثم ننتقل إلى العباسيين وما حققوه في مجال السياسة الخارجية مثل الشرق الأقصى والأندلس والبيزنطيون كذلك فتح عمورية وجزر البحر المتوسط وعلاقتهم مع التركستان وقطاع الهند وجنوب شرق آسيا، ووفقنا الله لما نصبو إليه.

العباسيون والعلاقات الدولية

لقد ورث العباسيون تركة مثقلة بالمشاكل، ورثوا مشاكل الساسانيين وعقدهم، ومشاكل الأمويين ومعضلاتهم مع البيزنطيين في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ونعتبر عهد المعتصم فصلاً في تاريخ هذه العلاقات الخارجية فالخلفاء قبله كانوا يجتهدون ويجاهدون على النسق القديم وسنراهم في آسيا الصغرى يعاملون البيزنطيين نفس المعاملة القديمة، وفي تركستان يحاربون الصين ويوقعون بالأتراك الشرقيين، وفي الهند يصارعون امارة تنوج ويستولون على ساحل الهند الغربي: أعني لم تتجمد الفتوح في عهدهم إنما تابعوها بنفس عنفوان عمر وعبدالملك الأمر الذي يدفع إلى تقديرهم كل التقدير.

أما في عصر المعتصم والواثق فقد عملت الدولة على تثبيت المكاسب والاستعانة في تجميد الموقف بإتمام إقامة الثغور والتحصينات، لتتفيأ الدولة الاسلامية ظل الدعة والسلام. ويدخل العالم في ظل سلام مبسوط الرواق، فتكاملت حلقات الثغور على أطراف آسيا الصغرى وعلى أطراف كشمير وعلى أطراف ما وراء النهر وشحنت هذه الثغور بالمرابطين المقاتلة وأدت دورها كاملاً في تحصين الحدود والدفاع عن الدولة ودفع جميع الأخطار[3].

وفيما يلي سنستعرض العلاقات الدولية في عصر الرشيد وهو العصر الذهبي للدولة العباسية.

أولاً ــ العلاقات الحربية في عصر الرشيد:

لقد كان الروم أو البيزنطيين العدو الذي استطاعت الدولة العربية الاسلامية إزاحته من

الشام ومصر، وتعقبه إلى الأناضول براً وبحراً في صوافي وشواتي سنوية مستمرة[٤].

والمعلوم أن الحجاز والشام ارتبطتا بروابط جغرافية وبشرية وتجارية قبل الاسلام ولذلك فقد كان اتجاه العرب المسلمين بعد تأسيس دولتهم في الحجاز إلى تحرير الشام من سيطرة البيزنطيين ونجحوا في ذلك سنة ٦٣٨م حيث زار الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس التي اشترط سكانها أن يسلموا مفاتيحها للخليفة بالذات ويشير الدكتور فاروق عمر في كتابه «العباسيون الأوائل» إلى أن رجال الكنيسة لم يكونوا مرتاحين إلى تغير السلطة السياسية من بيزنطية إلى عربية، كما وأن السلطة البيزنطية لتستكين لهذا الانحدار الذي سلبها إقليماً من اغنى أقاليمها، ولذلك استمرت المعارك دون أن تؤثر في تغيير الوضع السياسي[٥].

لقد حلت الدولة الاسلامية محل الساسانيين في الحرب الطويلة الأمد بين الشرق والغرب، وأصبحت الدولة البيزنطية «دار الحرب» بالنسبة للمسلمين المجاهدين. ولكن جبال الأناضول الوعرة ووديانها العميقة وقفت حجر عثرة في سبيل تقدم الجيوش العربية الاسلامية، على أن الحرب استمرت سجالاً بين الطرفين تشتد مرة وتخف أخرى في صدد الاسلام والدولة الأموية[٦] وقد حوصرت القسطنطينية أثناء ذلك ثلاث مرات (٦٦٨ — ٦٧٠) و (٦٧٤ — ٦٨٠) و (٧١٥ — ٧١٧).

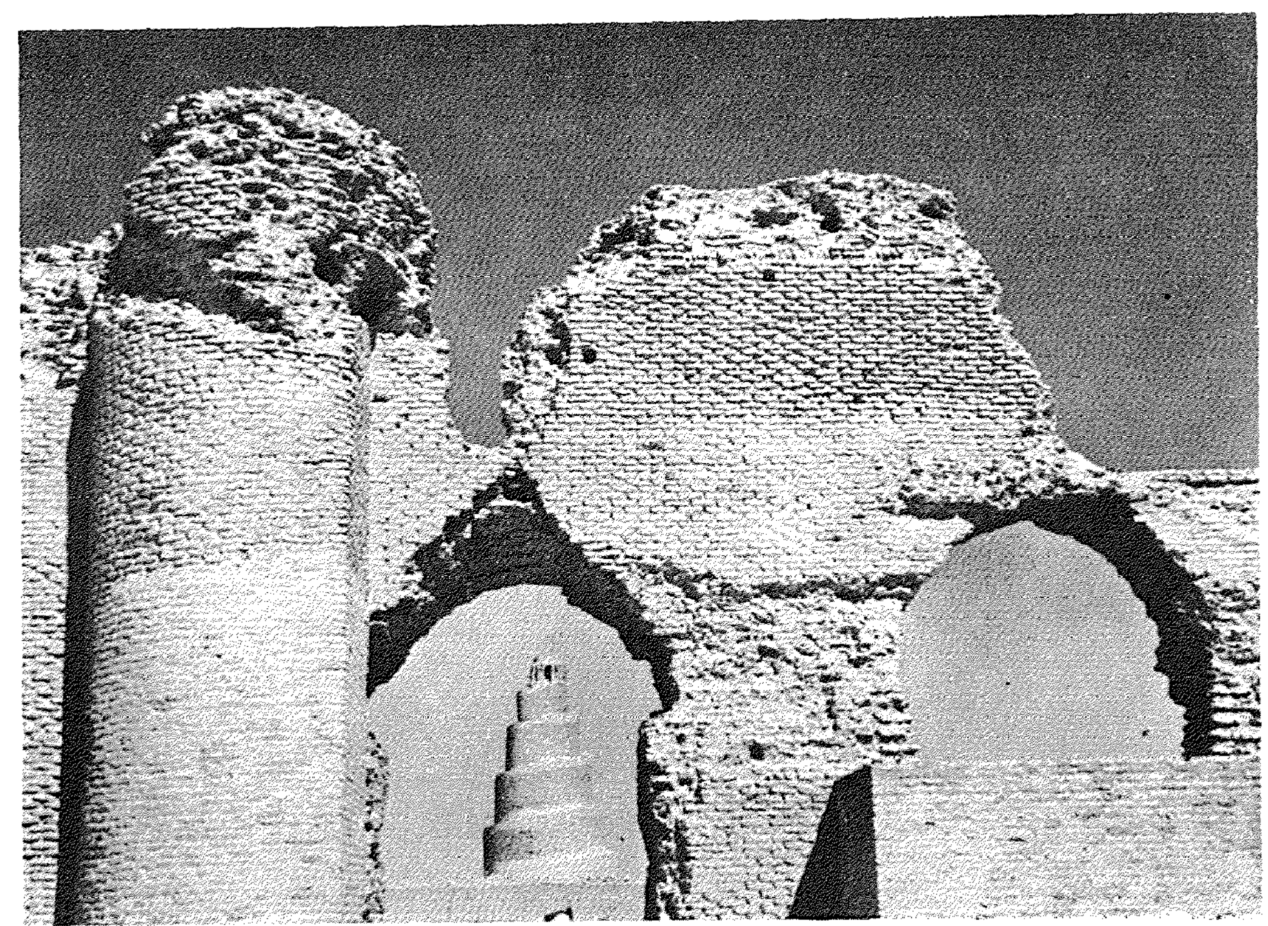
وقد منعت الاضطرابات الداخلية في أوائل العصر العباسي الخلفاء العباسيين من «الجهاد» ضد الروم، ولكن الدولة حاولت جاهدة أن تبقي روح الجهاد ومظاهره مستمرة وذلك لسببين: أولاً أن الجهاد من واجبات الخليفة الدينية الرئيسية حيث كان عليه أن يعمل لاضافة أقاليم جديدة من «دار الكفر» إلى «دار الاسلام».

ثانياً — لقد استعملت بلاد الروم ملجئاً لأعداء الدولة والثوار:

على أن أهم ما يميز الحرب الاسلامية البيزنطية في العصر العباسي هو اقتصارها على اشتباكات فصلية تتخللها هجمات تتفاوت في العمق داخل حدود الدولة المعادية. ولعل هذا الاختلاف في المجهود الحربي تجاه البيزنطيين يعود إلى أن وجهة الدولة العباسية وجهة شرقية لا غربية رغم أن سياسة الاتجاه نحو الأقاليم الشرقية والاهتمام بها كانت سياسة أموية بدأها هشام بن عبدالملك، ولم تكن بدعة عباسية جديدة، ومهما يكن من أمر فقد اهتم الخليفة أبو جعفر المنصور بمنطقة الحدود مع البيزنطيين، وكان جل عمله دفاعياً لا هجومياً، فقد أعاد تحصين المنطقة التي دمرها قسطنطين الخامس وبنى بها حصوناً شديدة. وتعطينا مصادرنا التاريخية معلومات جديدة وجيدة عن الجهود التي بذلها المنصور وعن الامكانيات البشرية والمالية التي أنفقها من أجل أن يضع أساساً جديداً لأقاليم الثغور. واستعمل المنصور وسائل إغراء كثيرة لحث الجند والناس على العمل في الثغور منها: زيادة العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير إضافية وتخصيص معونة قدرها ١٠٠ دينار لكل واحد منهم وبناء بيوت خاصة لاقامتهم مع عوائلهم[٧].

وإذا كان عهد المنصور مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات فإن عهد المهدي ابنه شهد تصاعد العمليات الحربية فقد استتم المهدي ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها ثم أخذ زمام المبادرة في عدة حملات هجومية كان أهمها حملة ٧٧٩م و ٧٨٢م وكان الانتصار الذي تحقق سنة ٧٨٢م كبيراً حيث حاصر الأمير هارون بن المهدي القسطنطينية بعد أن قاد جيشه عبر الأناضول وحصل على جزية كبيرة، وعاد إلى بغداد حيث استقبل بمظاهر العظمة والتهليل ومنحه أبوه لقب «الرشيد» إلا أن هذه الحملة كانت آخر حملة وصلت إلى أسوار القسطنطينية التي ظلت لقرون عديدة في مأمن من هجوم إسلامي جديد[٨].

وقد عنى الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٨م) عناية كبيرة بتنظيم منطقة الحدود بينه وبين البيزنطيين. فقد عزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة واحدة سماها «العواصم» التي سميت بهذا الاسم لأن المسلمين يعتصمون بها من الثغور فتعصمهم وكانت منطقة الثغور التي اهتم بها الرشيد تنقسم إلى ثلاثة مناطق هي:



□ مئذنة الجامع الكبير الملوية في سامراء ــ العصر العباسي.

المنطقة الشرقية وتشمل: حصون قاليقلا وكمخ وقلودية.

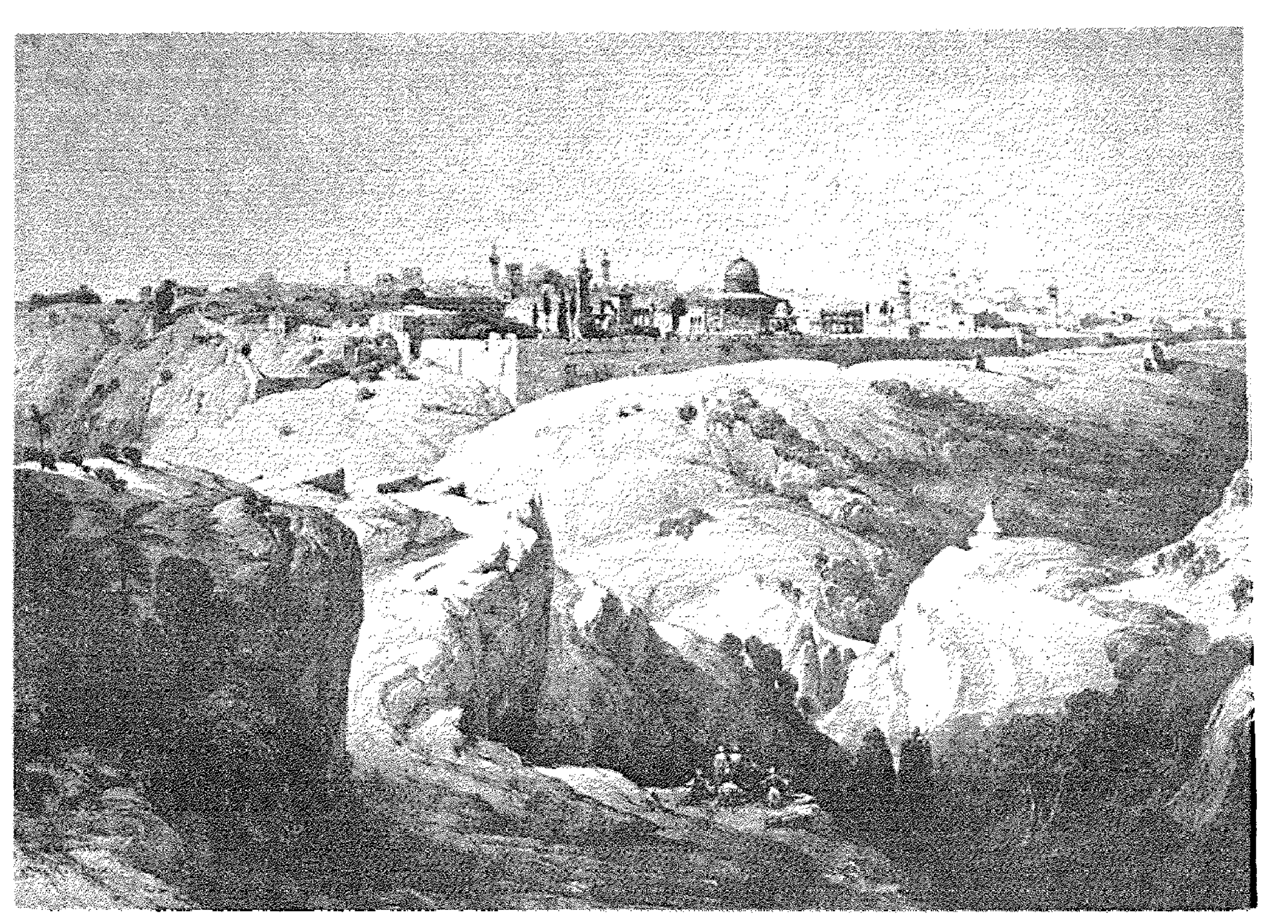
المنطقة الوسطى وتشمل: حصون الحدث وزبطرة ومليطة.

المنطقة الغربية وتشمل: حصون المصيصة وطرسوس وادنة.

أما الخط الفاصل بين الثغور والعواصم فقد حدده ابن الفقيه بأنه خط منبج من جهة، إلى انطاكية من جهة أخرى، فما كان إلى شمال الخط فهو من الثغور وما كان إلى جنوب الخط فهو من العواصم، ويمر هذا الخط بحصون الجومة وقورس وتيزين وكان مركز العواصم منبج وزاد الرشيد في تحصين الجبهة ببناء حصون جديدة وترميم الحصون القديمة، فقد بنى كفربيا بجوار المصيصة، وعمر طرسوس وشحنها بأكثر من ٦٠٠٠ مقاتل، وبنى وحصن عين زربي وشحنها بالرجال، كما زاد بناء الهارونية، وأعاد بناء حصن الكنيسة السوداء وعمر مدينة الحدث، وبنى حصن زبطرة[٩].

واهتم الرشيد في تحصين الجبهة ببناء حصون جديدة كما ذكرنا، كذلك اهتم الرشيد بإرسال الحملات كل سنة للجهاد ضد البيزنطيين، وكان يقود الحملات بنفسه كما في سنة ١٧٠هـ = ٧٩٧م، أو يرسل قادة من البيت العباسي لقيادة الحملات. وليدلل على أهمية هذه الحملات، ولاظهاره سطوة الدولة العباسية عين الرشيد سنة ١٨٦هـ = ٨٠٢م ابنه القاسم بولاية العهد بعد أخويه الأمين والمأمون وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وأشخص إلى منبج فأنزله إياها. ولعل أهم حملة قادها الرشيد بنفسه كان سنة ٨٠٤م حين نقض نقفور امبراطور الروم الصلح مع العباسيين، وكتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب.. أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي «يقصد ايريني» أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق. فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن



□ بيت المقدس.

فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها. وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك».

ولما قرأ الرشيد الكتاب استنفره الغضب، وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم «من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكفرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه»[١٠].

ولم يكن نقفور مهيئاً للقتال لنشوب ثورة مفاجئة داخلية، فهاجم الرشيد هرقلة ثم تقدمت جيوشه حتى وصلت أبواب أنقرة فاتحة أمامها حصون الصفصاف ودلبة فعرض الامبراطور دفع الجزية ووافق الرشيد على ذلك. ولكن البيزنطيين عادوا فأغاروا على عين زربة والكنيسة السوداء سنة ٨٠٦م، فجابههم الرشيد واستولى على عدد من القلاع المهمة مثل هرقلة وطوانة شمالي لؤلؤة ورضخ نقفور لطلب الرشيد بأن يدفع ٣٠٠ ألف دينار ويعمر بعض القلاع التي هدمت. واتخذ الرشيد قلنسوة مكتوب عليها «غاز حاج» وتعتبر هذه الحملة أقصى ما وصلت إليه الجيوش العباسية في أرض الروم، على أن كل هذه المعارك لم تكن تستهدف توسيع رقعة الدولة الاسلامية أو إقامة إدارة دائمة في الأناضول، بل سرعان ما كان الجيش العباسي يعود إلى قواعده في مناطق الثغور والعواصم.

وفي مجال النشاط الحربي البحري فإن التاريخ يسجل للعباسيين عنايتهم بتحصين الموانىء الشامية، إلا أنهم نظروا إليها كقواعد دفاعية لا هجومية، وكحدود لدولتهم ينبغي حمايتها والدفاع عنها.

ورغم استمرار حالة الحرب على الحدود الاسلامية ــ البيزنطية، إلا أن الأيام «المجيدة» للفتوحات كانت قد ذهبت، وهذا ما دعا الناقد الاجتماعي الجاحظ إلى تصوير المقاتلة وكأنهم قد انقلبوا إلى قصصاين، وشحاذين يردون للناس أخبارهم ويعيشون على ذكريات الماضي المجيد[١١].

ثالثاً ــ العلاقات الدبلوماسية في عهد الرشيد:

لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب مقصورة على العداء والحرب، بل شملت صلات ودية مع الامبراطوريتين البيزنطية والفرنجة «الكارلونكية».

لقد كانت تتخلل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين فترات سلمية يتبادل الطرفان الأسرى والوفود. كما ساعد امبراطور الروم «البيزنطيين» الأمويين في عملية إعادة بناء بعض المساجد في الحجاز والشام وكانت التجارة نشطة بين الدولتين براً وبحراً. وتشير رواية إلى أن عبدالملك بن مروان استعان بخبرة البيزنطيين في مشروعه لضرب السكة «النقود» كما استقبل المنصور سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، الذي أشار على الخليفة كما تقول الرواية، بألا يبني السوق داخل المدينة حفظاً للأمن من الشغب والتجسس ويزكر الدكتور فاروق عمر في كتابه «العباسيون الأوائل»: بأن العلاقات الاسلامية ــ الفرنجية «الكارليخية»، هي في الواقع ذات طبيعة معقدة. وسيجد القارىء أن المؤرخين اختلفوا ليس فقط حول طبيعة هذه العلاقات وأهدافها، بل على حقيقة وقوعها. تشير بعض الروايات اللاتينية المضطربة إلى أن شارلمان وامبراطور الامبراطورية الكارولخية بدأ بخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة ٧٩٧م ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة ٧٩٩م، وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ٨٠١م وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ٨٠٢م فرد عليه الرشيد بوفد سنة ٨٠٧م[١٢].

كانت الوفود تحمل الهدايا المختلفة إلى كل من العاهلين. كما أرسل شارلمان هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، مما دعى بطريق القدس إلى إرسال وفد سنة ٨٠٠م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان وقد حمل بعض الباحثين الأوروبيين هذه الروايات المفعمة بالخيال والغامضة في مصادرها الأصيلة أكثر مما يجب، فابتدعوا أسطورة تاريخية جديدة فحواها أن شارلمان أصبح حامياً للأراضي المقدسة في فلسطين وأميراً على القدس، بموافقة الخليفة، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، ويقف ضد البيزنطيين، ليحول دون تهديدهم البري والبحري للدولة العباسية.

ويقول الدكتور حامد زيان في محاضراته بمساق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب متعرضاً لهذا الموضوع بأنه ما من شك أن وجود الدول سواء أكانت الاسلامية أو الأوروبية في فترة ما يكون بينهما علاقات سواء كانت علاقات سياسية أو عسكرية أو حضارية، وبالنسبة للعالم الاسلامي فقد ورد في بعض المصادر الأوروبية خاصة كتابات الكوين، واينهارد وهما من كتاب عصر شارلمان ورد في كتاباتهم أن هناك سفارات تبودلت بين هارون الرشيد الخليفة العباسي وبين شارلمان الامبراطور الفرنجي ومن الملاحظ أن المتتبع للمصادر التاريخية الاسلامية لا يجد ذكراً لهذه السفارات. وقد روى المؤرخون الأوروبيون أنه قد وصلت إلى شارلمان رسالة من قبل هارون الرشيد محملة بالهدايا وتلك الهدايا عبارة عن ساعة مائية دقاقة وفيل أبيض ومجموعة من الثياب الحريرية والعطور والتوابل وغير ذلك، وترى تلك المصادر أيضاً أنه حدث سوء تفاهم واتفاق بين هارون الرشيد وشارلمان وتلمح إلى أنه كان الاتفاق موجه نحو الدولة الأموية بالأندلس بحيث تجعل يد شارلمان شبه مطلقة في القضاء على الأمويين بالأندلس وتشير هذه المصادر اللاتينية بأن هارون الرشيد منح شارلمان مفاتيح بيت المقدس ووضع نفسه خادماً لشارلمان في بيت المقدس. وهذه المصادر التي وردت في المصادر اللاتينية لم يرد ذكرها في المصادر الاسلامية ولذلك يجب علينا أن نتوقف لنناقش الأمر وإلى أي مدى تصدق هذه الروايات ويمكن تحليل الروايات في ثلاث نقاط رئيسية هي[١٣]:

النقطة الأولى: صحة ما روته المصادر اللاتينية من اتفاق هارون الرشيد مع شارلمان ضد الأمويين بالأندلس.

النقطة الثانية: صحة ما جاء في الروايات اللاتينية من منح هارون الرشيد مفاتيح بيت المقدس لشارلمان.

النقطة الثالثة: صحة ما ورد في المصادر اللاتينية من وجود هدايا متبادلة ولنناقش كل نقطة على حدة.

النقطة الأولى: إنه من المؤكد تاريخياً أن الدولة الأموية بالأندلس عندما قامت فإنما قامت على حساب أملاك العباسيين ونتيجة لذلك اعتبر الخلفاء العباسيين أن عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية خارجاً عليهم ومن ثم أرسلوا إليه الجيوش لمحاربته ولكن هذه الجهود العسكرية التي بذلها العباسيون في القضاء على الأمويون بالأندلس فشلت ومن ثم رفض العباسيون متابعة إرسال الجيوش إلى الأندلس وما زلنا نذكر عبارة المنصور عندما فشلت جهوده العسكرية في إخضاع الأمويين بالأندلس فقال:

«الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحراً.. ثم أقام العباسيون الأوائل دولة سنية في المغرب وهي دولة الأغالبة لتكون حاجزاً أمام توسعات الأمويين ومعنى ذلك أن العداء بين العباسيين والأمويين لم يكن بنفس القوة والشدة التي كان عليها في بادىء الأمر وإنما خفت حدتها»[١٤].

وكذلك لم يعد الأمويون بالأندلس يقومون بمهاجمة أملاك العباسيين ولذلك لم يعد هارون الرشيد في حاجة إلى معادات الأمويين بالأندلس هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه من المستحيل أن تفكير هارون الرشيد خليفة المسلمين في أن يتحالف مع دولة نصرانية ضد المسلمين بالأندلس فليس من صالحه أن يسلم الأندلس الاسلامية إلى نصارى الفرنج وعلى هذا النحو ونحن نستبعد تماماً وجود اتفاق بين هارون الرشيد وشارلمان، يتيح للأخير الاستيلاء على بلاد الأندلس الاسلامية، ويجب أن لا ننسى أن المصادر الاسلامية لم تشر إلى هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد وهذا تأكيد بعدم حدوث مثل هذا الاتفاق[١٥].

اما الدافع وراء ذكرها في المصادر الأوروبية فهو أن شارلمان وخلفائه قصدوا تدعيم مركزهم في الحرب ضد المسلمين في الأندلس واظهروا أنفسهم بأن هناك قوة الخلافة العباسية تؤيدهم في ذلك حتى يجنوا من وراء ذلك مكاسب سياسية ويقول الدكتور حامد زيان أنه لمن المؤسف أن توجد بعض المراجع العربية وغيرها تناقلت الروايات اللاتينية التي لا أساس لها من الصحة وتطرقت بإثبات صحتها[١٦].

القضية الثانية: وهي مسألة تسليم مفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان فإن هذا الموضوع لم يذكر كذلك بالمصادر الاسلامية وإنما ورد بالمصادر اللاتينية وبالشكل الآتي:

«ان بطريارك بيت المقدس منح شارلمان مفاتيح الكنيسة كنيسة القيامة وأن هارون الرشيد طلب من شارلمان أن يأخذ مفاتيح بيت المقدس «أي نيابة عنه»».

وفي الحقيقة أن هذا الأمر لا يمكن تصديقه حيث أن هارون الرشيد الذي كان يتولى حكم الدولة الاسلامية «الخلافة العباسية» وهي في ذلك الحين تعتبر من أقوى دول العالم ولم يكن من المتوقع أن يقف حاكم هذه الدولة القوية موقف نائب أو خادم شارلمان في بيت المقدس هذه ناحية ومن ناحية أخرى أن بيت المقدس بالنسبة للمسلمين لا يمثل بلداً عادياً وإنما تربطه بها روابط دينية فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين وإليها أسرى الله تعالى بعبده محمد عليه السلام ومعنى هذا أن بيت المقدس يرتبط برباط وثيق مع المسلمين ومشاعرهم الدينية لذلك لم يكن من المتوقع أن يمنحها الرشيد إلى شارلمان.

وقد يكون أقرت إلى الصواب أن الذي حدث هو أن شارلمان غمر بطريارك بيت المقدس بالهدايا والأموال تقرباً، ويبدو أيضاً أن بطريارك بيت المقدس أراد أن يرد جميل شارلمان لكنه لم يكن يدرك شيئاً فرأى أن يمنحه مفاتيح بيت المقدس تشريفاً له وفكرة منح مفاتيح المدينة هذه فكرية رمزية وما زالت حتى اليوم مستخدمة كنواحي شرقية لا يترتب عليها أبداً امتلاك لهذه المدينة أو تلك[١٧].

القضية الثالثة: وهي الخاصة بموضوع الهدايا المتبادلة. فإن وجود تبادل تجاري أمر ثابت بين مختلف الدول في عالم العصور الوسطى حتى ولو كان بين هذه الدول عداء وقتال، ولا شك في أن هناك علاقات تجارية كانت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان هذه ناحية ومن ناحية ثانية أن وجود تبادل هدايا بين الدول في العصور الوسطى أمر ثابت وموجود فلا يستبعد أن تكون هناك مجموعة من الهدايا المتبادلة

حدثت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان ومعنى ذلك أننا لا نستبعد وجود الهدايا المتبادلة بين الجانبين.

والأمر الهام في هذه الهدايا المتبادلة هو ما يترتب على تلك المبادلات خاصة إذا عرفنا أن الدولة العباسية كانت ذات تقدم حضاري في حين عم الغرب الأوروبي تأخر حضاري، وكانت النتيجة الحتمية هي تأثر الغرب الأوروبي عن طريق المبادلات بالحضارة الاسلامية، وخير شاهد على ذلك أنه عندما وصلت هذه الهدايا خاصة الساعة المائية الدقاقة التف حولها القسيسين وكانوا في الغرب الأوروبي آنذاك هم عنوان الحضارة الأوروبية فالتفوا عليها واندهشوا اندهاشاً كبيراً ولم يصدقوا أنها تعمل بطريقة علمية ولذلك عزوا أمر تشغيلها إلى السحر والجان وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأخر الغرب الأوروبي في تلك الفترة ونخلص من ذلك أن الهدايا التي تم تبادلها بين شارلمان والرشيد حدثت ونتج عنها تأثر الغرب الأوروبي بالحضارة الاسلامية(١٨).

خلاصة

لقد تعاونت حقائق التاريخ مع روايات ألف ليلة وليلة والأساطير الفولكلورية الأخرى، لتجعل من شخصية هارون الرشيد، شخصية أسطورية نسجت حولها القصص الخيالية وهذا ما جعل اسمه معروفاً وخطب وده حكام عصره من الصين إلى أوروبا. من هذا المنطلق يمكن أن ندرك هدف إينهارد مؤرخ البلاط الكارولنجي حين بالغ في رواياته عن حقيقة الصلات بين البلاط العباسي والبلاط الكارولنجي، ألا وهو تفخيم اسم سيده شارلمان عن طريق ربطه باسم هارون الرشيد وبالأماكن المقدسة في فلسطين حيث أشار هذا المؤرخ إلى أن العاهلين تبادلا السفراء والهدايا، وأسفرت مفاوضاتهما عن إعطاء شارلمان امتيازات معينة في فلسطين وانقسم مؤرخو الغرب بين مؤيد لوقوع هذه الصلات والامتيازات ومعارضة لها(١٩).

إن الصلات بين الشرق والغرب لم تنقطع منذ أقدم العصور إلى الآن، ولكنها مرت بفترات من المد والجزر وتباينت بين صلات سلمية وحربية. وتشير بعض الكتابات إلى أن الاسكندر المقدوني حين فتح بعض أقاليم الشرق اشترط على أهلها أن يؤووا الاغريق المهاجرين والمستوطنين في أراضيهم ويعفوهم من الضرائب. وأشارت بعض الروايات الاسطورية الأوروبية إلى أن شارلمان قام بحملة صليبية لتحرير الأراضي المقدسة في فلسطين وكما ترك هارون الرشيد أثراً في الخيال الأوروبي المعاصر لتلك الفترة كذلك ترك «الحشيشية» نفس الأثر. فقد زخرت الكتابات الأوروبية بالقصص حول الجنان الأرضية لهذه الفرقة الدينية ــ السياسية ومجدت شجاعة الحشيشية ومهارتهم في التخفي، ودقتهم في اقتناص الضحية واغتيالها. ونسجت الأساطير حول شخصية زعيم الحشيشية الغامضة المسمى شيخ الجبل. كل ذلك كان له صداه في التاريخ والرحلات والشعر والأدب والأسطورة في أوروبا(٢٠).

العباسيون والسياسة الخارجية

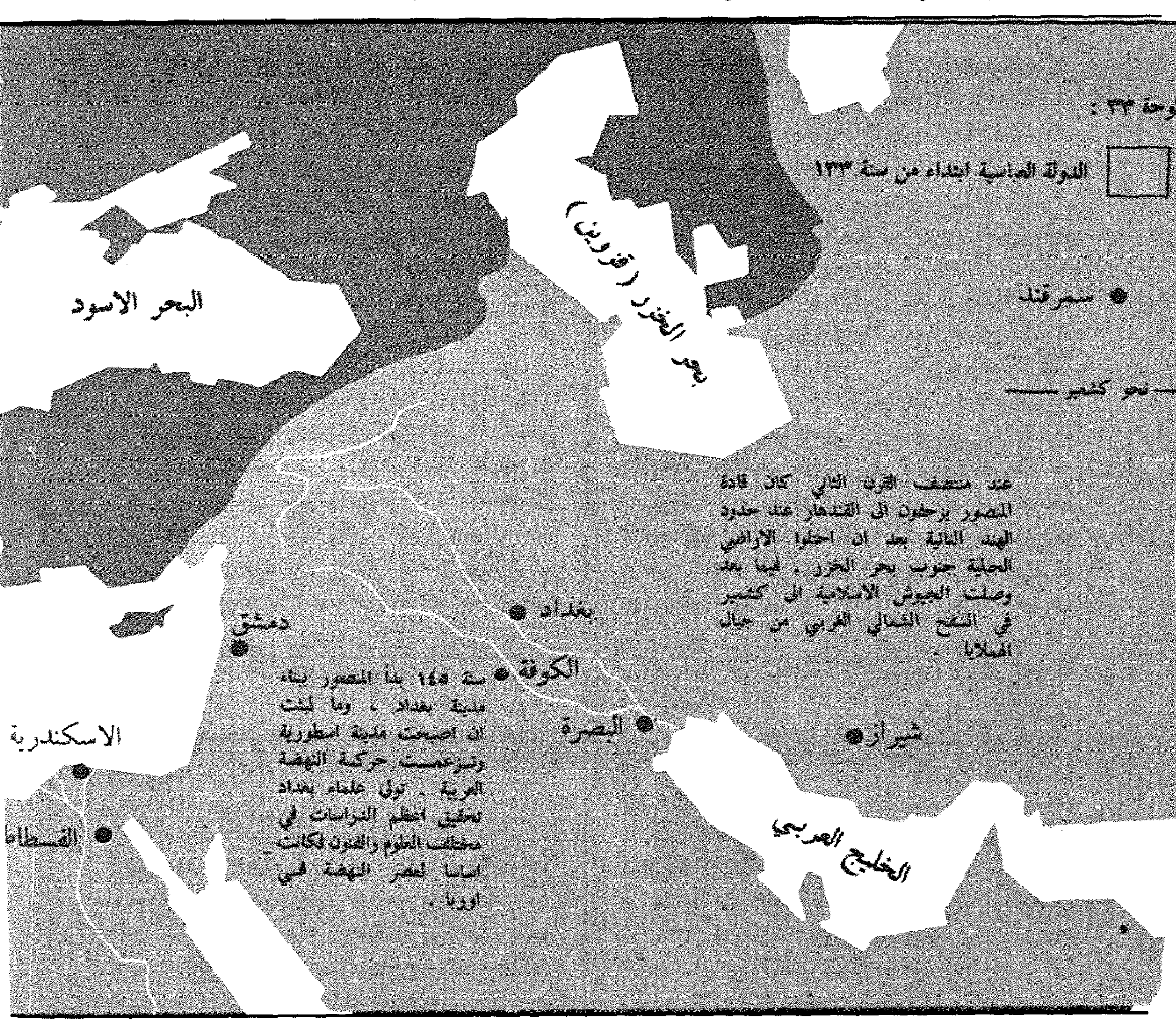
● أولاً ــ الرشيد والشرق الأقصى:

تشير رواية تاريخية إلى زيارة وفد أرسله ملك من ملوك الهند إلى بلاد الرشيد وقدم للخليفة هدايا تتضمن السيوف والثياب والكلاب، وقد أعجب الرشيد بالكلاب السيورية وقدم للوفد هدايا وجوائز سنية. والظاهر أن الرشيد استقبلهم استقبالاً رسمياً لأنه أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، ولعل في هذه الرواية دليلاً جديداً يشير إلى اصطناع الترك لم يبدأ منذ عهد المعتصم، بل كان كما ذكرنا، قبل المعتصم، ومنذ عهد المنصور ولكن نسبتهم كانت قليلة، وغير ذات بال، كما تبادلت الخلافة في عصر الرشيد الذي تميز بزيادة

الارتباطات التجارية بالشرق والغرب، وفوداً مع الصين، حيث أرسل الرشيد ثلاثة وفود إلى الصين[٢١] ولكن الصفة الغالبة على هذه الوفود والزيارات أنها وفود تجارية، ولم تكن لها صبغة سياسية، ولعل العباسيين كانوا يحاولون معرفة أحوال تلك البلاد النائية والتعرف على ما فيها من بضائع وتحف، وكذلك التعرف على أحوال الجاليات التجارية العربية والاسلامية هناك.

● ثانياً ـ الرشيد والأمويون في الأندلس:

لم تستطع الخلافة العباسية على عهد الرشيد مواصلة جهود المنصور والمهدي في محاولة استرجاع الأندلس من أيدي الأمويين وضمها إلى حظيرة الخلافة. والواقع أن أكبر جهد في هذا الاتجاه حصل على عهد المهدي العباسي حين اعتمد على عدة شخصيات سياسية للقضاء على انفصال الأندلس، وهي: عبدالرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي الذي تحرك في (تدمير) سنة ١٦٢هـ ـ ثم سليمان بن يقظان الاعرابي وأخيراً الدماحس بن عبدالعزيز الكناني أمير الجزيرة الخضراء الذي ثار سنة ١٦٤هـ ـ ثم فشلت حركته وهرب إلى العباسيين[٢٢].



أما الرشيد فقد فكر بأن يجعل من إمارة الأغالبة دويلة حاجزة بينـه وبين الأمـويين في الأندلس ولكن الرشيد أخطأ في سياسته هذه لأنه عالج الانفصال بخلق انفصال جديد عن جسم الخلافة فزاد من عوامل التفكك وكان المفروض أن ينهج سياسة تزيد من قوة عوامل التماسك.

● ثالثاً ــ الخلفاء المعتزلة والبيزنطيون:

استمر المأمون على سياسة الرشيد في شحن الجند والميرة على الحدود البيزنطية وربما كان هذا الخليفة يعد العدة لخطة هجوميـة تصل القسطنطينية أو على أقل تقدير تبعد البيزنطيين وتدفعهم وراء هضبة الأناضول فيتخلص الخليفة من إثارتهم للاضطرابات في أرمينية وأذربيجان والحدود الشمالية وقد حاول المأمون أن يستغل الحركات والاضطرابات الداخلية في دولة الروم، فساعد توماس الصقلبي في حركته سنة ٨٢١ ــ ٨٢٣م وأمده بالمساعدات المتنوعة وقـد حاول الامبراطور البيزنطي أن يساعد بابك الخرمي الذي تمرد في أذربيجان وأرمينية سنة ٢٠١هـ =

□ الدولة العباسية.

٨١٦م فأمده بالعون، وجعل بلاد الروم ملجأ للخرمية من أتباع بابك[٢٣]. واستغل الروم انشغال السلطة العباسية باضطرابات مصر ٢١٥هـ فهاجموا طرسوس والمصيصة وقتلوا العديد من المسلمين، فقاد المأمون صائفة ضدهم وتوغل في أرضهم، فاحتل هرقلة القريبة من عمورية وافتتح العديد من المطامير (وهي حصون عسكرية صغيرة) مما دعى الامبراطور إلى طلب الهدنة بشروط وهي:

١ ـ هدنة لمدة خمس سنين.

٢ ـ الانسحاب من الحصون الرومية التي احتلها العباسيون.

٣ ـ أن يدفع الروم ١٠٠ ألف دينار.

٤ ـ أن يعيد الروم جميع الأسرى المسلمين ويبلغ عددهم سبعة آلاف أسير.

ولكن المأمون رفض الشروط واستمر في القتال في السنة التالية سنة ٢١٧هـ فاحتل حصن لؤلؤة وبنى مركزاً عسكرياً جديداً ـ (الطوفة) ـ فكتب إليه الامبراطور رسالة جاء فيها:

«أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولست حرياً أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفي علمك كاف عن أخبارك. وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع الحرب أوزارها عنا، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة.

فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا أزخرف لك في القول فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها... وان افعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام»[٢٤].

ولكن المأمون اعتبر ذلك تهديداً ورد على الامبراطور ثيونيلس قائلاً:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة... غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوجدانية والشريعة الحنفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة. وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة ليفوتنا ما يغني عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى»[٢٥].

وفي سنة ٢١٨هـ تجهز المأمون لخطة تهدف إلى احتلال عمورية باعتبارها نقطة مهمة في الطريق إلى القسطنطينية. ولكن الخليفة توفي قرب طرسوس ولم ينس أن يوصي أخاه المعتصم بالاهتمام بالثغور والعواصم الشمالية وعدم ترك الاستعداد والجهاد ضد الروم. وذكره أن الخرمية حلفاء الروم يجب القضاء عليهم بكل ما تملك الدولة من إمكانيات.

● رابعاً ـ فتح عمورية:

لقد كان المعتصم رجل حرب وقائداً عسكرياً من الطراز الأول، ولذلك كان من الطبيعي أن يشهد عهده زخماً جديداً في الحرب العباسية ـ البيزنطية، فقد شدد البيزنطيون في هجماتهم بالتعاون مع بابك الحزمي على العواصم والثغور العباسية وكانت قمة نشاطهم في هذا الاتجاه هو احتلالهم زبطرة فقد كتب بابك الحزمي للامبراطور ثيوفيل يعلمه:

«إن ملك العرب قد وجه كل عساكره ومقاتلته إليه (بابك) فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك»[٢٦].

وقد استجاب الامبراطور لهذا النداء فزحف نحو الجنوب، واحتل زبطرة بمساعدة المحمرة الحزمية الذين «خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم، جماعة رئيسهم بارسيس». وكان ملك الروم قد جعلهم مقاتلة يستعين بهم في قتال المسلمين وقد أباد الروم المئات من سكان زبطرة، فكانت مذبحة رهيبة[٢٧] ثم تقدم نحو سمياط وأحرقها ولم يكن المعتصم بالخليفة المتقاعس في مواجهة حالة كهذه ولكن المشاكل الداخلية والاضطرابات ربما كانت عقبة في سبيل الاعداد والاستعداد، مما فسح المجال أمام الروم لهذه الأعمال فأعلن المعتصم الجهاد حيث يقول المسعودي[٢٨]: «ونودي في الأمصار بالتغير... فسارت إليه العساكر والمطوعة» ويشير الطبري إلى أن الخليفة «تجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات وحياظ الادم والروايا والقرب والبغال والدروع... وآلة النار والنفط»[٢٩].

وكان جيشه كثيفاً جعل على مقدمته اشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته إيتاخ وعلى ميسرته جعفر بن دينار، وعلى القلب عجيف بن عنبسة.

والظاهر أنه أراد أن يتمم المأمون في فتح عمورية، فقد سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية» ولذلك سار يقصد عمورية سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٨م وكان أول اشتباك بين جيش الروم بقيادة الامبراطور والجيش العباسي بقيادة الأمنشبن سجالاً بين الطرفين انتهى بانسحاب الروم وتركيز قواتهم باتجاه عمورية تحت قيادة ياطس ذلك لأن تيوفيل عاد مسرعاً إلى القسطنطينية لحدوث اضطرابات عسكرية فيها.

وبعد أن استطاعت الجيوش العباسية احتلال أنقرة تحركت نحو عمورية، وهي أهم مدينة في الأناضول، فحاصرتها حصاراً شديداً حتى استطاعوا النفور من ثغرة ضعيفة في السور وفتحت عمورية حرباً ووصلت أخبار الفتح المبين إلى الآفاق شرقاً وغرباً.

وكان رد فعل المسلمين على مذابح زبطرة (عنيفاً) فقتلوا وسلبوا، ويقول صاحب العيون والحدائق[٣٠]: أنه كان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة وعلى المتاع جملة واحدة ويظهر أن المعتصم كان ينوي «السير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة في فتحها براً وبحراً» ولذلك كان موقف الامبراطور تيوفيل حرجاً جداً، فقد راسل المعتصم معتذراً على مذابح زبطرة دون جدوى كما طلب النجدة من أوروبا الغربية[٣١].

وتشير بعض المصادر إلى حدوث تقارب بين البيزنطيين ودولة الأمويين في الأندلس بعد موقعة عمورية في ٢ آب ٨٣٨م. فعلى أثر هذه النكبة أرسل تيوفيل سفارة إلى الأمير عبدالرحمن الأوسط يطلب فيها إنشاء صلات قوية بين الطرفين وأن يعمل الأمير الأموي على استرجاع الأمر من العباسيين، كما طلب الامبراطور البيزنطي استرجاع جزيرة أقريسطش التي احتلها الزبطيون في عهد ميشيل الثاني بعد خروجهم من الاسكندرية سنة ٢١٢هـ وكان هؤلاء الربضيون قد خرجوا من الأندلس بعد حركة فاشلة ضد السلطة ونزلوا الاسكندرية، ولكن العباسيين طلبوا منهم الخروج عنها، وكان عددهم ثلاث آلاف، فخرجوا إلى أقريطش في عهد المأمون. وقد أرسل عبدالرحمن الأول سفارة إلى ميشيل الثاني ورسالة رد فيها على رسالة الامبراطور ويبدو أن الرد كان دبلوماسياً لم يلزم فيه عبدالرحمن نفسه بأية مساعدة[٣٢].

ويبدو أن الصلات توثقت أكثر في عصر الخلافة الأموية بقرطبة وزاد تبادل الهدايا والتحف ومهما يكن من أمر فإن المعتصم نفسه لم يواصل الحرب بسبب شكه في مؤامرة عسكرية استهدفت قتله، دبرها القائد عجيف بن عنبسة بالاتفاق مع العباس بن المأمون بسبب امتعاض القائد العربي عجيف من تسلط القادة الترك وسوء تصرفهم. على أن المؤامرة فشلت[٣٣].

ورغم أن المناوشات استمرت سجالاً بين الطرفين إلا أنها لم تحقق شيئاً يذكر، وحدث تبادل في الأسرى في عهد المعتصم. على أن أكبر عملية تبادل بالأسرى حدثت سنة ٢٣١هـ = ٨٤٦م على عهد الواثق حيث اتفق الطرفان على الفداء على ضفاف نهر اللامس قرب طرسوس، وحضر الفداء خاقان الخادم وأمير الثغور أحمد بن سعيد الباهلي. وقد افتدى من المسلمين حوالي خمسة آلاف أسيراً وتشير بعض الروايات إلى أن الواثق أمر بأن يمتحن الأسرى من المسلمين حول طبيعة القرآن وطبيعة الله، فمن وافق المعتزلة في الرأي فودي به ومن رفض ترك دون فداء[٣٤].

● خامساً ـ المتوكل والبيزنطيين:

شهد عصر المتوكل هجوماً بيزنطياً قوياً على السواحل المصرية سنة ٧٣٨هـ فنهبوا وأحرقوا وسبوا من النساء ٦٠٠ امرأة، ثم عادوا بسفنهم دون أن يجابهوا بمقاومة لأن دمياط كانت خالية من الجند الذين ذهبوا إلى الفسطاط لحضور احتفال خاص. واستمر الغذو سجالاً بين الروم والمسلمين، لا يتعدى الهجوم على العواصم والثغور ثم الأسر والنهب ثم الانسحاب نحو

الداخل. وحصل الفداء مرتين: الأولى سنة ٢٤١هـ والثانية سنة ٢٤٦هـ.

نلاحظ من سير العمليات العسكرية على الحدود الشمالية أن الحرب كانت سجالاً وكانت مناوشات حدودية. فيما عدا حرب عمورية التي كانت ضربة قوية وجهها المعتصم للبيزنطيين، واعتبرها البيزنطيون نكبة كبيرة[٣٥].

إن هذه المناوشات لم تثمر عن تغيير كبير في وضع الحدود، كما وأن الطرفين انشغلا بمشاكل داخلية عديدة، ولذلك أصبحا أكثر رغبة في التفاهم مع بعضهما البعض ولا ننسى بأن الروم كان عليهم بعد فترة قصيرة أن يجابهوا الدويلات الاسلامية التي انفصلت عن السلطة العباسية، وتحركت بنشاط ضد البيزنطية، كالحمدانيين والأغالبة والطولونيين والأخشيديين على أن هذا النشاط لا يدخل ضمن حدود هذه الدراسة.

● سادساً ـ العباسيون وجزر البحر المتوسط:

رغم إهمال العباسيون للنشاط البحري في البحر المتوسط فإن الاسطول البحري على عهد الرشيد كان فعالاً نسبياً، فقد أغار الأسطول على قبرص واشتبك في معركة مع الأسطول البيزنطي الذي انهزم وأسر قائده فأمر الرشيد بقتله.

وفي سنة ١٩٠هـ = ٨٠٦م غزا حميد بن معيوف قبرص «فهدم وأحرق وسبى...» ومع ذلك لم يستقر الحكم العباسي في قبرص لكثرة ما نقض أهلها من العهود، ويبدو أن نقاشاً طويلاً وقع بين الفقهاء حول الكيفية التي يعامل بها المسلمون سكان قبرص واشترك في النقاش مالك بن أنس وسفيان بن عينية والليث بن سعد والأوزاعي وإسماعيل بن عياش وغيرهم[٣٦].

وفي سنة ١٩١هـ = ٨٠٧م أرسل الرشيد حملة إلى (رودس) عادت بالكثير من الغنائم ثم انشغل العباسيون بالحرب الأهلية والفتن الداخلية وانتقلت مسؤولية الدفاع عن النفوذ الاسلامي في البحر المتوسط إلى أمراء المغرب والأندلس.

أما كريت فقد غزاها حميد بن معيوف في عهد الرشيد وتمكن من السيطرة على جزء ساحلي منها واستطاع عمر بن عيسى الأندلسي أن يفتتح حصناً فيها في عهد المأمون، ثم توسع نفوذه تدريجياً وطرد الروم منها ونزلها سنة ٢١١هـ الثوار الربضيون بعد أن اتفقوا مع عبدالله بن طاهر بالهجرة من الاسكندرية فأعطاهم الأمان ونزلوا كريت[٣٧].

وقد ارتبط منذ بداية القرن الثالث الهجري مصير الجزر في البحر المتوسط بقوة العرب في الأندلس وقوة الأغالبة في المغرب وقد استطاع الأغالبة أن يفتحوا «صقلية» ويثبتوا نفوذهم فيها، أما كريت فقد ارتبطت بدولة الأمويين في الأندلس. أما الدولة العباسية فقد انشغلت بالقلاقل في عصر فوضى الأتراك، ومع ذلك فقد حاول المعتصم بعد انتصاره في عمورية «المسير إلى القسطنطينية... فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه».

● سابعاً ـ العلاقات مع التركستان:

كان على العباسيين أن يحافظوا على حدودهم الشرقية في بلاد ما وراء النهر تجاه الهجمات التي يقوم بها الأتراك الشرقيون وكذلك الصينيون وقد استطاع العباسيون سنة ٧٥١م أن يهزموا جيشاً صينياً يقوده كاوهين شيه. وتفرغ العباسيون للسيطرة على تحركات الترك الذين انقسموا فيما بينهم إلى إمارات صغيرة، أهمها امارة القدلوق وامارة الأغوز. ان انقسام الأتراك دون شك أثر في قوتهم، وخفف من وطأتهم على الحدود الاسلامية[٣٨].

وفي خلافة الرشيد استطاع الغطريف بن عطاء بسط سيطرته على امارة القرلوق مرة أخرى كما استطاع الفضل البرمكي أن يكسب ملك اشروسنة... واستمر المأمون في سياسته هذه متوغلاً في آسيا الوسطى «تركستان» ولعل من نتائج بسط السيطرة العباسية على أقاليم الصغد وفرغانة وأشروسنة وان كثر تدفق الترك إلى الدولة والمجتمع العباسي حتى تزايد عددهم على عهد المعتصم.

ولعل نظرة إلى تركيب الجيش العباسي الذي سار من خرسان إلى بغداد أثناء النزاع بين الأمين والمأمون تعطينا فكرة عن كثرة نسبة الترك في هذا الجيش كما وأن البلاذري يقول عن المعتصم أن[٣٩]:



□ القصر العباسي، بغداد ـــ العصر العباسي (١٢٣٠)

«جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاس وغيرهم، وحضر ملوكهم بـابك، وغلب الاسلام على ما هنالك، وصار أهل تلك البلاد يغـذون ما ورائهم من التـرك، ففتح مـواضع لم يصل إليها أحد قبله».

● ثامناً ـــ قطاع الهند:

وإذا كان الأمويون كسبوا معركة السند في عهـد الوليد بن عبـدالملك فإنهم مـا لبثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها منذ عهد سليمان بن عبدالملك حتى آخر العهد بهم واضطروا إلى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمـد ابن القاسم ومصـرعه فقـد استطاع ابن مالك السند أن يدخل العاصمة وأن يستردها واضطر الأمويون إلى معاودة القتال في عهد ولاة السند أمثـال يزيـد بن أبـي كبشة وسليمـان بن عبدالملك بن حبيب، وحبيب ابن المهلب[٤٠].

وظلت هذه الفتنة متلاحقة متصلة والأمويون لا يكفون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز، وأدرك الأمويون أن كسب معركـة التثبيت لن يكون إلا بإنشاء القواعد العربية التي تمتد في البلاد لتكون مراكز لتجميع العنصر العربـي وقلاعاً حصينة تحمي المكاسب التي أحرزوها، ومن أجل هذا أنشئت مدينتا المحفوظة والمنصورة ويبدو أن هذه السياسة أثمرت آخر العصر الأموي فقد استقرت الأحوال وقضي على الفتن والثورات وركن أهل السنة والملتان إلى الطاعة[٤١].

ولم يكن العصر العباسي عصر تجميد الفتوح، على نحو ما يذهب بعض الدارسين فقد اندفع العباسيون في تيار الفتح بنفس قوة الأمويين، ويكفي أن نشير إلى ما أحرزوا من نصر في بلاد ما وراء النهر وفي هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلهم في أحوال الأتراك.

ولم يقف العباسيون جامدين في اقليم امارة فنوج فقد احتكوا بها ويظهر أنهم أحرزوا بعض النصر في هذا الميدان، فالبلاذري يشير إلى القائد العباسي هشام بن عمرو التغلبـي وفتح قشمير،

واستمرت معركة المسلمين مع قنوج حتى أيام الخليفة المأمون فقد أشار البلاذري إلى جهود موسى بن يحيى بن خالد البرمكي.

ولم يكف العباسيون عن متابعة الزحف صوب الشرق حتى أيام المعتصم العباسي الذي تابع سياسة إنشاء المدن وبناء القواعد الحصينة، فبنى قاعدة البيضاء وأسكنها الجند[٤٢].

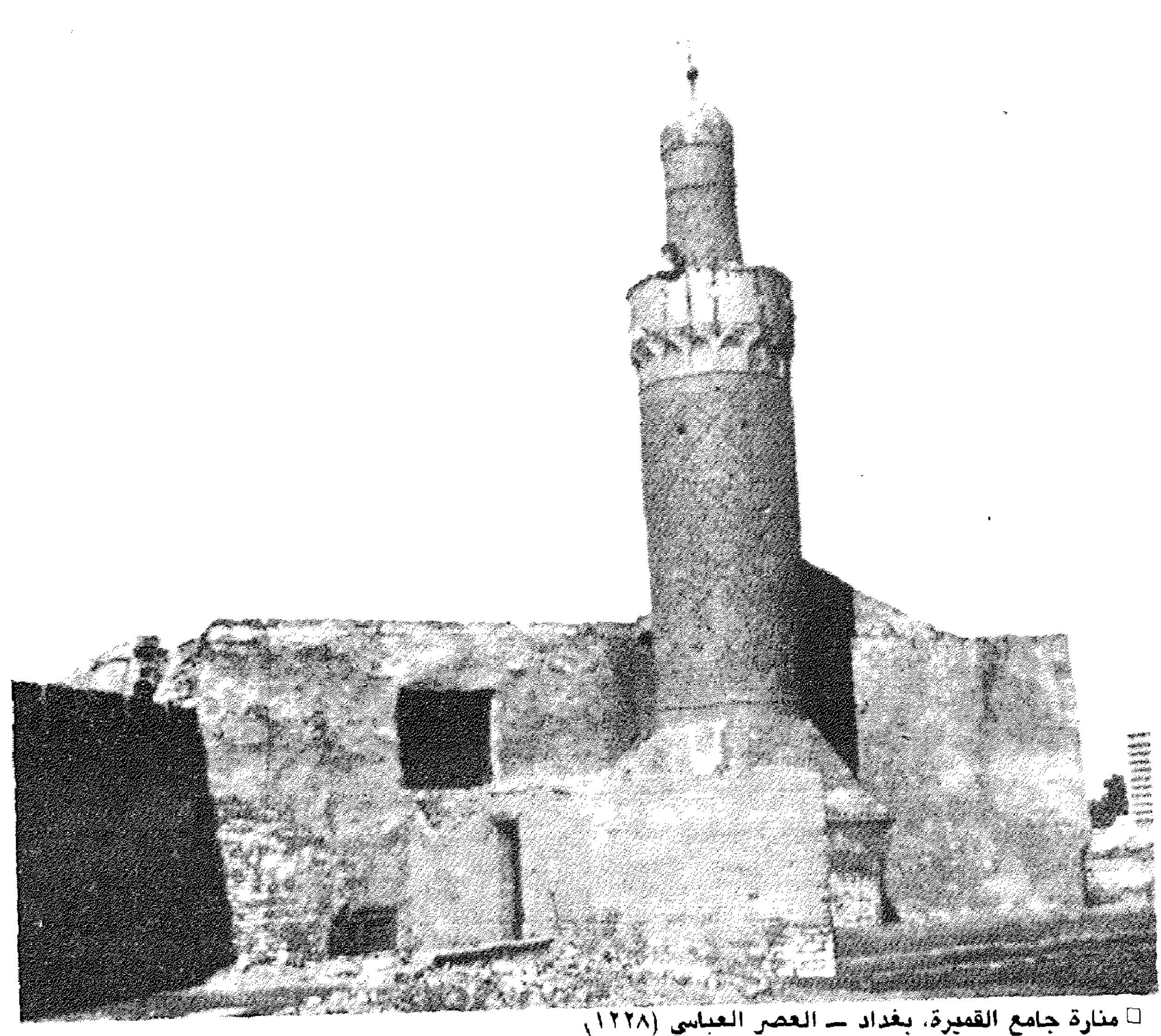
• تاسعاً ـ العباسيون وجنوب شرق آسيا:

ليس من شك من أن العصر الأموي فتح للحضارة آفاقاً جديدة مطلة على آسيا الوسطى بعد فتوح ما وراء النهر كما فتح آفاقاً أخرى مطلة على المحيط الهندي بعد فتح السند واستيلاء العرب على الميناءين الهامين على ساحل الهند الغربي: ميناء الديبل والمنصورة وبدأت البحرية العربية للمرة الأولى تبسط نفوذها وتؤكد سلطانها في هذه المناطق الهامة. لكن الحقيقة المؤكدة أن العصر الأموي لم يستطع أن يستغل هذه الآفاق الجديدة التي أطلت منها الحضارة العربية ووقفت جهودهم عند الآفاق التي انتهوا إليها، لأن التركيز كله وثقل الدولة كلها كان في بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط بصفة عامة الذي شهد أهم المعارك البحرية، وأهم التوسعات البرية فكانت الدولة الأموية في الحقيقة دولة ألقت بثقلها كله في ميدان البحر الأبيض المتوسط[٤٣].

ويضيف الدكتور حسن محمود في كتابه «العالم الاسلامي في العصر العباسي» قائلاً: لكن قيام الدولة العباسية كان نذيراً بتحول جديد ومزيد من الاهتمام والتطلع إلى الآفاق التي جمد الأمويون عندها. ولا ننكر أن الدولة العباسية ظلت منذ قيامها معنية بالمشكلة البيزنطية والدفاع عن حدود الشام والاحتفاظ بنفوذها في المغرب ومناوشة الأمويين الذين كانوا قد استقلوا بالأندلس ولكن الحقيقة انهم كانوا يدافعون عن مكاسب آلت إليهم من العصر الأموي، ولم يكن من المعقول أن يتركوها نهباً لأطماع البيزنطيين أو أطماع الثوار الخوارج، أو مشروعات الأمويين التوسعية.

كل ذلك لم يصرف نظر الدولة العباسية عن موضوع آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا، وبدأت الدولة تخفف من أثقالها في الغرب الاسلامي بالتدريج لتعطي مزيداً من الاهتمام ومزيداً من التركيز نحو الشرق. وقد حافظت الدولة العباسية على ميراث الاسلام في تركستان وصمت لأطماع الصين ونقضت تحالفها مع الأتراك الشرقيين، كما أعطت قوة جديدة للنفوذ الاسلامي في الهند، وبدأ المد الاسلامي يتحرك صوب الشرق نحو قشمير وامارة تنوج لكن هذا التركيز وهذا الاهتمام اشتد أثره واشتد وضوحه منذ أواخر عصر الرشيد حين تحقق النمط الفيدرالي في الحكم وأقيمت دولة الأغالبة في افريقية، وتم التفاهم مع الفرنجة وضربت الدولة البيزنطية ضربات قاصمة ولعل من أدلة هذا الاهتمام قسمة العالم الاسلامي إلى مشرق عاصمته مرو وخراسان وتولية المأمون ولي العهد، ونائب الخليفة على هذه البلاد يقيم فيها ويهتم بأمورها ثم تأكد هذا الاهتمام في عصر الخليفة المأمون الذي وضحت في عهده الصبغة الصرفة للخلافة العباسية. وكان المأمون عاهل آسيا العظيم تأتيه الوفود من كافة آفاق آسيا تلتمس التأييد أو تشتري السلام، حتى بلغ هذا الاهتمام بآسيا ونشاطها وتياراتها القمة في عصر الخليفة المعتصم الذي وجد في الأتراك الغربيين القوة الجديدة التي تساند الخلافة وتحميها.

وقد أدى هذا كله إلى مزيد من الاهتمام بجنوب آسيا وبالشرق الأقصى. وأصبح هذا الاهتمام ركناً هاماً من أركان السياسة الدولية لخلفاء العصر العباسي الأول. وأعتقد أن ذلك مرده إلى عوامل متعددة منها أن الدولة العباسية لم تهمل أبداً اقليم خرسان، حيث انطلقت الصيحات الأولى للدولة العباسية، وكانت خراسان عامل جذب كبير في تاريخ العصر العباسي الأول هذا إلى التحالف الذي نشأ بين العباسيين وبين الجموع الايرانية المتطلعة إلى مزيد من السلطان، هذه العناصر التي كانت قد أسلمت واستعربت واتخذت اللغة العربية لغة لحياتها الثقافية وورثت الدولة الكثير من التراث الساساني القديم، ومن بين ما ورثته الاهتمام بالملاحة في الخليج الفارسي وبحار الهند وجنوب



□ منارة جامع القميرة، بغداد ــ العصر العباسي (١٢٢٨)

شرق آسيا. وثمة عامل آخر بعذي إلى تأسيس مدينة بغداد التي أصبحت مركز الثقل في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الأول، وكانت ذات موقع متوسط يربطها بواسط والبصرة والابلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وأرمينية وكانت تربط الفرات بدجلة عدة قنوات صالحة للملاحة وكانت العاصمة الجديدة في وسط السهول الخصبة التي كانت تزدان بها أرض الجزيرة[٤٤].

وكانت أوفر حظاً بمياه الري وأكثر ازدهاراً بالسكان هذا إلى ما استطاعت الدولة العباسية أن تحقق من مظاهر الاستقرار بقضائها على العناصر المناوئة لها في إيران وإخماد الثورات والفتن وإصلاح الحكومة وإنشاء الجيش القوي والتمكين للنظام العباسي من القوة والسلطان[٤٥].

هناك تطورات أخرى في جنوب شرق آسيا ساعدت العباسيين الأوائل على أن ينطلقوا في هذا الاتجاه بكل ما يستطيعونه من قوة. فقد ظهرت جاليات إسلامية في بلاد الصين يعزوها إلى الشيعة الذين فروا في أواخر العصر الأموي من الاضطهاد في خرسان وأقاموا بجزيرة في أحد الأنهار الكبيرة في الصين واشتغلوا بالوساطة التجارية بين المشرق والمغرب وتتحدث الكتابات الاباضية عن رحلة تاجر إباض إلى الصين حول منتصف القرن الثامن من أهل عمان اسمه أبا عبيدة. وشهدت بلاد الصين في ذلك الوقت استقراراً شبيهاً بالاستقرار الذي تحقق

للعباسيين في عصرهم الأول، فقد حكمت أسرة تانج (٦١٨ ــ ٩٠٧م) امبراطورية ظلت متحدة حتى آخر العهد بها، ونعم جنوب الصين قرنين ونصف قرن بسلام لم يكن يعكر صفوه شيء وكان من الطبيعي بعد أن استقامت أحوال الصين على هذا النحو أن تفتح كانتون للتجار من كل صوب تلك هي العوامل الجاذبة التي شدت انتباه العباسيين إلى الشرق الأقصى، وأما نطاق هذا الاهتمام فإن النقطة الأولى بأن تحافظ الدولة العباسية على سيادتها على بحار الهند وتشدد من قبضتها على الموانىء الغربية الهامة، وأن تقضي على القرصان الذين انتهزوا فرصة العصر الأموي الأخير وعاثوا فساداً في تلك البقاع ويروي البلاذري أن الخليفة المنصور وجه عمرو ابن جميل في بوارج إلى تارن وأتى القندهار في السفن ففتحها، وفي عهد المأمون بعث محمد بن الفضل بن ماحار فسار في سبعين بارجة إلى الهند فقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم تزايد الاهتمام العباسي بالشرق الأقصى وانتظمت الملاحة المباشرة مع الصين في النصف الأول من القرن التاسع عشر الهجري يدل على ذلك هذا الأدب الجغرافي الكبير الذي ظهر في هذه الفترة يتحدث عن هذه العلاقات ويصف المسالك ويتحدث عن السفن والتجارات. هذا الأدب الجغرافي المتمثل في الرواد الأوائل من الرحالة الذين ظهروا في هذه الفترة أمثال سلام الترجمان الذي قام برحلة إلى سور الصين الشمالي وابن وهب القرشي الذي ركب البحر إلى الصين وانتهى به المطاف إلى مدينة كنتون بالصين. وقد أكرمه امبراطور الصين وناقشه في الدين والسياسة ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء وأمر له بالهدايا النفيسة وقد أفاد من تجربة ابن وهب مؤلف اسمه أبو زيد حسن، كما أشار المسعودي إلى هذه الرحلة في كتاب «مروج الذهب» في الفصل الذي كتبه عن ملوك الصين، وكذلك رحلة سليمان السيرافي، ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته وكل ما وصل إلينا هو وصف رحلته إلى الهند والصين. ولهذا الوصف ذيل وصفه في القرن الرابع الهجري مؤلف سيرافي اسمه أبو زيد حسن واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين. وتمتاز رحلة



□ سوق قديم في بغداد.

سليمان والذيل الذي وضعه أبو زيد حسن بما فيها من وصف صادق للطرق التجارية ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ولأهم الحاصلات في الهند وسرنديب وجاوة والصين. هذا التراث الجغرافي العظيم هو الذي بقي فيما كتبه المسعودي والاصطخري وابن خرداذبة[٤٦].

وأصبحت البصرة والابلة وسيراف منتهى المطاف للسفن القادمة من الصين، بل أصبحت سيراف منافساً للبصرة في الغنى والثروة.

من هذا الأدب الجغرافي سالف الذكر يمكن تصور الطريق الذي سلكه القاصدون إلى الصين في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي. كانت السفن في طريقها إلى الهند تقف في صحار ومسقط للتزود بالمياه ثم تعبر المحيط الهندي مباشرة إلى جنوب ملبار وهذا الطريق بطبيعة الحال كانت تسلكه السفن التي تقطع الرحلة الطويلة إلى الصين. وكانت السفن تستطيع كذلك الابحار على طول الساحل مارة بجزيرة متيس وهرمز القديمة وتيزمكران والديبل والمنصورة

وكانت السفن في هذا الطريق تتعرض لغارات القرصان فكانت تحمل على ظهرها جنوداً مدربين على الرمي بالنفط[٤٧].

وساحل ملبار هذا كانت له أهمية اقتصادية قصوى عند المسلمين فقد كان مصدر خشب الساج الذي كانت بيوت سيراف تبنى به والذي كان يستخدم في صناعة السفن، ومن ساحل ملبار تسير السفن إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وبعد أن تؤدي السفن القاصدة إلى الصين رسوماً تبلغ ألف درهم كانت تسير حول الجزء الجنوبي من سيلان، بعد أن تعبر مضيق ملكا تقصد مباشرة إلى الهند الصينية، وتسير السفن على طول ساحل خليج كنج إلى هانوي، ثم تتجه آخر الأمر إلى كانتول التي كانت تسمى أحياناً خانفو. وكان الملاحون العرب على معرفة بالساحل الممتد شمال كنتون. فإن خرداذبة يشير إلى ميناء خاينجو، ويبدو أنهم وأعني الملاحين العرب ــ قد أوغلوا شمالاً حتى كوريا ويسميها ابن خرداذبة بلاد السيك[٤٨].

ولكن كانتون كانت بحق أعظم المراكز الاسلامية التجارية وقد نزلت بها جالية كبيرة العدد من المسلمين. ويتحدث سليماني السيرافي عن هذه المدينة الكبيرة. ويذكر أنها كانت أكبر أسواق الصين آنذاك «وكان فيها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون تلك الناحية وإذا كان العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين» والمصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات وأنه امتد إلى الجاليات الاسلامية الأخرى في سائر مدن الصين فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها، وإن كانت الحكومة الصينية قد احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التي قد يترتب عليها النفي من البلاد أو الاعدام وكانت الرحلة من مسقط حتى كانتون تستغرق ١٢٠ يوماً عدا فترات التوقف في الموانيء[٤٩].

هذه العلاقات الهامة التي نمت في ظل الحكم العباسي انتهت نهاية عنيفة سنة ٨٧٨م عندما حاصر الثائر هوانج بشاو مدينة كانتول وأعمل فيها السلب والنهب وقتل عدداً كبيراً من التجار الأجانب. وكانت الامبراطورية الصينية في حال من الضعف بسبب هذه الثورة وامتدت الاضطرابات السياسية حتى بداية أسرة هونج عام ٩٦٠، وكانت الدولة العباسية بدورها قد دهمها التفكك والانحلال وبعد فهذه هي الآفاق العظيمة التي فتحها العصر العباسي الأول وهذا هو الدور العظيم الذي لعبوه في السياسة العالمية وتلك هي الجهود التي بذلوها في تحقيق السلام والسلم الاسلامي[٥٠].

الخاتمة

إن السياسة الخارجية في العصر العباسي الأول تحتل مكاناً بارزاً في ظل سلام إسلامي ساعد على تسرب حضاري واسع النطاق من الهند والصين وبلاد ما وراء النهر، بل ومن اليونان والغرب الأوروبي، وكان لذلك التسرب أثره الكبير في تشكيل الحضارة الاسلامية، إذ اقتبس العرب من الثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية عناصر هامة كان لها فضلها في الازدهار الذي أصابته الحضارة الاسلامية في العصر العباسي. كذلك ساعد السلام الاسلامي والاحتكاك السلمي بين المسلمين وشعوب آسيا الوسطى من جهة والشعوب المجاورة لهم في الشمال الغربي على انتشار التجارة وظهور الموانيء الاسلامية الآسيوية كالبصرة وسيراف وعدن وتكدس الأسواق الاسلامية بمتاجر الشرق والغرب[٥١].

المصادر والمراجع

(١) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي، القاهرة.

(٢) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٢. عمان ــ الأردن.

(٣) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠، القاهرة.

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوى ليبزك ج ٢.

(٦) د. حامد زيان غانم: محاض ات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.

(٧) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية (العصر العباسي)، القاهرة.

(٨) مجلة دراسات تاريخية: العدد الثاني عشر مايو ١٩٨٣، جامعة دمشق.

(٩) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصر الاسلامي، أبو ظبـي.
(١٠) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، الاسكندرية.
(١١) ابن عبدربه: العقد الفريد ج ١٠، القاهرة.
(١٢) اليعقوبـي: تاريخ اليعقوبـي ج ٣.
(١٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٤.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان.
(١٥) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي.
(١٦) المقدسي: أحسن التقاسيم.

الهوامش

(١) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦١ «دار الفكر العربـي، القاهرة».
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦٢، دار الفكر العربـي، القاهرة.
(٤) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٨٩، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٨٢م.
(٥) نفس المصدر السابق ص ١٨٩، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٨٢م.
(٦) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ١ ص ٢٨٥.
(٧) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ص ١٩٠، المطبعة الأردنية، عمان.
(٨) نفس المصدر السابق ص ١٩١.
(٩) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ٢ ص ١٥٨، ص ١٦٣.
(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠ ص ٩٤.
(١١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ليبزك ج ٢ ص ٦٢٢، القاهرة، ١٩٠٦.
(١٢) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٩٤، عمان، ١٩٨٢م.
(١٣) د. حامد زيان غانم: محاضرات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.
(١٤) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ١٣٣، القاهرة، ١٩٧٠م.
(١٥) مجلة دراسات تاريخية ص ٢٨، العدد الثاني عشر مايو ١٩٨٣م، جامعة دمشق سوريا.
(١٦) د. حامد زيان غانم: محاضرات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.
(١٧) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية من ص ١٠٤ إلى ص ١١٤، أبو ظبـي، ١٩٨٣م.
(١٨) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب «العصر العباسي الأول» ص ٢٤٠ ـــ ٢٤٥، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
(١٩) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية ص ١١٠ ـــ ١١١، أبو ظبـي، ١٩٨٣م.
(٢٠) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٩٦ ـــ ١٩٧، عمان ـــ الأردن ١٩٨٢م.
(٢١) ابن عبدربه: العقد الفريد ج ١٠ ص ٢٦١، القاهرة، ١٩٤٠.
(٢٢) اليعقوبـي: التاريخ ج ٣ ص ١٩٢.
(٢٣) نفس المصدر السابق.
(٢٤) الطبري: ج ١٠ ص ٢٨٣ تاريخ الرسل والملوك، القاهرة.
(٢٥) نفس المصدر السابق ص ٢١٤ ـــ ٢١٥.
(٢٦) اليعقوبـي: التاريخ ج ٣ ص ١٢٥.
(٢٧) نفس المصدر السابق.
(٢٨) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.
(٢٩) الطبري: ج ١٠ ص ٣٣٥.
(٣٠) العيون والحدائق ص ٤٠.
(٣١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.
(٣٢) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ١ ص ١٨٢ ـــ ١٩٣.
(٣٣) اليعقوبـي: التاريخ ج ٣ ص ٢٠١.
(٣٤) اليعقوبـي ج ٣ ص ٢٠٧.
(٣٥) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ٢٠٢، عمان، الأردن.
(٣٦) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦٢ ـــ ١٧٦، القاهرة.
(٣٧) نفس المصدر السابق.
(٣٨) المصدر السابق ص ١٦٩ ـــ ١٨٤.
(٣٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٠.
(٤٠) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٠.
(٤١) البلاذري: الفتوح ص ٤٢٨.
(٤٢) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٨٥.
(٤٣) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ـــ العصر العباسي ص ٢٠٨ ـــ ٢١٤.
(٤٤) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ١٩٧.
(٤٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٤.
(٤٦) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٩٠، القاهرة.
(٤٧) نفس المصدر السابق.
(٤٨) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٩١، القاهرة.
(٤٩) نفس المصدر السابق.
(٥٠) نفس المصدر السابق.
(٥١) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول) ص ١٦٧، القاهرة.

الطباعة والصحافة



بين الحرف والكلمة

د. أنطونيت أديب باسيلي

اللغة من أهم اختراعات الانسان، والحرف هو النتاج الفريد الذي خرج من الانسان وارتد عليه تفاعل عجيب سلبي وإيجابي من مادة واحدة وهي الانسان.

سبق واكتشف الانسان النار، وكان تفاعلاً بين الحجر والنبات، إلا أن يخترع الانسان الحرف واللغة من ذاته من أعماقه، ويصدرها بأصوات مختلفة، قد تكون مزعجة ومبهمة في بادىء الأمر، كضحكاته وبكائه، ثم يصورها برموز غامضة كأنها خربشة أطفال يستعصى فهمها، ومن ثم يهذب هذه الرموز حتى تأتي مجسدة وتصبح فيما بعد الام والمنبثق لجميع اللغات الميتة والحية. فهذا هو الاعجاز.

الحرف ورحلة الابداع

عرفت الكتابة في العالم القديم بأزمان متفاوتة، ففي وادي النيل عرفت بحدود سنة ٣٢٠٠ق. م. من خلال الوثائق المدونة على الحجر كمتون الأهرام، وكتب الموتى، ونصوص التوابيت، والأدعية والتراتيل الدينية ومن ثم من خلال المسلات وجدران المعابد والقوائم المنقوشة كحجر بالرمو، وقائمة الكرنك وقائمة أبيدوس، وقائمة سقارة والتي حملت أسماء ملوك ما قبل الأسرات، وبعض الكتابات المدونة على أوراق البردى (بردية تورين)، وقطع الفخار والألواح الحجرية، كحجر الرشيد وكلها كتبت باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية (التصويرية) والهيراطيقية (الخط الكهنوتي) والديموطيقي (الشعبي) وكل هذه الوثائق كانت عبارة عن قرارات يصدرها كهنة الفراعنة المصريين لتعداد مآثر الحكام من حروب وفتوحات وإنشاءات عمرانية واستصلاح أراضي وقهر أعداء وجمع ضرائب وتقديم نذور وهدايا وأسر خصوم، وبعضها نقش كقوانين تخص الشعب وتدير شؤونه الاجتماعية واليومية والسبب في كل هذه النقوش هو اطلاع الشعب عليها(١).

أما سومر العراق فقد عرفت الكتابة سنة ٢٨٠٠ق. م. في زمن أسرة كيش الأولى، فقد عثر على ألواح بابلية وأشورية دونت باللغة الأكدية تحكي حكايات خرافية ولكنها رمزية تدور حول مواضيع تمس الحياة اليومية للفرد، وتنشد تعليم الناس وتثقيفهم مما يحملنا على الاعتقاد بعمق مفاهيم تلك الأزمنة السحيقة، وهناك أيضاً مراثي تموز، والملاحم السومرية التي تدور حول بطولات قام بها ملوك أوروك وارتا حوالي سنة ١٨٠٠ق. م. إلا أن ملحمة جلجاميش المشهورة والتي وصلتنا كاملة غير منقوصة هي من أبدع ملاحم العالم القديم البابلي ـ الآشوري.

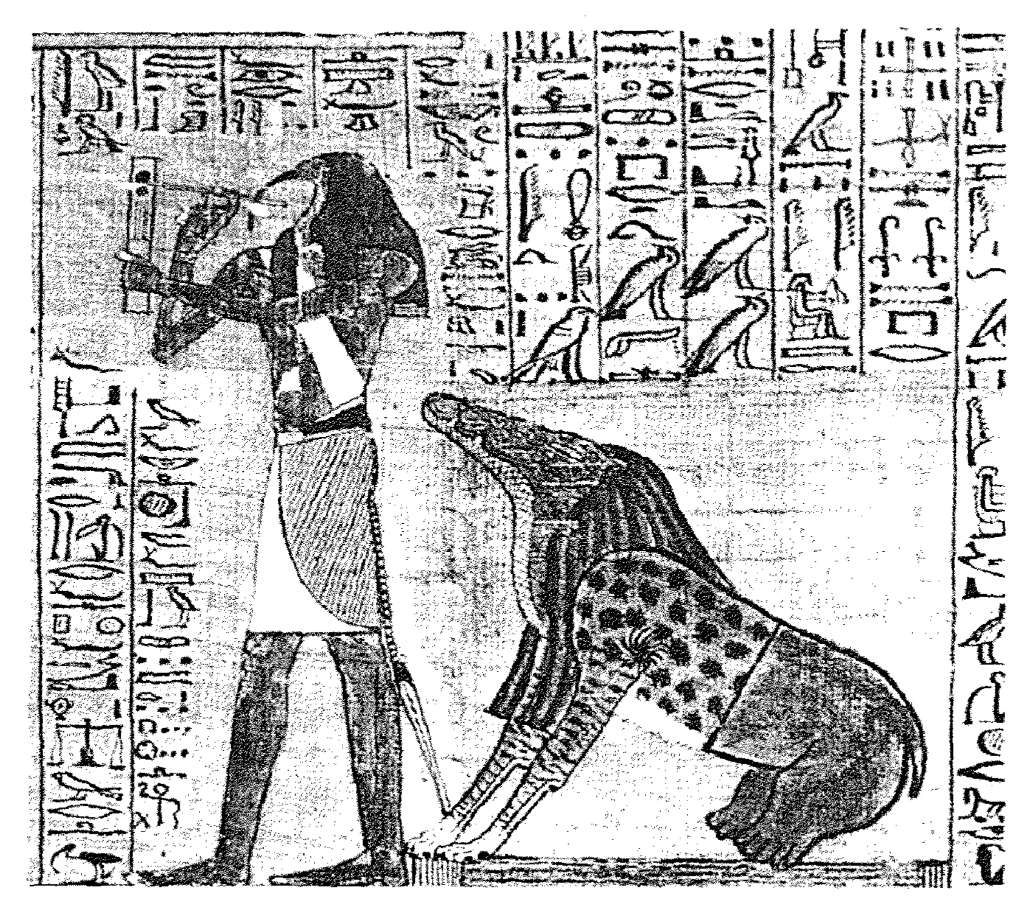
وأهم الوثائق السومرية المدونة التشريعات المعروفة حتى الآن والتي دونت لتنظيم حياة المجتمع التجارية والاجتماعية أمثال قانون أورنمو مؤسس أسرة أور الثالثة ٢٠٥٠ق.م. وهي مكتوبة على لوح من الطين المشوه، ثم قانون اشنونا ١٩٠٠ ق.م. وهو مكتوب على لوح حجري، وأعقبه قانون لبيت عشتر سنة ١٨٥٠ ق.م. الذي اكتشفت منه سبع ألواح، وهو ناقص إذ يقدر عدده بأكثر، وأخيراً قانون حمورابي ملك بابل حوالي سنة ١٧٥٠ق.م. وهو مدون على لوح من حجر الديوريت وقد محيت بعض مواده وموجود الآن في اللوفر(٢).

□ لم يستطع المصريون من طرح رموز الهجاء القديمة جانباً، على الرغم من ظهور احرف هجائية اكثر فعالية.

إلا أن هناك بعض التفاوت في مواضيعها، فقانون أورنمو رغم تشويهه وتهشيمه كان يفرض على المعتدين دفع غرامة مالية تتناسب وجسامة الجريمة، بعكس قانون حمرابي الذي حدد عقوبة المثل بين الأفراد فالعين بالعين والسن بالسن، وبالرغم من أن قانون أورنمو أقدم زمناً من قانون حمورابي إلا أنه مظهر من مظاهر مجتمع أكثر تهذيباً وتمدناً من مجتمع حمورابي.

وحاكى ملوك العراق مصر في تدوين انتصاراتهم وأعمالهم فقد دون اياناتم ملك الجيش انتصاراته الحربية على بلاد سومر في لوحة حجرية تعرف بلوحة العقبان(٣).

وخلاصة القول إن نقوش أولئك الأقوام ما كانت إلا وسيلة لإحاطة مجتمعهم بأعمالهم وبما يجري وتدوين سير حياتهم لتكون ذكرى للأجيال اللاحقة وتاريخاً لأجيالنا الحاضرة،



□ اله الكتابة ـ توث ـ يدون مقدار وزن قلب الانسان

ولم تكن إلا كصحف رسمية كالتي تصدر في يومنا هذا.

تطور الكلمة

مع تطور الزمن تهذب الحرف وتشكلت اللغات بأحرفها الهجائية فأقدم الصينيون على ترتيب الحرف وطبعه على الحجر والخشب. فكانت أقدم طرق للطباعة في العالم، ويذكر انهم نشروا سنة ٩١١ق.م. أول جريدة عرفها العالم القديم(٤).

وتبعهم قياصرة الرومان فأنشؤا سنة ٦٩١ق.م. جريدة يومية كانت تطبع على أوراق البردى ورق الغزال يقرؤها المنادى في ساحات المدن يعلن عما فيها من أوامر وإصلاحات وقرارات تصدر عن القياصرة.

ثم أصدر يوليوس قيصر في أوائل القرن الأول للميلاد صحيفة يومية سميت (Acta Duria)(٥) اعتنت بما يصدر عنه في كل يوم من قرارات تتعلق بالحرب والفتوحات والأسرى والثروات وتعبئة الجيوش والاصلاحات والضرائب.

هذه الصحف هي من أقدم ما عرف حتى اليوم وكانت مكرسة لنشر أعمال الحكومات ومنشوراتها.

اما الأعمال الأدبية ومنها سرد قصص البطولات وتأريخ حياة الأبطال وأنسابهم وما قاموا به من أعمال ورحلات والتي كانت خرافية في أكثر الأحيان. فقد جاءت على لسان الشعراء المتجولين الذين كانوا ينشدون هذه الأعمال بقالب شعري في مختلف البلدان ويحفظها الناس وينقلونها في ترحالهم. من هنا كانت أشعار هوميروس في الياذة والأوديسيا، ومعلقات الجاهلين، ومن ثم شعراء البلاط الأموي والعباسي والأندلسي الذين كانواصحافيي عصرهم ولسان أمرائهم.

مكننة الطباعة

أما الطباعة الحديثة أي تجميع الحروف المتفرقة وطبعها على الورق، فقد عرفت منذ أواسط القرن الخامس عشر ميلادي في المانيا على أثر اختراع آلة الطباعة، وكانت عبارة عن صحافة بدائية في فحواها ومضمونها ولم تتبلور وتتخذ شكلها المعروف حالياً إلا في سنة ١٥٣٦

في مدينة البندقية الايطالية إذ صدرت جريدة (Gazette) تيمناً باسم عملة معدنية كانت متداولة بين أهل البندقية. أعقبها صدور الصحف الانكليزية سنة ١٦٢٢ والفرنسية سنة ١٦٣١ حتى عمت المدن الأوروبية.

أما المشرق العربي فالصحافة لم تظهر فيه إلا بعد دخول القرن التاسع عشر، وارتبطت الصحافة العربية ارتباط وثيقاً بالطباعة، وأول مطبعة عربية بأحرف عربية ظهرت في ايطاليا بمدينة فانو، بأمر من البابا يوليوس الثاني ودشنها البابا ليون العاشر سنة ١٥١٤، وأول كتاب طبع فيها باللغة العربية سنة ١٥١٤ كان كتاب ديني ثم تلاه سفر الزبور سنة ١٥١٦ ومن ثم القرآن الكريم الذي طبع في البندقية سنة ١٥١٧ إلا أن هذه الطبعة اتلفت تحت ضغط البابوات خوفاً من تأثيرها على معتقدات النصارى(٦).

ثم أعيد طبع القرآن الكريم في اللغة الايطالية سنة ١٥٤٧ وطبع قانون ابن سينا في رومية (روما) سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخم، وكثرت المطابع العربية في أوروبا لحاجة أوروبا العصور الوسطى (المظلمة) إلى نور الشرق ليضيء ظلمتها.

وأكثر مدن أوروبا التي حوت مطابع عربية هي لندن وباريس وليبسك وليدن وغوتنجن وروما وفينا وبرلين وبطرسبرج وغيرها.

أما في الشرق فإن أسبق الأمم إلى الطباعة بأحرف عربية هم السوريون، إلا أن الاستانة كانت السباقة في هذا المضمار من حيث الفن والاتقان، فقد عرفت الطباعة مع مطلع القرن السادس عشر، وطبعت فيها التورات بالأحرف العبرية سنة ١٥٥١ ولم تستعمل مطابع الاستانة الحرف العربي إلا في مطلع القرن الثامن عشر ١٧٢٨م. ويرجع فضل نقل الطباعة العربية إلى الاستانة إلى محمد حلبي السفير، وابنه الصدر الأعظم سعيد.

واشهر مطابع الاستانة العربية كانت مطبعة الجوانب لصاحبها أحمد فارس الشدياق التي اسسها في أواسط القرن التاسع عشر وطبع عليها جريدته الشهيرة «الجوائب» إلى جانب بعض الكتب العربية المهمة.

أسلفنا، إن السوريين أسبق المشارقة إلى الطباعة بالأحرف العربية، وأسبق مدن سوريا في هذا المجال هي حلب، فقد طبع فيها كتاب طقسي كنسي باليونانية والعربية سنة ١٧٠٢، ثم طبع فيها الانجيل سنة ١٧٠٦، ويعود فضل إدخال المطبعة العربية إلى حلب لاثنان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية وهما البطريرك اثناسيوس الرابع الذي استورد أدوات المطبعة من بلاد الافرنج سنة ١٦٩٨ وإلى الشماس عبدالله زاخر الحلبي (١٦٩٨ ــ ١٧٤٨) الصانع الماهر الذي سكب الحرف العربي لهذه المطبعة(٧).

ثم ظهرت المطابع في لبنان وأقدم مطابعه مطبعة قزحيا في وادي قنوبين شمال لبنان تحت بلدة بشرى، وكانت أحرفها سريانية ومن ثم حولها رهبان الدير إلى أحرف عربية وأكثر مطبوعاتها كانت دينية وما زالت موجودة في الدير حتى يومنا هذا.

ولهذه المطبعة تاريخ منشور في مطبوعات الدير(٨) تقول:

«إن الدير اشتهر بمطبعته الأولى في الشرق كله في أوائل القرن السابع عشر ١٦١٠ وقد طبع عليها كتاب المزامير الموجود في مكتبة جامعة الروح القدس في الكسليك، وإن هذه المطبعة ضاعت حروفها بسبب الغزوات التي تعرض لها الدير عبر السنين الصعاب. •

«ولما تأسست الرهبانية اللبنانية سنة ١٦٩٥ في جبل لبنان تجددت المطبعة بالدير سنة ١٧٨٩ ثم خصص لهذه المطبعة جناح خاص بالدير سنة ١٨٢٠ واستبدل دولابها الخشبي الكبير بدولاب صغير من الحديد، واشترى رئيس الدير الأب دانيال الحدثي سنة ١٨٧١ مطبعة أخرى جديدة ظلت تعمل حتى نهاية القرن التاسع عشر ولم تزل بقاياها موجودة في الدير ومعروضة للمشاهدة».

وأسس الشماس عبدالله الزاخر المتقدم ذكره مطبعة الشوير سنة ١٧٣٣ وطبع فيها المزامير وبعض الكتب الدينية.

أما بيروت فلم تعرف الطباعة إلا في أواسط القرن الثامن عشر وأقدم مطابعها، مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس التي



□ خليل الخوري مؤسس جريدة (حديقة الأخبار).

انشئت سنة ١٧٥٣ بمجهود الشيخ نقولا يونس الجبيلي المعروف بابن عسكر[٩] وأكثر كتبها كانت في الأدب والتاريخ.

تلتها المطبعة الأميركية للمبعوثين الأميركيين التي انشئت سنة ١٨٢٢ في مالطة ثم نقلت سنة ١٨٣٤ إلى بيروت وكانت تطبع الكتب العلمية والطبية والرياضية والأدبية والدينية.

ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين التي تأسست سنة ١٨٤٨ وتعرف الآن بالمطبعة الشرقية وما تزال قائمة حتى يومنا هذا، وقد طبعت كتب في شتى المواضيع الأدبية والعلمية والدينية وكانت تشمل الحروف العربية والافرنجية واليونانية والسريانية والعبرية والأرمنية.

وفي سنة ١٨٥٧ أنشأ المرحوم خليل الخوري صاحب حديقة الأخبار مطبعته الشهيرة التي توسعت في طباعة الكتب القانونية والأدبية والتاريخية، ثم تلتها مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ لصاحبها البستاني الذي طبع فيها محيط المحيط ودائرة المعارف وصحيفته الجنان والجنة وأعقبها سنة ١٨٧٤ المطبعة الأدبية لصاحبها خليل سركيس وتعرف الآن باسم مطبعة لسان الحال، وما زالت تعمل في مجال طباعة الصحف والكتب.

تأخر دخول المطبعة إلى مصر حتى سنة ١٧٩٨ مع دخول الفرنسيين، وخرجت منها مع خروجهم سنة ١٨٠١ وظلت مصر دون مطابع حتى سنة ١٨٢١ حين استقر الأمر لمحمد علي الذي أقام المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة

١٨٢١ على انقاض مطبعة بونابرت في منطقة بولاق، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري الذي اتقن اللغة الايطالية من خلال إقامته بميلانو حيث أرسل لتعلم فن الطباعة. وعاد إلى مصر ودرب العمال على الطباعة، وقد صدر من طباعة هذه المطبعة آلاف الكتب في شتى الفروع والفنون.

إلى جانب مطبعة بولاق الأميرية (الرسمية) كان هناك قلة من المطابع الخاصة لبعض الأقباط أمثال الانباكيرس الرابع بطريرك الاقباط الذي أطلق عليها اسم مطبعة الوطن. وأنشأها سنة ١٨٦١، ثم مطبعة وادي النيل أنشأها ابو السعود أفندي سنة ١٨٦٦، ومن ثم تكاثرت المطابع في أنحاء مصر زمن الخديوي اسماعيل وعباس الثاني.

أسباب نشأة الصحافة

تعددت أسباب هذه النشأة بتعدد مسبباتها، فقد شهد العالم العربي في نهاية القرن التاسع عشر حركات ثورية مكبوتة، كانت كفيلة بإيقاظ الفكر العربي بعد ثبات طويل، وتوعيته وطنياً واجتماعياً وقومياً، فكانت أهم عواملها ما يلي:

١ ــ إحساس الشعب بالوطنية بفضل بعض رواد هذه الفكرة أمثال رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) وعلي مبارك (ــ ١٨٩٣) وحسين المرصفي (ــ ١٨٨٩) التي تمخضت عن جهود جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧) ومحمد عبدو (١٨٥٣ ــ ١٩٠٥) وغيرهم[١٠] في مصر، وعن جهود كل من بطرس البستاني (١٨١٦ ــ ١٨٨٣) وناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١) وفارس الشدياق (١٨٠٤/١٨٨٧) في لبنان الذي كان في طليعة الدول العربية في المجال الأدبي والتربية العامة بسبب وضعه الخاص الذي تمتع به في ظل السلطة العثمانية بادىء الأمر.

٢ ــ الأحداث التي شهدتها المنطقة من اضطرابات بين الحكومة العثمانية والبلدان العربية.

٣ ــ رغبة كل من السلاطين الأتراك والأمراء المحليين في الاعتماد على الصحافة الوطنية للدفاع عنهم ضد بعضهم وضد الأجانب



□ بطرس البستاني.

المقيمين في مصر وسوريا ولبنان الذين كانوا يمثلون سفارات بلادهم بأفكارها ومبادئها وسياستها ضد الدول العربية.

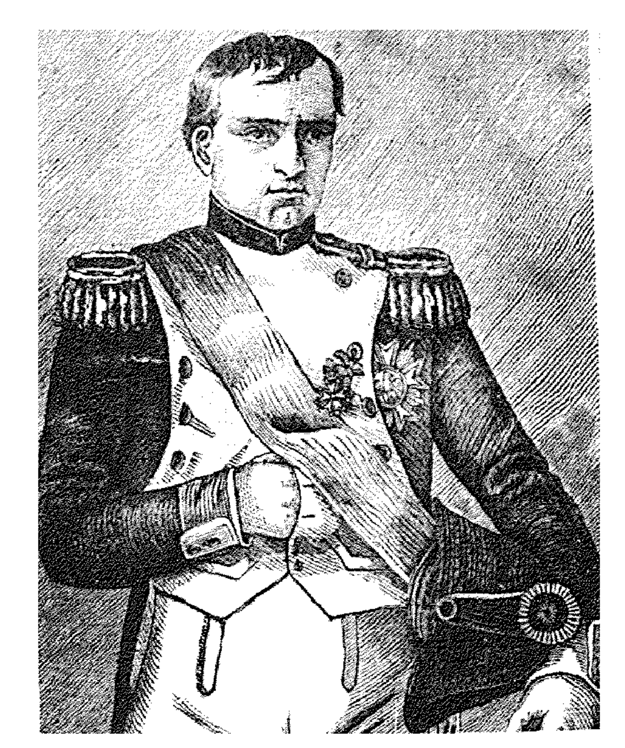
٤ ــ اهتمام الشعوب العربية بالسياسة الدولية وحب معرفة ما يجري من دسائس دولية.

٥ ــ كثرة المثقفين في الدول العربية مما شجع عندهم انتقاد سياسة أمرائهم وسلاطينهم، ومحاسبتهم من خلال الصحافة وتعريتهم أمام الناس لمعرفة حقيقتهم بدعم من السفارات الأجنبية.

٦ ــ ضغط الدولة العثمانية على العناصر المثقفة واضطهادهم بسبب توعية الشعب، وبثهم للنهضة الفكرية بين الشباب، مما أدى إلى هجرتهم وتوزعهم في الأقطار العربية وخصوصاً مصر.

رحلة الصحافة في الوطن العربي

يبدو ان مصر بعد أن وضعت أساس الصحافة العربية استراحت فترة من الزمن ما بين سنة ١٨٤٩ ــ ١٩٦٣، وما وصلنا من أسماء جرائد قبل هذه الفترة فهو صغير جداً وهي:



□ نابوليون الأول.

١ ــ الوقائع المصرية انشئت سنة ١٩٢٨ على يد محمد علي حاكم مصر، وكانت تصدر بالتركية ثم بالعربية والتركية واستقرت أخيراً بالعربية، تولى تحريرها نخبة من الأدباء في فترة النهضة أمثال الشيخ حسن العطار (ــ ١٨٣٤) وأحمد فارس الشدياق. الشيخ أحمد عبدالرحيم، الشيخ محمد عبدو، الشيخ عبدالكريم سلمان. ثم تولى رئاسة تحريرها سنة ١٨٣٥ رفاعة الطهطاوي وأصبحت تعرف بالوقائع الرسمية.

٢ ــ جريدة التنبيه لصاحبها إسماعيل الخشاب (ــ ١٩١٢).

٣ ــ جريدة السفينة لصاحبها شهاب الدين.

وتحولت مهمة الصحافة في تلك الأثناء إلى سوريا الطبيعية التي أتمت عمل شقيقتها مصر في هذا المجال.

الصحافة في سوريا ولبنان

بدأت الصحافة بالمعنى المفهوم في سوريا ولبنان بحدود سنة ١٨٥٠ لتفاعل الحدث مع الزمان والمكان، فقد تسارعت أحداث المنطقة من حرب باردة بين تركية / روسيا إلى حرب ساخنة عرفت بحرب القرم وسيطر الخوف على شعوب المنطقة التي بات خبزها اليومي استقصاء أخبار ما يدور في الساحة، ومن حولها وصادف خلو الساحة العربية وخصوصاً مصر من الصحافة التي تشبع نهم الناس فانبرى جماعة من المثقفين يتولى هذا العمل ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ــ جريدة **مرآة الزمان** لصاحبها رزق الله حسون الحلبي الذي أصدرها سنة ١٨٥٥ عقب حرب القرم. وكانت شديدة اللهجة ضد تركية مما أدى إلى تعقب صاحبها، الذي فر إلى روسيا وانتهت الجريدة بعد سنة من ولادتها.

٢ ــ جريدة **حديقة الأخبار** لصاحبها خليل الخوري الذي أسسها سنة ١٨٥٨ والتي عرفت في البدء باسم (الفجر المنير) وهي أول صحيفة صدرت خارج الاستانة، فقد أصدرها في الشويفات لبنان وبقيت تصدر حتى بعد وفاة صاحبها سنة ١٩٠٧ لسنتين أخريين[١١].

٣ ــ **عطارد وبرجيس** تأسستا سنة ١٨٥٨، الأولى صدرت في مرسيليا ولم يطل بقاؤها، والثانية في باريس وأصدرها الكونت رشيد الدحداح اللبناني (ــ ١٨٨٩) ثم عهد بأمرها إلى سليمان الجزائري التونسي، وقد توقفت في سنتها الخامسة.

٤ ــ **الجوائب** صدرت سنة ١٨٦٠ بالاستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق واستمرت بالصدور حتى سنة ١٨٨٤.

شهدت سنة ١٨٦٠ نهضة صحفية عظيمة وأعقبها في السنين التالية نوع من الصحافة الرسمية اهتم بها المتصرفون والحكام الرسميون في الشرق والمغرب العربي ومنها:

١ ــ جريدة **الرائد التونسي**، صدرت سنة ١٨٦٠ في تونس وكانت رسمية تصدر المناشير والقوانين.

٢ ــ جريدة **سوريا**، صدرت سنة ١٨٦٥ في دمشق وسنة ١٨٦٧ في حلب لجودت باشا حاكم سوريا.

٣ ــ جريدة **لبنان الرسمية**، أصدرها متصرف لبنان داوود باشا سنة ١٨٦٧ في بيروت.

٤ ــ جريدة **الزوراء**، أصدرها مدحت باشا سنة ١٨٦٨ في بغداد.

وكانت لسنة ١٨٦٨ نشاطات أدبية واجتماعية واسعة، إذ تأسست الجمعية العلمية السورية على يد أدباء من كل الطوائف منهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي وحسين بيهم ومحمد أمين أرسلان وكانت لهذه الجمعية اهتمامات أخرى سياسية وقومية عربية فأصدروا مجلة شهرية باسم «مجموعة العلوم» وكان لها امتدادات خارج لبنان[١٢].

جاءت سنة ١٨٧٠ الغنية بالصحف السياسية والعلمية والأدبية والدينية، فقد توسعت أبواب الصحافة وامتدت إلى فروع جديدة من المعرفة كان لها أربابها ومن مثالها:

١ ــ مجلة **الزهرة** لصاحبها يوسف الشلفوني (ــ ١٨٩٦) اهتمت بالأدب والاجتماعيات.

٢ ــ مجلة **البشير** للآباء اليسوعيين اهتمت بالعلوم والفنون الأدبية.

٣ ــ مجلة **الجنة** لصاحبها بطرس البستاني.

٤ ــ مجلة **الجنان** لصاحبها بطرس البستاني وقد اعتنت بالشؤون السياسية والعلمية والأدبية وكانت تصدر مرتين في الشهر.

٥ ــ **نفير سوريا** لصاحبها بطرس البستاني صاحب جريدتي الجنة والجنان وقاموس المحيط وموسوعة دائرة المعارف المشهورة.

٦ ــ **النحلة** لصاحبها لويس الصابونجي. وكانت متنوعة المواضيع كعمل النحلة من كل وادي زهرة.

وسنة ١٨٦١ صدر للصحفي اللبناني الشهير خليل الخوري صاحب جريدة **حديقة الأخبار** كتابه المشهور عن خرائب سوريا وموضوعه **الآثار القديمة في البلاد** والذي نال شهرة كبيرة.

أما في سنة ١٨٧١ فقد صدرت كل من:

١ ــ كوكب الصبح المنير ــ للأمريكيين.

٢ ــ الجنينة ــ بطرس البستاني.

٣ ــ النجاح ــ لويس الصابونجي ويوسف شلفوني (ــ ١٨٩٦).

تذوق يوسف الشلفوني العمل الصحفي فأصدر سنة ١٨٧٤ **جريدة التقدم** التي عاشت حيناً وتلتها سنة ١٨٧٧ جريدة **لسان الحال** لصاحبها خليل سركيس ثم أعقبها سنة ١٨٨٠



□ محمد علي باشا.

جريدة **المصباح** لصاحبها نقولا النقاش التي تعطلت سنة ١٩٠٨.

وفي سنة ١٨٨٥ صدرت في بيروت جريدة إسلامية اعتنت بالشؤون الدينية وهي **ثمرات الفنون** لصاحبها الحاج سعدالدين حمادة وكان رئيس تحريرها عبدالقادر القباني[١٣].

سنة ١٨٦٣ استعادت مصر عافيتها وصحافتها وعادت لتأخذ مكانها الطبيعي في مجريات الأمور وتتصدر الأحداث، فأصدرت سنة ١٨٦٥ جريدة **اليعسوب** لصاحبها محمد علي باشا الحكيم، وإبراهيم الدسوقي، وكانت مجلة طبية لم تعش طويلاً، ولكنها أول مجلة أو صحيفة نشرت بعد توقف الوقائع المصرية، ثم أصدرت في سنة ١٨٦٦ صحيفة **وادي النيل** لصاحبها أبو السعود أفندي التي توقفت سنة ١٨٨٧ بوفاة صاحبها، وتلتها سنة ١٨٦٩ جريدة **نزهة الأفكار** لصاحبها إبراهيم المويلحي (ــ ١٩٠٦) ومحمد عثمان جلال (ــ ١٨٩٨).

واشترك نخبة من أدباء مصر أمثال عبدالله فكري إسماعيل الفلكي وبدرالحكيم وعلي مبارك ورفاعة الطهطاوي بتحرير مجلة **روضة المدارس**

مصر سنة ١٨٧٠ والتي اعتنت بالتربية والتعليم بمصر وبتطوير وتحديث هذا المجال.

وتتابع صدور الصحف والمجلات في مصر، ففي سنة ١٨٧٧ صدرت صحيفة **الوطن** لصاحبها مخائيل عبدالسيد القبطي ثم توقفت وأعيد ظهورها سنة ١٩٠٠ بسبب بيع مؤسسها امتيازه لصاحبها الجديد جندي إبراهيم.



□ الشيخ محمد عبده.

مساهمة اللبنانيين في صحافة مصر

أمام ضغط الدولة العثمانية على العناصر المثقفة في لبنان، هاجرت هذه الأقلام إلى الأقطار الأخرى، فكان نصيب مصر من هجرة هذه العناصر حصة الأسد، لملائمة جوها السياسي طبيعة الحرية والاستقرار الذي ينشده هؤلاء المثقفون.

وبدأت مساهمتهم في صحافة مصر مع أول فلولهم وفي مدينة الاسكندرية بالذات حيث توجد أكبر جالية لبنانية وأجنبية.

فأصدر سليم الحموي السوري المولد المصري المنشأ بالاسكندرية سنة ١٨٧٣ جريدته **كوكب الشرق** وألحقها بجريدة **الفلاح** سنة ١٩٠٧ وهي جريدة سياسية وأدبية[١٤] ثم تلاه كل من سليم (ـ ١٨٩٢) وبشارة تقلا (ـ ١٩٠١) وأصدرا سنة ١٨٧٥ جريدة **الأهرام** والتي ما زالت باقية حتى يومنا هذا، وكانت تصدر أسبوعياً بالاسكندرية ثم نقلاها إلى القاهرة، ولم تدخل في مجال السياسة إلا أثناء حرب المسألة الشرقية، إذ كانت في بادىء الأمر أدبية[١٥].

ثم صدر في عقب ذلك سنة ١٨٧٧ جريدة أسبوعية سياسية اسمها **الوطن** لصاحبها مخائيل عبدالسيد الذي تحدث فيها عن الحرب الروسية / التركية، وهاجم بعض الوزراء الأوروبيين ودافع عن بعض النواب المصريين في مجلس شورى النواب[١٦].

في نفس السنة ١٨٧٧ أنشأ كل من أديب إسحاق (ـ ١٨٨٥) وسليم النقاش (ـ ١٨٨٤) جريدة سياسية أسبوعية اسمها **مصر**، كانت تنتقد الحكومة واعتمادها على الأجانب بتحريض من جمال الدين الأفغاني الذي كان يمدها بكثير من المقالات السياسية، ثم اشتراها تادروس شنودة المنقبادي القبطي وأصدرها مجدداً بنفس الاسم «**مصر**» سنة ١٨٩٥.

إلا أن كثرة الهموم دفعت ببعض الصحفيين لانتهاج منهج الهزل والتنكيت بقصد تنفيس عما بالناس من هموم، فأسرع يعقوب صنوع بإصدار جريدته الهزلية **أبو نظارة زرقاء** سنة ١٨٧٧، حدد فيها الظلم الذي يعانيه الناس في أيام اسماعيل وهاجم فيها بأسلوب ساخر كاريكتوري الوزراء والنواب وموضة التفرنج التي أخذت بالظهور في تلك الآونة، فنفاه الخديوي إسماعيل من مصر، فسافر إلى باريس واستأنف إصدار جريدته بأسماء أخرى مختلفة.

وعاد كل من أديب إسحاق وسليم نقاش سنة ١٨٧٩ وأصدرا جريدة **المحروسة** بالاسكندرية وكانت تعني بالاجتماعيات.

وعندما خلت ساحة مصر / الاسكندرية من الصحافة الفكاهية التي أحبها الشعب بجميع فئاته، انبرى عبدالله النديم سنة ١٨٨١ وأصدر صحيفته المشهورة الذي أطلق عليها اسم ينم عن محتوياتها وهو **التنكيت والتبكيت**، بأسلوب رائع وهو مزيج من الفصحى والعامية لتدخل جميع البيوت وليقرأها الناس كافة وعلى أثرها نال شهرة واسعة حتى سمي بصحافي القرن التاسع عشر.

من خلال اسم الجريدة نستنتج انها كانت تعنى بإصلاح إخاء المجتمع بأسلوب ساخر ناقم على الأوضاع ومن ثم تأنيب المجتمع ذاته على

عيوبه وتقليده الأعمى للغرب بكل عيوبه.

ومن مشهور سخريته للمجتمع بأسلوب زجلي قوله:

أهـل البـنـوكـا والأطيـان
صـادروا عـلى الأعيـان أعيـان
وابـن البـلد مـاشى عـريـان
معـمـعـاه ولا حـق دخـان
شرم برم حالي غلبان

وانتقد بعض من قلد الغرب في لباسهم وقيافتهم بقوله:

الحـق عـنـدك يـأخـويـه
يـالي طليـت وشـك بـويـه
ولبـسـت سـروال أبـو أويـه
ومـشـيـت تـقـلدلي النـسـوان
شرم برم حالي غلبان

ثم انتقل عبدالله النديم إلى القاهرة، فغير اسم جريدته الأولى **التنكيت والتبكيت** باسم **الطائف** وأخرجها في ثوب جديد تركز انتقاد الخديوي توفيق وسياسته والدفاع عن الفلاح المصري وشرح حالته المضنية وما يتعرض له من تعذيب وقسوة في تحصيل الضرائب منه، وما يعانيه وعائلته من قلة الغذاء وشظف العيش مما ساعد على نمو وتوعية الرأي العام وعلى قيام الحركة العرابية وبلورة فكرة (مصر للمصريين) فنفاه الخديوي توفيق إلى يافا في فلسطين، وعندما عفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني عاد النديم إلى مصر سنة ١٨٩٢ وأنشأ مجلة أسبوعية سماها **الأستاذ** وكانت سياسية ذات أهداف إصلاحية وقومية، فلقد عاد ثائراً أكثر من ثورته الأولى، ونفى للمرة الثانية إلى اسطنبول وظل بها حتى وفاته في عام ١٨٩٦[١٧].

تبلورت الأفكار السياسية في سنة ١٨٨٣، فـأسس كل من يعقـوب صـروف (١٨٥٢ ــ ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٦٠ ــ ١٩٥٢) مجلة **المقتطف** التي صدرت في الأساس في بيروت ثم نقلت إلى مصر فيما بعد مع انتقالهم إليها.

وبما أن جو مصر لائم طبيعة صروف ونمر الأدبية فقد تعاونا مجدداً وأصدرا سنة ١٨٨٩ جريدة **المقطم** التي نافست الأهرام طويلاً[١٨].

وتحت الضغط الحميدي على الأحرار الوطنيين لجأ هؤلاء إلى الدول الأوروبية وإلى مصر تهرباً



□ أحمد جودت باشا.

من الاستبداد التركي وخنق حرياتهم، وأنشؤا بالخارج جرائد ومجلات حاربوا من خلالها وعلى صفحاتها الدولة العثمانية وجاسوستها المخربة وتعصبها الأعمى وهم:

١ ــ خليل غانم ــ مسيحي من بيـروت ونائب في مجلس المبعوثان أنشأ في فرنسا جريدة «**تـركيا الفتـاة**» (La Jeune Turquie) سنة ١٨٨٩.

٢ ــ أحمد رضا (١٨٥٩ ــ ١٩٣٠) الذي ترك منصبه كمدير للتعليم في بروسه وذهب إلى باريس سنة ١٨٨٩ وانضم إلى رفاقه الأحرار وأصدر سنة ١٨٩٥ جريدة «**المشـورة**» التي تغيـرت إلى اسم **اتحاد وتـرقي**، وهربت هـذه الجريدة إلى داخل الامبراطورية التركية.

٣ ــ مراد بك ــ مدرس التاريخ في الكلية المدنية في اسـطنبول هـرب إلى مصر وأصدر جريدته الميزان التي هربت بدورها إلى اسطنبول.

وكـل هذه الجـرائـد كـانت تهـاجم الحكم الحميدي وتطالب بإعادة دستور سنة ١٨٧٦.

ومـا أن أقبلت سنة ١٨٩٢ حتى شهـدت الصحافة نهضة ثقافية متميزة في الكم والكيف

فقد قدمت فلول جديدة إلى مصر أمثال المؤرخ والأديب الكبير جرجي زيدان (١٨٦١/١٩٢٢) الذي أصدر مجلة **الهلال**، ولحقه في النزوح الصحفي اللبناني الشهير فرح انطون (١٨٧٤ ــ ١٩٢٢) قادماً من طرابلس ــ لبنان وعمل على تحرير مجلة **الجامعة** الشهيرة في زمانه. ومن ثم نقلها إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٠٧ بعد أن أصدر منها في مصر سبعة مجلدات[١٩].

ومن أشهر ما صدر من جرائد ومجلات في سنة ١٨١٢ ما يلي:

١ ــ الهلال ــ جرجي زيدان.
٢ ــ الأستاذ ــ عبدالله النديم.
٣ ــ الفتى ــ اسكندر شلهوب.
٤ ــ الفتاة ــ هند نوفل ــ مدام دبانة ــ وكانت من أوائل الصحف التي اهتمت بشؤون المرأة في تلك الفترة، وقد ساهم والدها نسيم عبدالله نوفل بإصدارها للمجلة.
٥ ــ المهندس ــ رياضية.
٦ ــ المنظوم ــ شعرية.
٧ ــ الشرائع ــ قضائية.

واستمرت أكثر هذه الصحف والمجلات بالظهور والرواج في المحيط العربي حتى مطلع القرن العشرين حيث أخذت بالظهور مجلات جديدة محلية اهتمت بشؤون الساعة السياسية والأدبية والاجتماعية وأصبحت مهنة الصحافة تستهوي كل صاحب فكرة وقلم في البلاد العربية بفضل مساعدة الحكومة المصرية المادية لأصحاب الصحف ولولا ذلك لما قامت لهم قائمة، وبسبب تساهل غورست الحاكم الانجليزي بمصر مع الأقلام الحاقدة على الدولة العثمانية، فانتعشت الصحافة وحرية الكلمة ولو ان اعتقادي أن بعض تلك الصحف لم تكن حرة بالمعنى الحقيقي لتعاونها مع سفارات عربية كانت مصلحتها تقضي بتدمير الدولة العثمانية.

وأهم ما صدر من صحف ومجلات خلال فترة ١٩٠٠ ــ ١٩١٥ ما يلي[٢٠]:

١ ــ مجلة **الآثار الغراء** ــ لصاحبها المؤرخ عيسى اسكندر معلوف (١٨٦٩ ــ).

٢ ــ مجلة **المباحث** ــ لصاحبها جرجي وصموئيل أولاد انطونيوس يني أصدراها سنة ١٩٠٨ في طرابلس ــ لبنان واستمرت بالصدور لما بعد عام ١٩٢٧.

٣ ــ **مجلة الكوثر** ــ لصاحبها بشير رمضان من بيروت.

٤ ــ **مجلة المنار** ــ لصاحبها رشيد بن علي رضا.

٥ ــ **مجلة البلاغ** ــ صاحبها عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ــ ١٩٦٣) أصدرها في مصر.

٦ ــ **جريدة الهدية** ــ لصاحبها الشماس غريغوريوس حداد (١٨٥٩ ــ ١٩٢٢) الذي انتخب مطراناً سنة ١٨٩٠ ومن ثم ارتقى إلى سدة البطريركية الأنطاكية سنة ١٩٠٧.

٧ ــ **مجلة الثمرة** ــ لصاحبها أنطونيو منصور أصدرها بالاسكندرية.

٨ ــ **مجلة البيان ومجلة الضياء** ــ لصاحبهما الشيخ إبراهيم ناصيف اليازجي (١٨٥١ ــ ١٩٠٦) الذي حل مكان أبيه في المجال الصحفي والأدبي.

٩ ــ جريدة **حقيقة الأخبار** ــ لمؤسسها أنيس إبراهيم خلاط وهي جريدة سياسية وأدبية أصدرها في مصر.

١٠ ــ جريدة **الجريدة** ــ لصاحبها أحمد لطفي السيد الذي أسسها سنة ١٩٠٧ واستمرت بالصدور لغاية سنة ١٩١٤ حيث قامت الحرب العالمية الأولى.

١١ ــ جريدة **جراب الكردي** ــ لصاحبها انطون بن انسطاس زريق، فقد أصدرها في بادىء الأمر بالولايات المتحدة وكانت تصدر مرتين في الأسبوع ومن ثم أصبحت يومية، ونقلها إلى بيروت وأبدل اسمها إلى جريدة **الارتقاء**، وكانت تعني بالشؤون السياسية وتوقفت عن الصدور سنة ١٩١٥ بسبب إعدام صاحبها وشقيقه توفيق في دمشق بتاريخ ١٢ أيلول ١٩١٥.

١٢ ــ جريدة **الأخبار اليومية**، اشتراها أمين عبداللطيف الرافعي الطرابلسي سنة ١٩٠٧ من الشيخ يوسف الخازن النائب في المجلس النيابي وكانت جريدة يومية أدبية وسياسية.

١٣ ـ جريدة **طرابلس** ـ لصاحبها كامل البحيري أنشئها سنة ١٩٠٧ وكان رئيس تحريرها الشيخ حسين الجسر. بدأت موالية للدولة الحميدية العثمانية وانتهت معادية لها، توفي صاحبها كامل البحيري سنة ١٩١٧ واستأنف صهره الأمير أسعد الأيوبي إصدارها بأسماء أخرى مثل صدى الشعب ثم الديك(*).

١٤ ـ جريدة **الصباح الممتاز** ـ لصاحبها المحامي سليم غنطوس (١٨٨٧/١٩٧١) من بلدة أميون الكورة الواقعة في منطقة لبنان الشمالي أصدرها في طرابلس وظلت تصدر فترة من الزمن.

١٥ ـ جريدة **زحلة الفتاة** ـ لصاحبها إبراهيم الراعي أسسها في ٣ كانون الأول سنة ١٩١٠ وكانت سياسية فكاهية(**).

وهناك عدد من الجرائد التي ظهرت في تلك الفترة لم نتوصل إلى أسماء أصحابها وهي:

١ ـ جريدة **السرور** المصرية.

٢ ـ جريدة **المؤيد** المصرية ـ لصاحبها الشيخ علي يوسف (كتاب رقم ٨٠ من سلسلة عالم المعرفة ـ ص ١٨٢ الكويت ١٩٨٤).

٣ ـ جريدتي **المنار والمحبة** البيروتيتين.

٤ ـ مجلة **السيدات والرجال** بيروتية ـ صاحبتها روز انطون حداد زوجة الكاتب المعروف نقولا حداد وشقيقة الصحفي المعروف فرح انطون أنشأتها قبل عام ١٩٢٢ (سميح الزين ـ تاريخ طرابلس ـ ص ٤٦٩).

الخلاصة

في نهاية المطاف لا يسعنا إلا أن نبين الأسباب التي دفعت بعجلة الصحافة العربية وبوأتها هذه الصدارة حتى باتت تعرف عند البعض بالسلطة الرابعة وعند البعض الآخر بصاحبة الجلالة وهي:

١ ـ احتكاك الشبان العرب بالأوروبيين من خلال البعثات الدراسية التي أرسلت إلى الخارج، واطلاعهم على الأدب الفرنسي والانكليزي والنظم السياسية السائدة هناك.

٢ ـ دور المثقفين الذين قاموا بدور فعال في توعية الشعب وطنياً واجتماعياً وجعلوه يناقش الأوضاع القائمة ويفهم المرامي السياسية



□ **عباس محمود العقاد محرر (جريدة البلاغ).**

وألعابها ويفاضل بين العرض العثماني والخلافة الاسلامية.

٣ ـ تتابع الأحداث الدولية ما بين سنة ١٨٥٥ ـ ١٩١٤ من حروب وثورات بين الدولة التركية وجيرانها من جهة وبينها وبين رعاياها من جهة أخرى.

٤ ـ اضطهاد الدولة العثمانية للشباب المثقف وكبت حريته واعتقاله مما أدى إلى فراره خارج نطاقها حيث مارس بحرية طرح آرائه ومشاكله ووصف معالجتها

٥ ـ تحسن كبير في الانشاء الصحافي وتطوره من العبارة الركيكة المخلوطة باللكنة التركية إلى الرشاقة والطلاوة العصرية.

٦ ـ هجرة المفكرين والمثقفين اللبنانيين الذين غذوا الصحافة في مصر والبلاد الأخرى بما حملوه معهم من ثقافة متعددة المصادر ولغات متقنة وأقلام جريئة.

٧ ـ المساعدة المادية التي قدمتها الحكومة المصرية للصحف من كل وجهة ثمناً للدفاع عنها وتبرير تصرفاتها ضد كل منتقد، ولولا ذلك لما قامت لهذه الصحافة قائمة.

٨ ــ تساهل المعتمد البريطاني في مصر «غورست ــ Gorst» مع الأقلام القادمة إلى مصر من سوريين ولبنانيين والتي تهاجم الدولة العثمانية الاسلامية وتنتقد سياستها العدائية ضد الأوروبيين، فكان هذا التساهل هو الثمن الذي دفع لبعض هؤلاء الصحفيين من قبل السفارات الأجنبية لتحطيم معنويات الدولة العثمانية وإثارة النعرات والثورات ضدها.

٩ ــ وجود بعض العناصر المخلصة لعروبتها وقوميتها في المجال الصحفي والذين رفضوا إسخاء السفارات وانتقدوا سياسة الدولة العثمانية، وبذخ وترف الأمراء المحليين والخديوات وطالبوا بحقوق الشعب.

وهناك ملاحظة لا بد من الاشارة إليها، هي أن معظم مؤسسي هذه الجرائد والمجلات كانوا من المسيحيين الذي اضطهدوا من قبل الدولة العثمانية والذين كانوا من الرواد الداعيين للقومية العربية. وللتحرر من الاستعمار بكل أشكاله وصوره وكان لهؤلاء المناضلين شرف الاستشهاد في بيروت ودمشق جنباً إلى جنب مع رفاقهم المسلمين.

●

الهوامش

(١) د. عبداللطيف علي ــ حضارة الشرق الأدنى القديم ــ ص ١٥٠ ــ ١٢٦ ــ ١٤٤ ــ ١٤٥.
(٢) د. عبداللطيف علي ــ تاريخ الشرق الأدنى القديم ــ ص ١٢٥ و ١٣١ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٥ و ١٤٨.
(٣) المرجع نفسه ــ ص ١٤٥.
(٤) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤٤١.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤١١.
(٧) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤٠٥.
(٨) دليل الزائر إلى دير مارانطونيوس قزحيا ــ ص ١٣ و ١٤.
(٩) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤٠٦.
(١٠) د. عمر عبدالعزيز عمر ــ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ــ ص ١٩٠.
(١١) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤١٤.
(١٢) عبدالله نوفل ــ تراجم علماء طرابلس ــ ص ٢٢٩.
(١٣) د. عمر عبدالعزيز عمر ــ تاريخ لبنان الحديث ــ ص ١٤٩.
(١٤) عبدالله نوفل ــ تراجم علماء طرابلس ــ ص ١٩٢.
(١٥) جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ــ ص ٤٢.
(١٦) د. عمر عبدالعزيز عمر ــ تاريخ العرب الحديث المعاصر ــ ص ٢٩١.
(١٧) د. عمر عبدالعزيز عمر ــ تاريخ العرب الحديث المعاصر، ص ٢٩٣.
(١٨) د. عمر عبدالعزيز عمر ــ تاريخ لبنان الحديث ــ ص ١٥٣.
(١٩) عبدالله نوفل ــ تراجم علماء طرابلس ــ ص ٢٢٨.
(٢٠) عبدالله نوفل ــ تراجم علماء طرابلس ــ ص ٢٢ و ٣٨ و ٥٧ و ٤٦ و ٨٦ و ٢٢٨ و ١٣٤ و ١٤١.

(*) المرجع ــ سميح الزين ــ تاريخ طرابلس ــ ص ٤٦٧ و ٤٧٧ و ٤٧٨.
(**) المرجع: مجلة النهار العربي والدولي ــ عدد ٤٠٦ ــ ص ٥٨ ــ بيروت في ١١/٢/١٩٨٥.



«إنني لا أعرف الرجل الكريم حقاً إلا بخصلة واحدة، هي أن يتجنب فيما بينه وبين الناس من صلة، ما من شأنه أن يخزيه امام نفسه.. فالرجل الذي لا يخزى امام نفسه خليق الا يخزى امام الناس، والرجل الذي يكره أن يستحي أمام ضميره حين يجنه الليل ويسكن من حوله كل شيء خليق أن يتجنب ما يضطره إلى أن يستحي من الناس».

طه حسين

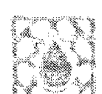
مخطوطة الدرّة الثمينة في أخبار مكّة والمدينة

تأليف : الشيخ عبد المحمود نور الدائم   عرض وتقديم : يحيى ابراهيم

ذخر الأدب العربي بمؤلفات في الرحلات في كل العصور. وهي تعتبر مصادر لها أهميتها في الكتابة التاريخية، لأنها تتفرد بتسجيل دقائق الأمور عن حياة المجتمعات التي كتبوا عنها، وقد كان نصيب بلادنا من مؤلفات هؤلاء يشكل قدراً كبيراً وخاصة في العصور الوسطى بينما نلحظ أن السودانيين لم يلعبوا دوراً كبيراً في نقل أحوال المجتمعات الاسلامية وغيرها بل اقتصر التأليف عندهم في علوم العربية والحديث والتفسير وعلوم القصة والكلام والعقيدة والتجويد مع الاكثار في التصوف وكذلك كتبوا القليل في التراجم.

ويبدو أن هذا، أعني عدم الكتابة عن الأمم الأخرى مشاهد الآن مع الفارق حيث ظهرت بعض المؤلفات التي تناولت حياة المجتمعات الأخرى بأقلام سودانية، وإن كان ما ألف منها لا يصل من حيث الكم إلى ما يصدر في البلدان العربية مثلاً، ولعل مرجع ذلك قديماً إلى طبيعة المجتمع السوداني وغلبة التصوف عليه والذي أخذ جانباً كبيراً من تفكير العلماء وصعوبة المواصلات وعدم متابعتهم ما يُنشر خارج البلاد. وأمام هذا الجدب فإن العثور على كتاب في الرحلات يعد بمثابة العثور على كنز ثمين في قاع بحر بعد كبير عناء.

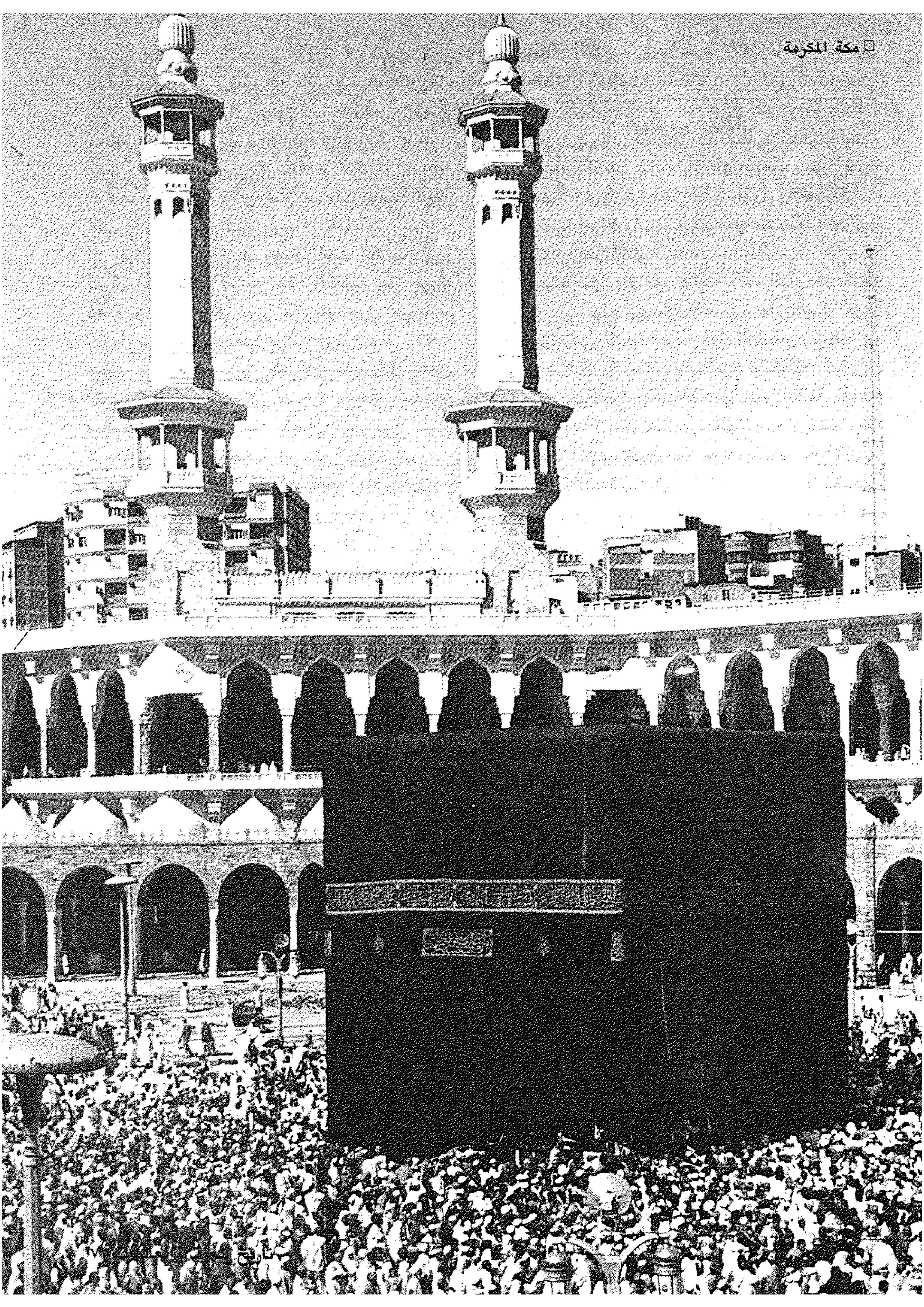
أثر الحجاز



يعتبر الحجاز أحد روافد الفكر السوداني، فمن الحجاز وفد الكثير من العلماء ونشروا التصوف والعلوم العربية، وتتلمذ بعض علماء السودان على علماء الحجاز، بجانب أن مكة مهبط الوحي وأرض الرسول، ومقصد المسلمين من كل صوب وفج. وزيارة الكعبة احدى الأركان الرئيسية في الاسلام.

والطريقة السمانية التي ينتمي إليها المؤلف ادخلها القطب الكبير أحمد الطيب البشير في بلادنا بعد أن درسها في المدينة على يد الشيخ محمد عبدالكريم السماني وبعد أن التقى بعلماء مكة وتتلمذ عليهم، ثم تنقل إلى المدينة ليلتقي بشيخه وأستاذه مؤسس السمانية، ولعل ما سردناه من ارتباط السمانية بمكة والمدينة يفسر لنا اهتمام الشيخ بتأليف كتاب في الرحلات عن هذه البلاد.

والحق أن المسلمين كانوا ولا زالوا يتطلعون شوقاً إلى زيارة قبر الرسول، وفي سبيلها تحملوا مشاق الطريق في وقت لم تكن وسائل المواصلات قد تيسرت بعد. وقد وصف الكثيرون منهم ما شاهدوه في مؤلفاتهم، ولا يستبعد أن يكون



مكة المكرمة.

الشيخ قد وقف على بعضها، قبل أن يكتب كتابه هذا، بينما كان بقية العلماء والصالحين من بلادنا الذين زاروا الحجاز عندماعادوا اكتفوا بحفظ انطباعاتهم في ذاكرتهم، والحديث عنها في بعض المناسبات دون أن يتعدى ذلك إلى تدوينه كما فعل الشيخ الذي قدم خدمات جليلة للفكر السوداني بتأليفه هذه الرحلة الثمينة.

وقبل أن نشرع في وصف هذا الكتاب القيم نسأل: هل كتب الشيخ هذا الكتاب بعد عودته دفعة واحدة؟ وهل دون ما شاهده في حينه أم كتبها من ذاكرته بعد عودته؟ وهل جاء الكتاب مجرد ملاحظات دونها كما هو الشأن في بعض كتب الرحلات، أم كان صورة دقيقة، مدعمة بالبحث والتنقيب كما يفعل السائح الذي لا يكتفي بالنقل المجرد.

يبدو لي أن الشيخ كتب هذا بعد عودته، ورجع إلى بعض المؤلفات عن مكة والمدينة وقرأ آراء العلماء في الحج وأحكامه وشروطه لأن الكتاب حوى الكثير من آراء العلماء وأقوالهم وكتبهم، وهو مدعم بالنصوص مما يوحى إلى أنه استعان بهذه المصادر في التأليف ونقل منها واستشهد، ببعضها وهذا لايثير له أثناء رحلته، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون قد سجل بعض ملاحظاته سواء عند بدء الرحلة أو وهو في مكة والمدينة.

والشيخ عبدالمحمود نورالدائم مؤلف هذه الرحلة أديب وعالم، ولغوي له دور واضح في تطوير ونشر الطريقة السمانية وترك أثراً واضحاً في الفكر السوداني، فقد ألف حوالي ثمانين كتاب في التراجم والتصوف وغيرها، وله بالدار الكثير من المؤلفات المخطوطة التي نأمل أن ترى النور قريباً.

وصف المخطوطة

تتألف هذه المخطوطة من جزئين في كتاب واحد. يتكون الجزء الأول من ٤٣ صفحة، والجزء الثاني من ٥٣ صفحة من القطع الصغيرة، وقد كتبت بخط دقيق على ورقة عادية بمداد أسود مع تعليقات بالهوامش، وصفحاتها مرتبة ومرقمة ومعقبة، وعدد السطور يتراوح بين ٢٤ ــ ٢٦ سطراً عدا صفحات القصائد التي تصل سطورها إلى ١٩ سطراً في الأغلب، وعدا صفحة المقدمة في الجزء الأول (٢٢ سطراً) وآخرها ٨ سطور.

أسلوب الكتاب

يسير الكتاب من أوله إلى نهايته على وتيرة واحدة دون مراعاة للفواصل والفقرات[1] والفصول والأبواب مما يجعل مهمة القارىء عسيرة بعض الشيء.

ويستعمل المؤلف الألف بعد الواو في كلمة يدعو (يدعوا) ويضع نقطتين على الياء بدل الهمزة على النبرة على عادة الأقدمين، وذلك في مائة (ماية) والسفائن (سفاين) والكبائر (كباير). والياء أحياناً راجعة والهاء في آخر الكلمة ترسم هكذا (~) ولا يستعمل الهاء الدائرة... وقد لاحظت انه يستعمل عند وضع النقط على (التاء والثاء والشين) هذه العلامة (،) ولا يضعها مفرقة ولكن هذه ليست قاعدة ثابتة عنده. كذلك يضع النقطتين على الياء والشدة في (اليّ) تمييزاً لها من إلى حرف الجر. والمدة عبارة عن همزة على السطر يليها الف (الآخر) كما انه يضعها حيث لا حاجة إليها مثل: (الدعاء ــ الجزائر ــ ماء)[2] وذلك جرياً على أسلوب عصره ولا يستعمل الهمزة على الألف، ويستعمل التاء المفتوحة بدل التاء المربوطة في (المسمات)[3].

● الجزء الأول:

يبدأ المؤلف هذا الجزء بعد الحمدلة والصلولة مبيناً موضوع الكتاب بقوله: (هذا كتاب ألفته في رحلتي للبلاد الشرقية للحج وزيارة خير البرية: وهو مشتمل على علوم فقهية وطرايق حكمية وحكايات مرضية وغير ذلك مما فيه تبصرة لأهل الحذق ممن سافر لبلاد الشرق).

ثم ذكر بدء رحلته[4] من طابت المحمية، ووصف كرم أهل السودان وحسن ترحابهم به في كل البلاد التي مر بها، وأثناء ذلك أورد أسماء لزعماء قبائل ومريدين للسمانية مما يدل على انتشار هذه الطريقة في مناطق كثيرة ــ وهنا أورد ما ذكره الشيخ عن إصرار أحد المشايخ لاستضافتهم مما يعد صورة صادقة عن الكرم السوداني ومكانة رجل الدين حينذاك: «وقبل وصولنا تلقانا على مسافة بعيدة الخليفة أحمد بن

حمد خليفة ولد الماجد مع كبره وعجزه، وقد أحب أن يكون نزولنا عنده، واشتد في ذلك حتى مسك الدابة التي أنا عليها بنفسه فاستحييت منه ووافقته على غرضه في أن يكون نزولنا عنده (ص ٣).

وأشاد مراراً إلى لقائه للزبير باشا واستئذان الحاكم العام منجد له[٥] ويذكر أسماء لمناطق مشهورة مر بها وأسماء بعض المشاهير الذين كانوا معه في رحلته الحجازية، ويلي ذلك وصف لمدينة سواكن وحياة أهلها ومائها وهوائها: «وأعلم أن هذه المدينة واسعة جداً، وفيها تجار وأغنياء، والغالب من لغاتهم الرطانة، وطعامهم اللحم والأرز، وماؤهم ملح... ولهم ماء عذب في مكان مخصوص لا يتوصل إليه إلا بالثراء» ويذكر أن بالبلدة ثلاثة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة وإن أكثر اعتقاد أهلها في السادة المراغنة وبعضهم في الشيخ محمد المجذوب.

وانتقل بعد ذلك ليذكر معلومات قيمة عن رسوم السفر والاجراءات الجمركية المتبعة إذ ذاك وتوجههم للوابور بعد أن دفعوا الأجرة الخاصة بهم وبالتلاميذ، وكذلك الأمنية والكرنتينة (والبزبورت) «وذلك خاص بكل أحد من الحجاج سواء أكان صغيراً أو كبيراً وجملة ما يؤخذ من الشخص الواحد ستة عشر ريالاً ونصف ريال عشرة منها في الأمنية وإثنا عشر قرشاً ونصف قرش في البزبورت وثلاثة قروش في الكرنتينة».

وأشار إلى الماء العذب المستخرج من المالح وطريقة تكريره ثم وقوف الباخرة في بورسودان (الشيخ برغوت) لسبب خاص وما تبع ذلك من أخذ البعض للكرنتينة.

وبعد أن وصل إلى جدة كان أول ما سأل عنه أهل الطريق وزيارة مقابرهم وقد وقف طويلاً أمام باب زاوية أحد تلامذة القطب السماني محمد عبدالكريم لسمان، وكانت مغلقة ولم يكن هناك خليفة ولا تلميذ، لأن خلفاءه كانوا قد انقرضوا عند زيارة المؤلف. ثم أورد وصفاً رائعاً عن مدينة جده والناس وحركة التجارة والزوايا المشهورة، وذكر أن أهلها يطيلون البناء جداً، وربما قارب بعض بنائهم نحو المائة دراع وعليها سور ولها أبواب عليها عساكر وشرابهم من ماء الأمطار (ص ١٠) وتلى ذلك صفحات عن الأحرام وآراء العلماء فيه والمسالك المختلفة للوافدين من شتى الجهات.

وبعد الصفحة ونصف الصفحة أشار إلى مسيرهم للبيت الحرام بعد الاحرام والتلبية، وذكر أن الطريق من جدة إلى مكة كثير الماء والطعام، لأن العساكر هناك «لهم مواضع كل موضع قريب من الآخر، وفي كل واحد قهوة وطعام وشراب للذي يشتري، والبعض للأجر هو الثواب فقط لا شراء فيه ولا بيع»[٦].

ومضى في رحلته تغمره السعادة والسرور فما أن اقترب من مكة ضحوة من النهار بعد السير ليلاً حتى أتى حمام مكة ومكث بينهم مدة دون استيحاش... ثم انتقل إلى شرح ما يتعلق بالغسل وأقوال العلماء والروايات المختلفة، وكلها تدل على سعة إطلاعه وما ورد من أحكام وشروح في هذا الباب جدير بأن يقرأ، لأنه شرحها بأسلوب سهل وواضح.

ويلي ذلك حكم تقبيل الحجر الأسود وآراء العلماء، ثم الطواف وأحكامه وشروطه وآراء الأئمة، والصلاة في الكعبة والوقوف بعرفة (ص ١٦ ــ ٢٦).

وقد ذكر أن بناء الكعبة مر بعشر[٧] مراحل إلى أن انتهى بالحجاج بن يوسف (ص ٣٧) وذكر من أقاموا ببنائه وان تبعا ملك اليمن هو أول من كسا الكعبة كاملة بعد أن عزم على هدمها لما تكبر عليه أهلها فأصيب بداء اعيا الأطباء، ولم يحصل له شفاء إلا بعد أن رجع عن عزمه على الهدم (ص ٣٨) وكذلك أورد سبباً لا يخلو من الطرافة عن سبب سواد كسوة الكعبة فقال: كأنه يشير إلى أنه فقد أناساً كانوا حوله فلبس السواد حزناً عليهم.

وبعد أن أورد طرفاً عن العمرة وشروطها وزمانها الخ أشار إلى زيارتهم لقبور بعض آل لبيت والصحابة والأولياء منهم السيد محمد عثمان الميرغني وأولاده فالسيد جعفر وغيره والشيخ حبيب ابن إمام والشيخ محمد القاسي وغير هؤلاء مما لا يحصون عدداً.

انتهى هذا الجزء بزيارة مسقط رأس الرسول وهو في القرية وموضعه مشهور بسوق الليل، وهو موضع مثل التنور الصغير وعليه قبة عظيمة

فاخرة جداً وبقربه مسقط راس سيدنا علي كرم الله وجهه الخ. ثم تحدث عن طواف الوداع، وسبب مشروعيته فقال: «وهذا آخر ما أوردناه من رحلتنا من الجزء الأول في رحلتنا ـ مكة المحمية ويليه الجزء الثاني وهو من مكة إلى المدينة المنورة، ثم إلى البلاد السودانية (ص ٤٢ ـ ٤٣).

● الجزء الثاني:

عرضنا في الجزء الأول بدء الرحلة التي قام بها الشيخ إلى مكة وتتبعنا مراحلها إلى أن وقفنا معه عند طواف الوداع وفي هذا الجزء نتابع بقية رحلته إلى المدينة المنورة ثم عودته إلى البلاد السودانية.

يبدأ هذا الجزء بعد البسملة والحمدلة بمقدمة في فضل زيارة النبي (ص) وفي بيان الآداب التي تطلب من الزائر والمجاور.

سافر الشيخ من مكة بعد الفراغ من الحج قاصداً زيارة النبي (ص) في يوم الخميس سبع وعشرين خلت من ذي الحجة عام أربع وعشرين من بعد الثلثمائة والألف ووصل جدة في عصر الجمعة من اليوم الثاني فأقام فيها ثلاثة أيام ثم ركب البحر مع كثير من الحجاج «وهم ما بين أبيض وأسود والأكثر من هؤلاء من السودانيين» ويذكر أن نزاعاً وانشقاقاً حصل بينهم قام هو بالتوفيق بين الفريقين، وأنشد قصيدة في الرسول ذكر فيها أبياتاً في التآلف والمحبة... (ص ٨).

وما أن فرغ من هؤلاء حتى راعه أن جماعة من أهل اليمن يكثرون من الصلاة على النبي ولا يذكرون أصحابه فعرف انهم من الشيعة الزيدية وبعد أن يذكر أن عالماً منهم جاء إليه وعجز عن الرد على سؤاله يشير إلى آراء أهل السنة في خلافة علي والأحاديث التي يستند عليها الشيعة في أحقيته بالخلافة.

ثم استأنف رحلته، ويذكر أنه عندما وقف السنبوك (في القاموس: السنبوق: زورق صغير) عن المسير لانقطاع الريح وذعر الناس وضجوا أمر تلاميذه بقراءة مولدهم «الفيض السحري والبيان السحري» مما كان سبباً في تهدئة الخواطر وازدياد الريح (ص ١٢).

وبعد وصولهم إلى رابغ وصف القائم بأحكامه وهو من أيادي علي باشا سيد مكة وشريفها ووصف بلداً بالقرب منه مشتمل على سوق وجامع وانه خصب كثير المياه والنخل والزرع والخضر «وهو بلد أمن كثير الثمرات، وفيه مسيل كأنه النيل في العرض تجري به مياه الأمطار عند نزولها في الجبال إلى البحر ولها دوى عند نزولها كدوى الرعد وحوله زرع».

ثم استأنف رحلته بعد إقامة دامت أياماً، ووصف أهوال الطريق وانعدام الأمن، وضرورة صحبة الزاد والأسلحة النارية والرجال واتفاق الكلمة «فمن غفل عن ذلك فهلاكه أقرب من سلامته» (ص ١٣).

وبعد أن يعدد ما في بعض الكتب عن رابغ وغيره يذكر بعض الرؤى المامية، وزيارة الشيخ محمد حسن السمان له، وما تبع ذلك من استضافته لهم في بيته رغم وجود الكرنتينة وذلك اعتماداً منه على الله تعالى، ويذكر أن الشيخ أنزلهم في بيت أبي بكر الصديق وهذا البيت هو المشهور بزاوية السمانية آنئذ. ويعدد من تعاقبوا عليها قبل الشيخ السمان مثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني وجد المؤلف الشيخ أحمد الطيب البشير الذي جلس فيها سبع سنوات من بعد أخذه الطريقة الصوفية.

وتحدث عن الرواية السمانية والشيخ حسن السمان وكرمه وصفاته وأولاده وتلامذته الذين كانوا يحيون الليالي بالذكر ومنزلته عند أهل المدينة، وداره التي يسكن فيها «وهي واسعة جداً، وانها مشتملة على قصور عالية وخلاوى للفقراء وغيرهم» (ص ١٨). وقد أقام الشيخ في هذه الزاوية وشاهد حب المريدين وأهل المدينة والذين أتوا إليهم من كل جانب لا سيما القاطنين بالحرم الشريف من علماء وطلبة وعبادة وكذلك مشايخ الطرق الصوفية كالرفاعية والصاوية والسمانية والأحمدية وغيرهم. وهناك أخذ عليهم الطريقة (السمانية) جماعات كثيرة «وهم على علم ونور من ربهم»[٨].

وقد عثر الشيخ في خزانة أحد المشائخ على مخطوطة جالية الكرب المنجية في العطب الوسيلة «المنسوبة لشيخ الطريقة محمد عبدالكريم السمان وذكر أنه ليس لهذا الكتاب نظير إلا شرح

العلامة الشيخ محمد الخضري لاشتماله (الكتاب الأول) على المباحث الدقيقة والمعاني الرفيعة الخ».

وأشار إلى أن الكتابين لم يدخلا السودان لوقت تأليفه هذا الكتاب، وان الشيخ عندما رأى ميله أحضر ناسخاً وبذل له من نفسه ما أرضاه



□ المدينة المنورة.

به من المال، ووعده بإرساله إليه حين رأى منه الاستعجال[٩].

ثم يعدد الشيخ أسماء من قاموا بزيارتهم من السودانيين والعلماء والعساكر والحكام وغيرهم من أهل العلم والفضل. وفي حلقات الذكر التي تنشد فيها أسفارهم وأورادهم قرأ نبذاً من مؤلفاته التي نالت إعجاب الناس «وراعهم أن يكون هناك مؤلفات[١٠] بهذه الجودة» وقد قام البعض بنسخ بعضها.

ويذكر عقب ذلك زيارته لقبور بعض الأولياء والصحابة وأولاد الرسول وقد ذكر بعض المعلومات عن الأضرحة والآبار، ثم يودع الرسول (ص) ويستأذنه في السفر إلى بلاده، وهو خجل مضطرب، ويستطرد في وصف رحيله وكرم الاعراب الأدلاء والذين أخذوا السمانية لمكة ومجيء محتسب السوق ومصاحبة أهل المدينة لقافلتهم إلى منتصف النهار وقد عاد الشيخ وأتباعه بعد ذلك سالكين طريقاً وصفه بأنه أحسن الطرق إلى رابغ، وما تبع ذلك من حجر صحي وسفرهم إلى موضع الوابور ثم السفر إلى السودان.

ينتقل بعد ذلك ليذكر عن وصولهم لكبوشية ولقاء أحد تلاميذهم لهم، وإقامتهم في بيته، ومن قاموا بإكرامهم من المريدين ومن تعرفوا عليهم هناك ــ ويذكر أسماء كثير من المريدين والعلماء وشندي وودرملي ثم يقوم بزيارة بعض العلماء منهم جده الشيخ أحمد الطيب البشير «فكان نزولنا عند... الشيخ الربح بن الحجاج أحمد السنهوري، ومنه توجهنا في جمع كثير من فقراء الطريقة إلى ضريح القطب الشيخ أحمد الطيب البشير».

ويلي ذلك ذكر كثير من علماء وأعيان تلك الجهة، ومجيء الزبير باشا لهم وإكرامه لهم في داره. وثناء الشيخ محمد البدوي على بعض دواوين الشيخ، ثم يذكر خروجهم بعد ذلك من أم درمان ونزولهم عند التلاميذ والشيوخ إلى أن وصلوا لطابت المحمية وعندما قربنا منها تلقانا سكانها وأولادنا في جمع كثير على حالة محبة وإجلال كبير من التلاميذ وغيرهم ثم يذكر إكرام جميع سكان طابت لهم «وما تأخر عن ذلك لأحد إلا لعذر».

ثم ذكر في ختام كتابة العبارة التالية: «كان فراغي من جمع هذا الكتاب المسمى بـالدرة الثمينة في رحلتنا إلى مكة والمدينة» في اليوم الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام الخمسة والعشرين من بعد الثلثمائة والألف.

وبعد... ليس هذا إلا مجرد عرض سريع وتعريف لكنز من كنوز الآباء التي آن الأوان لبعثها من جديد، لكي يعرف الناس التراث السوداني، وآمل أن يكون هذا بداية لدراسات أعمق وأشمل لهذه المخطوطة ــ التي تعد فريداً في أدب الرحلات بقلم عالم وأديب سوداني ولغيرها من مخطوطات تزخر بها دار الوثائق والتي يسعدها أن تقدم كل عون لمن يريد أن يسهم في بعث التراث السوداني.

وإني أشير إلى أن هذه النسخة التي اعتمدنا عليها صورت بدار الوثائق عن نسخة أصلية مودعة عند الشيخ محمد عظيم ابن المؤلف الذي إليه يعود الفضل في اقتناء الدار الكثير من آثار الشيخ عبدالمحمود، فله منا الثناء والتقدير والعرفان.

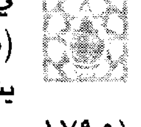
الهوامش

(١) يستثنى من ذلك السيطرة الأولى من المقدمة في الجزئين.
(٢) كان هذا الأسلوب شائعاً قديماً.
(٣) ترد هكذا في عنوان الكتاب.
(٤) كان ذلك في ٤ ذي القعدة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦).
(٥) أظنه يقصد ونجت.
(٦) هكذا وردت العبارة بالأصل.
(٧) ذكر المؤلف أن هناك راي يذهب إلى أن بناء الكعبة مر بإثني عشر مرحلة فالحادية عشر لصاحب مكة الشريف والثانية عشر للسلطان مراد.
(٨) اورد المؤلف في الأصل أسماء كثيرة لبعض العلماء المشاهير من بلدان مختلفة ولبعض علماء المذاهب وبعض طلاب المؤاخاة الخ مما لا يتسع له المجال هنا.
(٩) المخطوط المذكور يرد ضمن مجموعة الشيخ عبدالمحمود ومعنى هذا أن الشيخ وفى بوعده له وأرسله إليه مما يعد نموذجاً للتعاون في مجال الثقافة.
(١٠) المؤلفات المقصودة هي «الروض البهيج» و «العرف الوطير» و «شرب الطاس» وبالدار نسخ منها.

التاريخ على المسرح
أو فن الدراما التاريخية

فالتر هينك

□ فان جوخ، مولان روج، باريس.



في مقال نقدي عن دون كارلوس (مسرحية فريدريش شيللر الشهيرة) يشكو المؤرخ ليوبولدرانكة (Ranke) (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) الامكانات المحدودة لكتابة التاريخ، وذلك بالمقارنة بالامكانات المتاحة للرواية التاريخية والمسرحية التاريخية.

وحيث يوجد وعي تاريخي، توجد أيضاً الحاجة إلى استعادة حوادث الماضي الهامة ومشاهده كشيء يعيش في الحاضر. فالمعرفة التاريخية تتطلع أيضاً إلى التجسيم.

يستجيب إرنست يونجر (Ernst Jünger) في روايته الطوباوية ايموزفيل (Eumeswil) (١٩٧٧) لهذا المطلب. فالراوي في هذه القصة، وهو محاضر في التاريخ، يملك جهازاً يسميه لومينار (Luminar) يستطيع أن يستحضر التاريخ بطريقة كاملة مدهشة. لا يستطيع لومينار أن يختزن جميع المعارف وأن يستدعيها عند الحاجة فحسب مثل جهاز الكومبيوتر، وإنما يستطيع أيضاً أن يستحضر شخوص ووقائع التاريخ بطريقة حسية كاملة كما لو كانت تجري أمامنا في الزمان والمكان، فهذا الجهاز لومينار يعبر التاريخ وفقاً للحاجة. هو «آلة زمنية» تنفي فكرة الزمن أو لا تتقيد «بالتتابع الزمني»، ومن ثم تستطيع أن تقدم إلينا التاريخ كحاضر على المسرح.

إن صاحب هذا الجهاز لا يملك مفاتيح تاريخ الماضي فحسب وإنما يملك أيضاً زمام التاريخ الممكن بحيث يستطيع أن يقدم لنا مشاريع المجتمعات الطوباوية التي أبدعتها الأذهان في الماضي كشيء قائم وحاضر. يستطيع لومينار أن يستحضر أمامنا بصورة ملموسة «جزيرة فلزنبورج ـ Insel Felsenburg» (١٧٣١) أو ذلك المجتمع الديني الطوباوي الذي أبدعه خيال يوهان جو تفريدشنابل (Schnabel) في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كما يستطيع أن يقدم لنا «خطة العالم» التي صممها شارلس فوريه (Charles Fourier)، أي نظامه الاشتراكي الطوباوي، كشيء حادث في الحاضر.

فجهاز لومينار يسبق التاريخ ويعوضنا عما افسده التاريخ. «تكنولوجيا» هذا الجهاز تضم جميع إمكانات الكومبيوتر والمسرح والفيلم وتذهب أبعد من ذلك. فإن صاحب هذا الجهاز لا يشاهد هذه الوقائع على الشاشة فحسب كما لو كان ينظر في «صندوق الدنيا»، وإنما يستطيع أيضاً أن يدخل إلى «صندوق الدنيا» هذا، أي يدخل عالم التاريخ، ويستطيع أن يشترك في المناظر التي يستدعيها من التاريخ. بإمكانه أن يسير في شوارع برلين في العقد الذي وقعت فيه ثورة ١٨٤٨ في المانيا، كما يستطيع أن يجلس في مجلس الثورة الفرنسية (الجمعية الفرنسية) في باريس، يستطيع أن يجلس مكان الرئيس أو مكان المدعي أو محامي الدفاع أو المتهم. بمعنى آخر، إن جهاز لومينار يسمح لصاحبه أن يتقمص أو يتلبس دور الشخصية التاريخية. وهكذا فإن لومينار يجعل من الوهم المسرحي حقيقة، وينقلنا إلى العالم كمسرح.

ولكن تقمص الشخصية التاريخية يظل أيضاً من باب اللعب أو التمثيل، لأن استعادة وقائع التاريخ الماضي لا يغير من هذه الوقائع من مجرى التاريخ وأحكامه، فالخبرة التاريخية تظل أيضاً هنا خبرة جمالية. إن جهاز لومينار هذا جهاز في خدمة مؤرخ تاريخي، وحين نتذكر ذلك نتبين إلى أي مدى يتشابك الموقف العلمي مع الموقف الجمالي. فالمؤرخ في ايموزفيل هو أقرب إلى الفنان منه إلى العالم، لأنه يتعامل مع مادته بحساسية الممثل. وبتعدد الأدوار يصبح من العسير عليه أن يتقمص دوراً واحداً إلى ما لا نهاية أو أن يتلبس هذا الدور دون غيره من الأدوار. فالمؤرخ كما يقول هو «قاضي الأموات»، ولكنه قاض يزن حوادث التاريخ كما يزن الشاعر كلمته بعيداً عن مواضعات الأخلاق والأعراف.

تبرز رواية ايموزفيل بصورة حادة ما نصادفه في أعمال ارنست يونجر، تبرز موقف الحيدة الذي ينظر به إلى الحياة وإلى التاريخ، واستعارته مفاهيم المسرح للتعبير عن الحياة. ولكن أليس لومينار هذا هو رمز تقني لمشاكل المسرحية التاريخية، لمشاكل «التاريخ على المسرح»؟ ألا يرتبط الاهتمام التاريخي بالاهتمام الجمالي في المسرحية التاريخية؟ لكن قضية «ايموزفيل» لا توضح مشكلة المسرحية التاريخية وإنما ازمتها. فمؤرخ إرنست يونجر وجهازه لومينار يذكرنا بما ذهب إليه نيتشه من أن الوجود والعالم محتملان فحسب ولهما ما يبررهما كظواهر جمالية... (نيتشه: «نشأة المأساة عن روح الموسيقى»، ١٨٧٢؛ «العلم المسرور»، الجزء الثاني، ١٨٨٢). والواقع أن الاستمتاع الجمالي بالتاريخ من خلال لومينار هو في أفضل الأحوال تعبير عن مقاصد المسرحية التاريخية في أشكالها الهابطة.

ولكننا نتعجل حين نتحدث عن أزمة المسرحية التاريخية قبل أن نشرح جماليات ونظريات الدراما التاريخية.

يذهب فريدريش زنجلة (Fr. sengle) إلى أن المسرحية التاريخية «بالمعنى الحقيقي» للمصطلح تبدأ في المانيا بدراما جوته «جوتس فون برليشينجن ذو اليد الحديدية» (Götz von Berlichingen) (١٧٧٣).

وهذا صحيح وغير صحيح في نفس الوقت، صحيح حين ننظر إلى مجاري التاريخ كشيء مستقل، منفرد، لا يتكرر. فمسرح العصور الوسطى يرى التاريخ في ضوء فكرة الخلاص المسيحية. ومسرحيات هنز ساكس (Hans Sachs) (١٤٩٤ ـ ١٥٧٦) الدرامية التاريخية الساذجة ترى التاريخ من منظور «مهنة الاسكافي» ومسرح المعلمين المغنيين (Meistersängerbühne).



□ شارلس لوتن في دور جاليلي (كبطل بدون بطلة) وهو يجلس إلى مكتبه. لوس انجلوس ١٩٤٧.

أول الدروس عن الدراما التاريخية نجدها لدى شعراء الحقبة الانسانية (Humanismus) . أما مؤلف التراجيديا في عصر الباروك (Barock)فإنه يستعرض جميع المعارف الانسانية المتنوعة ويقدم التاريخ كأمثولة متكررة، وليس كحادث مفرد لا يتكرر، يقدمه كنموذج له وظيفته الدينية أو وظيفته السياسية في خدمة البلاط، وبالمثل فالمسرحية التاريخية في عصر التنوير المبكر هي نموذج خلقي أو أمثولة خلقية (Moralisches Exempel).

يستوعب الفكر التاريخي باديء ذي بدء، في مرحلة متقدمة من القرن الثامن عشر فحسب، الذاتية التاريخية المفردة غير المتكررة للحوادث التاريخية والشخوص والوقائع، ويرى التاريخ من منظور فكرة الاستمرارية في إطار «المدينة» و «الوطن». بهذا المعنى نجح جوته لأول مرة في رواية «جوتس» في تقديم المسرحية التاريخية في المانيا، مستنداً في ذلك إلى شكسبير وهردر وموزر. وبهذا استطاع أن يعود بالأدب البرجوازي إلى «دائرة الرأي العام السياسي»، بعد أن انحصر هذا الأدب في «دائرة الخاص» والمحدود من خلال مسرحيات الدراما العائلية والتراجيديا البرجوازية كما يوضح يورجن شرودر.

على أن نظرية «زنجلة» مضللة نوعاً ما، إذ توحي بأن المسرحية التاريخية منذ «جوتس»

تقدم التاريخ في حد ذاته، التاريخ كما وقع بدون هدف أو غاية أخرى. ولكن طريق المسرحية التاريخية من «جوتس» حتى مسرحية برتولت برخت «جاليلي» تعلمنا شيئاً آخر، فالمسرحية التاريخية ذات المستوى الرفيع تقدم لنا التاريخ باستمرار كشيء نموذجي حاصل. ويعالج كتاب المسرحية التاريخية المادة التاريخية وفقاً للمعنى أو المغزى الذي يقصدونه، واستقلالية التاريخ يحدها على الدوام هذا المعنى أو المغزى المقصود.

لم تفقد التفرقة بين كتابة التاريخ وإنشاء الأدب (أي عرض وقائع التاريخ الفعلية وجزيئاته من جانب وعرض «الكلي» و «الممكن» من جانب آخر). كما نجدها في كتاب «فن الشعر» لأرسطو، صحتها على الأقل من حيث أن الكاتب المسرحي يخول لنفسه التصرف في المادة التاريخية، أي يحتفظ بحريته إزاء التسلسل التاريخي الصارم للأحداث. وبالمثل فما زالت وجهة نظر أرسطو القائلة بأن الشعر أكثر فلسفية من فن كتابة التاريخ، لها ما يبررها، على الرغم من أننا نعرف الآن أن وجهة نظر المؤرخ تعتبر بمثابة موقف تاريخي مسبق، يؤثر على العرض التاريخي.

تختلف الآراء في تحديد الفارق بين الأديب والمؤرخ. فموقف ليسنج (Lessing) (١٧٢٩ — ١٧٨١) المتطرف يعود إلى أنه في نظريته الدرامية لا يعنيه التاريخ بقدر ما يعنيه الموقف السيكولوجي العام والعوامل النفسية، ومن ثم فإن التاريخ في التراجيديا كما يرى ليس أكثر من «وعاء من الأسماء» فالأديب من وجهته هو سيد التاريخ (63 Literaturbrief).

ولكن عبارة ليسنج السابقة يمكن أن تُعكس، وهذا ما يفعله هردر (Herder) (١٧٤٤ — ١٨٠٣) في مقال له عن شكسبير عام ١٧٧٣، إذ يرى أن التاريخ هو السيد لا المسود وبالتالي فهو الذي يملك مقود الأديب ويوجهه، ويمتدح هردر شكسبير ويترنم به كما يترنم «بالتاريخ» الذي يقدمه في مسرحياته التاريخية. لقد غلب الحماس هردر فأعماه عن الرؤية بحيث نراه ينظر إلى جميع مسرحيات شكسبير بما في ذلك كوميديات شكسبير الخيالية باعتبارها من باب التاريخ. «فسنجله» على حق حين يقول: إن مفهوم



□ اميل ياننجز على المسرح يؤدي أدوار الكومبارس التي تطلد

الدراما التاريخية عند هردر ليس أكثر من «أسطورة أدبية».

في مقال شكسبير المذكور يحور هردر «نظرية المحاكاة» الأرسطوطالية (Mimesislehre) فيفهم «محاكاة الطبيعة» بمعنى «محاكاة التاريخ»، ولهذا التصور جاذبية خاصة، فالمؤلف الدرامي كمؤرخ (أي كأديب ومؤرخ في نفس الوقت) تصور ساحر.

بعد هردر بعامين ينسب الأديب لنز (Lenz) (١٧٥١ — ١٧٩٢) إلى نفسه كأديب «نصف

خلال ثلاثية المسرحية الشعرية فالنشتاين (Wallenstein) (١٨٠٠) التي تعالج هذه الحقبة، فمن العسف كما يقول تيودور شيبر — أن نقرأ العمل الدرامي الفني الشعري كي نوثق للحقيقة التاريخية أو نبرهنها.

ونصادف من جديد عند جورج بوشنر (Georg Büchner) (١٨١٣ — ١٨٣٧) فكرة التوحد بين المؤلف الدرامي والكاتب التاريخي، بل نصادفها في صورة راديكالية (خطاب بتاريخ ٢٨/٧/١٨٣٥)، ومع ذلك فمهمة الكاتب المسرحي وإنجازه — كما يرى — يتمثلان في أنه لا يقدم لنا وصفاً أو عرضاً للتاريخ وإنما «شخوصاً تاريخية» ثم إنه «يعيد بعث أو خلق التاريخ من جديد».

ويختلف الأمر في المسرح الوثائقي الذي ظهر أولاً في قرننا الحالي، ففي هذا المسرح يستغني الكاتب المسرحي عن الخيال والإبداع الأدبي، ويلتزم التزاماً كاملاً بالمادة التاريخية الموثقة، ويقصر مهمته على انتخاب ما يحتاجه من هذه المادة وعلى التركيز (كما يذهب بيتر فايس Peter Weib في مقالة «ملاحظات عن المسرح الوثائقي»).

ولكن من اليسير حين نقارن مسرحيات بيتر فايس الوثائقية مع مسرحية مارا — صاد (Marat / Sade)، أن ندرك كيف أن بالتاريخ المبدع والمشكل بواسطة خيال الأديب. وندرك الفرق بين المسرحية التاريخية والمسرحية الوثائقية حين نتذكر أن المؤلف المسرحي تنكرد دورست (Tankred Dorst) في مسرحية تولر (Toller) لا ينظر إلى الاقتباسات والوثائق التي يستخدمها في مسرحيته كبراهين أو أدلة على الحقيقة التاريخية («تأليف مسرحية» Arbeit an einem stück ١٩٦٨).

إزاء نتائج البحوث التي يقوم بها علم التاريخ يبدو موقف المسرحي الذي يتشبث بمفهوم التوثيق التاريخي ومفهوم الحقيقة التاريخية ضعيفاً، فهو لا يستطيع أن يباري أو ينافس المؤرخين في هذا المجال. وإلى هذا يستند فريدريش دورينمات (Dürrenmatt) في الاستخفاف الساخر الذي يتعامل به مع المادة التاريخية. فلنتذكر مقولته: إن شكسبير ما كان له



بعد أن هجر مهنته الأولى في سبيل «الملاك الأزرق».

شرعية» وصدق مؤرخ التاريخ Selb-strezension des «Neuen Menoza» أما الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني فإنها تعيد الأمر إلى نصابه، إذ تخضع المادة التاريخية لقوانين الأدب ولجماليات الأدب، فالشاعر الألماني شيللر — على الرغم من أنه في نفس الوقت مؤرخ تاريخي وفيلسوف تاريخي — يعطي مقود الأمر إلى كاتب المسرحية التاريخية ولا يتنازل عن شرعية الخيال الأدبي وإذ كان شيللر مؤلف «تاريخ حرب الثلاثين عاماً» قد وصل إلى قمة قدرته الأدبية من

أن يكتب مسرحيته يوليوس قيصر لو كان له أن يعرف أبحاث مومسون (مشاكل المسرح Theaterprobleme).

المسرحية التاريخية وفقاً لدرونمات مستحيلة وبلا جدوى، فهي كجنس أدبي يعيش في عصر غير عصرها. أو هي من مخلفات الماضي. فالتاريخ قد وجد الآن شكله العلمي. ولا يستطيع المسرح أن يكرره بأدواته الناقصة. وراء هذا النفي، وراء هذا الفصل الحاد بين فن التاريخ وبين الدراما التاريخية نجد أخيراً ذلك التصور أنهما في واقع الأمر متلاحمان أو متلازمان، بمعنى أن وظائف كاتب المسرحية التاريخية قد أصبحت الآن من مهام عالم التاريخ (أي أن مهمة المسرحية التاريخية قد آلت إليه).

وبطبيعة الحال فإن علماء الجماليات وكتاب المسرح على حد سواء — بما في ذلك دورينمات — لا ينكرون الاختلاف بين العلم والفن، بين كتابة التاريخ والأدب التاريخي. ونرى «هيجل» في «فلسفة الجمال» لا ينفي عن التاريخ مضمونه الحيوي، ولكنه ينفي عنه حق قلب أو تغيير الواقع المباشر أو الواقع القائم.

على أن القلب أو التغيير هو مهمة رئيسية من مهام فن الأدب حين يختار مادته من مؤلفات التاريخ، ففي هذه الحالة على الأدب أن يستخلص جوهر ومعنى الحادثة والواقعة و «الشخصية الوطنية» و «الشخصية التاريخية المميزة»، وعليه أن يتغاضى عن المصادفات المحيطة أو عن الحواشي الخالية من المعنى التي تحيط بالأحداث، وعليه أن يتغاضى أيضاً عن الظروف والملامح الجانبية وأن يغيرها بحيث يستطيع أن يبرز الجوهر الداخلي لموضوعه بصفاء.

لم تفقد هذه المقولات حتى الآن قيمتها، ويؤيد ذلك أن الكاتب المسرحي هاينر كيبهرت (Heiner Kipphardt) في تعليقه على مسرحيته في قضية روبرت أوبنهايمر يقتبس أجزاء من مقولات هيجل، وينسب إلى كاتب المسرحية الوثائقية مهمة التحرير والتغيير، وبالتالي يحول المادة التاريخية المعاصرة إلى أمثولة ذات مغزى («الحقيقة أهم من الأثر»، ١٩٧٤ Wahrheit wichtiger als Wirkung).

إن العثور على الجوهر الداخلي، أو كما يقول هيجل في «فلسفة الجمال»: إن رفع الستار عن المضمون الجوهري للموقف وإبراز الشخصية الفنية القوية التي يعيش فيها الفكر والعقل أعظم لحظاته — هذا جميعه من معالم الأدب التاريخي كفن يقوم بتصفية المادة التاريخية وتكثيفها وتنقيحها — ومن ثم فهو فن التمييز والتنقيح واستخلاص السمين من الغث.

ما ينجم عن فن التنقيح هذا سماه برتولت برخت «الفكرة»، ومعروف أن برتولت برخت فنان بعيد كل البعد عن مفاهيم الفلسفة المثالية. ينظر برخت إلى مسرحيته التاريخية حياة جاليليو جاليلي (Leben des Galilei) كمثال مضاد لأماثيله المسرحية. ففي الأماثيل يجسم أفكاراً أما هنا في المسرحية التاريخية فهو يستنطق أفكاراً بعينها من مادة تاريخية.

ومع ذلك فإن الكاتب المسرحي ليس مجرد طبيب يولد الفكرة من التاريخ، فما زلنا ندعي أن على المؤلف أن يشكل المادة التاريخية وفقاً للمعنى الذي يقصده. وتحدد هذا المعنى المقصود خبرات المؤلف الذاتية والعامة في الحاضر القائم. فهو يستحضر الموقف التاريخي من موقعه في الحاضر ومن أجل الحاضر، ويعبر عن ذلك بنوفون فيزه (Benno von Wiese) بشكل أوضح فيقول: المسرحية التاويخية لا تستعيد التاريخ وإنما تجيب على التاريخ.

وتبدو هذه العلاقة المتبادلة بين المعنى المقصود وبين الأفكار التاريخية، وكيف أن المتغيرات التي تطرأ خلال نشأة العمل الأدبي تؤثر على مضمون هذا العمل، من خلال مسرحية برخت «حياة جاليلو جاليلي» وتعدد صياغات هذه المسرحية. فالمخاطر القاتلة التي أبرزتها القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناجازاكي، هذه المخاطر التي تهدد الانسانية من جراء تطور الفيزياء الذرية، وقد أجبرته أن يعيد النظر في تقييمه لعلم الفيزياء الحديث، ودعته أن يراجع موقف بطله مراجعة نقدية.

في الصيغة الأخيرة يبرز برخت من خلال بطله «جاليلو جاليلي» الفشل الاجتماعي للعلم. فالعلم يتحمل هنا مسؤولية ما كان لجاليلو جاليلي التاريخي أن يتصورها. تتحول المسرحية

التاريخية هكذا إلى إشعار أدبي بالخطر المحدق وتقترب بذلك من الأمثولة: فالأفكار التي تستخلص من التاريخ تتفاعل هنا مع أفكار أخرى من الحاضر، وتقوم الشخصية التاريخية بتجسيم الاثنين معاً، ومن ثم تتحول «حياة جاليلو جاليلي» إلى أمثولة تاريخية، ولكن من الخطأ أن ننظر إلى مسرحية برتولت برخت كما لو كانت حالة استثنائية في تاريخ الدراما التاريخية. فالواقع أن حياة «جاليلو جاليلي» تبرز بوضوح ذلك المنهج الذي يتخفى في طيات كل مسرحية تاريخية رفيعة، ألا وهو جنوحها إلى الأمثولة والمجاز.

ما يميز مسرحية جوته «جوتس فون برليشينجن» هو تعبيرها الجديد عن الشخصية الفردية التاريخية، وعن الحقبة التاريخية ككل، ولكن اهتمام جوته في مسرحيته لا ينصب حول هذا الفارس الأخير «بيرليشينجن» ولا يستهدف قضية هذا الفارس قاطع الطريق أو قائد جيوش الفلاحين، وإنما أن يبرز هذه الشخصية التاريخية بوجودها وكيانها وأن يبين التناقض بين هذه الشخصية وبين العصر الذي يعيش الشاعر فيه، على الرغم من أن جوته يغير الصيغة الأولى للمسرحية ويخفف الكثير من فاعلية هذه الشخصية ومن «يوتوبيا التضامن والتآخي الاجتماعي» الذي تعيش فيه. لا بد لجوتس التاريخي من أن يعبر شخصيته لعصر آخر مغاير، لمجتمع يعيش فيه الانسان سياسياً واجتماعياً بعيداً عن مفاهيم الفعل والأخلاق السابقة. فما يسمى بالمسرحية التاريخية «الحقيقة» في ألمانيا يحمل أيضاً ملامح الأمثولة التاريخية.

وبوجه عام ترتكز عناصر الأمثولة على العلاقة بين التاريخ والحاضر، سواء بدت هذه العلاقة واضحة أم ظلت هامشية، ونحن لا نتحدث هنا عن تلك الدراما التي تستخدم التاريخ كرداء أو لباس فحسب أو كوسيلة للتعريض بالحاضر، حيث يكتفي المؤلف المسرحي بسطوح الأشياء، ينعدم العمق، وتخيب «العمليات التاريخية» في تشعبها وتعدد مستوياتها عن الأنظار. أو بتعبير آخر: حيث لا يؤخذ التاريخ مأخذ الجدية، يصعب أن يكتسب التاريخ ملامح الأمثولة أو المجاز.

حديثنا هنا عن المسرحية التاريخية التي تربط بين الماضي والحاضر بحيث يستطيع الحاضر أن يفهم نفسه من خلال التاريخ بصورة أعمق وأن يدرك مثالبه أو يدرك بشكل أو آخر إمكانات المستقبل واحتمالاته. وبإيجاز فلا تخلو مسرحية تاريخية ناجحة من مكونات أو عناصر طوباوية.

إن استدعاء الماضي يكاد يحوي دائماً احتجاجاً على الحاضر. وبالمثل يسعى هذا الاحتجاج إلى التاريخ من أجل الحصول على الشرعية أو من أجل تدعيم ذاته بالتاريخ.

تبدأ المشكلة أولاً حين يُستخدم الماضي كوسيلة تمويهية أو تضليلية. هناك أيضاً حدود للحرية الأدبية في استخدام المادة التاريخية، أي أن هناك حدوداً تضعها المادة التاريخية أمام الحرية الأدبية. ودون شك ليس من اليسير أن نميز بين الحقيقة والزيف في استخدام المادة التاريخية. ولكن المسرحية التاريخية تفقد على أي حال رسالتها حين تتجمد «العملية التاريخية» إلى صراعات شكلية أو إلى ثنائيات مسطحة.

توقعات الكاتب التي تنبع من الحاضر، وبالمثل مفاهيمه الفلسفية التاريخية، هي التي تحول اهتمامه إلى حقب تاريخية وشخصيات تاريخية بعينها. وتبلغ العمليات الحياتية التراجيدية ذروة وضوحها وفقاً لفريدريش هيبل (Hebbel) (١٨١٣ ــ ١٨٦٣) في مراحل التأزم التاريخية الحاسمة، أي في مراحل التحول حيث تنتهي حقبة وتبدأ حقبة أخرى، وهكذا تتحول الدراما التاريخية في نظره إلى مرآة تعكس حركة الانسانية أجمع. كانت تراجيديا فردناند لاسال (Ferdinand Lassalle) (١٨٢٥ ــ ١٨٦٤) التاريخية فرانس فون سيكينجن Franz von Sickingen(١٨٥٩) هي الدافع على نقاش موقف الماركسية من الدراما التاريخية، وذلك فيما سمي «بنقاش سيكينجن» (Sickingen-Debatte) يأخذ ماركس على دراما «لاسال» أنها تقتفي أثر شيللر أكثر مما تنهج نهج شكسبير ويشير هذا الاعتراض على الأقل إلى البديل المطروح أمام كاتب المسرحية التاريخية في القرن التاسع عشر، وأهم موضوعات هذا النقاش

هو العلاقة بين المسرحية التاريخية وبين الثورة. إزاء محاولة «لاسال» أن يصور مأساة الشخصية الثورية التي تتردد في اتخاذ القرار في الوقت المناسب، ويقدم «إنجلز» كبديل الشخصية الثورية المأساوية التي تثور قبل أن يحين زمن الثورة أو قبل أن ينضج الزمان. «فلاسال» كما يرى قد أضاع من يده فرصة «الصدام التراجيدي بين المطلب الثوري التاريخي وبين استحالة تحقيق هذا المطلب» (خطاب بتاريخ ١٨/٥/١٨٥٩). كانت هذه العبارة حافزاً للكثير من مسرحيات «حروب الفلاحين» والمسرحيات التي دارت حول شخصية «توماس مونزر» (Thomas-Münzer).

من العسير علينا هنا أن نعالج في نفس الآن العلاقة المشتركة بين الدراما التاريخية والقصة التاريخية. وقد عبّر «جورج لوكاش» تعبيراً حاسماً عن الفاصل بينهما: إذا كان موضوع الرواية هو الحياة الاجتماعية في ترابطاتها وانعكاساتها المتشعبة، فإن موضوع الدراما هو الصدامات الاجتماعية الكبرى. وإذا كانت الرواية التاريخية ترتبط إلى مدى بعيد بلحظات تاريخية بعينها، فإن الشكل الدرامي يتطلب التركيز والمباشرة.

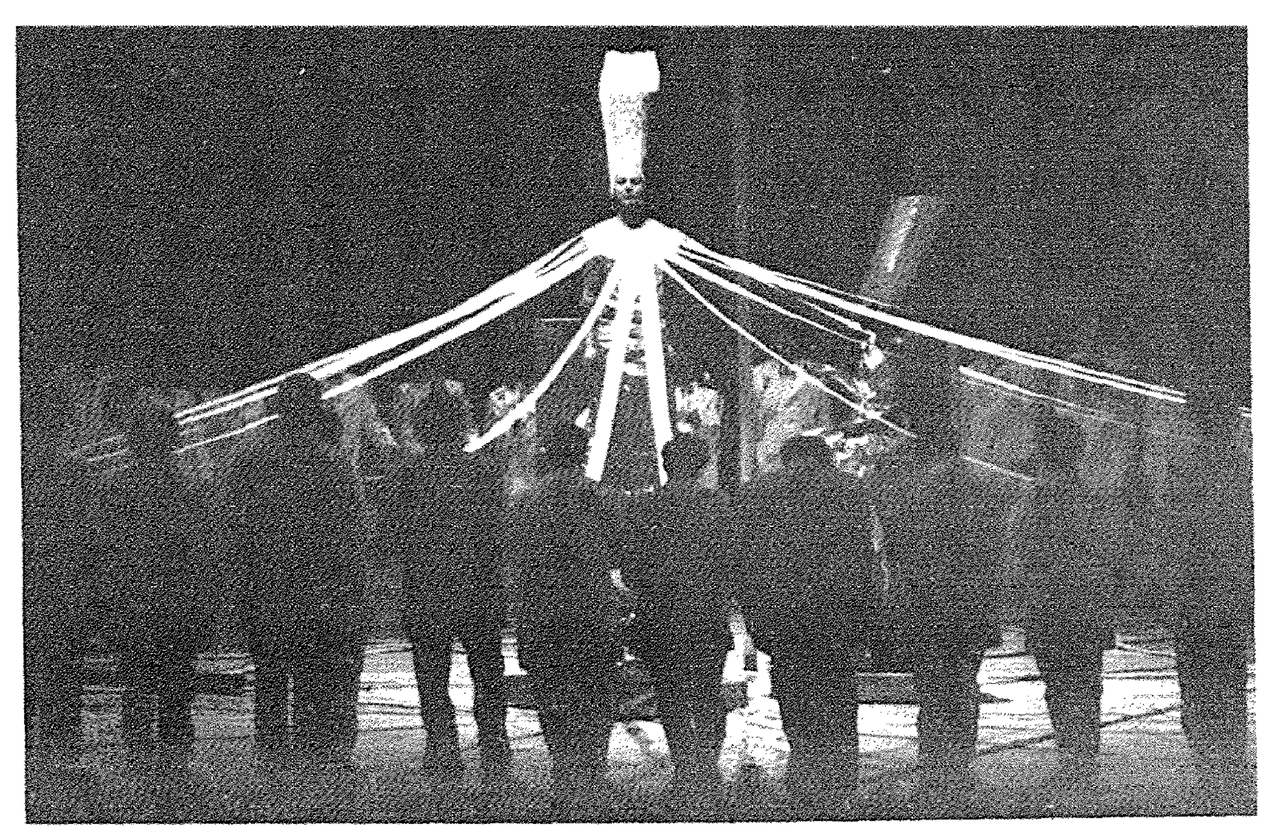
هذه هي قوانين الشكل الدرامي، وشروط العرض المسرحي الزمانية والمكانية: لا بد من ضغط الحوادث التاريخية بما تحويه من ترابطات في هذا الحيز أو المكان المحدود. فقوانين الدراما تأخذ من الحياة التاريخية هيكلها، أما المسرح فيعطيها شكلها الحسي، ويخلع عليها أبعاد المدركات وهو ما لا يستطيعه الراوي في القصة التاريخية، وما يعجز عنه المؤرخ أياً كانت قدرته على التصوير والاقناع.

ليست هناك معايير أو أنظمة درامية تخضع لها المسرحية التاريخية، سواء كانت هذه المعايير والأنظمة أرسطوطالية أو غير أرسطوطالية، كلاسيكية أو طبيعية، درامية أو ملحمية، فمن المستطاع أن تلبس المسرحية التاريخية جميع هذه الأثواب. بمعنى آخر: إن الامكانات الدرامية من التعدد بمكان، ومن خلال هذه الامكانات يمكن أن تقدم المادة التاريخية للمسرح.

على أن قدرة المسرحية التاريخية أن تبرز المادة التاريخية كحاضر ملموس لا تخلو من إشكالية، فهذا الامتياز ذو حدين. في العرض المسرحي تجسم الشخوص التاريخية من خلال ممثلين أحياء، ويتحول المتفرج إلى شاهد عيان يستوعب بحواسه وبعقله ووجدانه الأحداث. لا يستوعب المتفرج هكذا كنه هذه الأحداث من خلال التصور فحسب كما هو الحال مع قارىء القصة التاريخية والأعمال التاريخية وإنما أيضاً من خلال حواسه الادركية. إن حضور المتفرج كشاهد عيان هو أيضاً من باب الوهم، الاختلاف هو أن المتفرج بالمقارنة بقارىء القصة التاريخية يخضع بصورة أعمق لمؤثرات الايحاء الجمالية، ومن ثم فإن تجسيم التاريخ على المسرح لا يشكل قضية ولا ينقص من قدر المسرحية التاريخية. فالظاهر هو من مصاحبات جميع الفنون الجمالية. تنشأ المشكلة أو القضية أولاً عندما يؤدي الايحاء إلى فقدان المسافة بين المتفرج وبين العرض المسرحي، أي عندما تتحول الدعوة إلى التقمص إلى دعوة إلى الانغماس وإلى الاستمتاع المباشر.

هذه هي بالتحديد قضية جهاز «لومينار» في رواية «إرنست يونجر»: «إيموزقيل». فهذا الجهاز يدعوك إلى معايشة التاريخ دون فاصل أو مسافة ما، يوهمك بأنك مع الأحداث أو في قلب الأحداث التاريخية، دون أن تكون لذلك أية تبعات أو آثار على حياتك ووجودك الحقيقي. فالمشاركة الحية تظل على الدوام من باب الفرجة، دون أي التزام. وقد يقول قائل: إن هذا هو الأمر في «مسرح الوهم الكامل»، وليست هذه قضية خاصة بالمسرحية التاريخية وحدها. ولكن التاريخ المسرح له جاذبية خاصة، وقد يقتصر الأمر على الاهتمام بالمادة التاريخية فحسب أو الرغبة في إرضاء النهم إلى المشاهدة فحسب. وليس من باب الصدفة أن الكثير من المسرحيات التاريخية تميل إلى عرض صور التاريخ المتتابعة أي تقديم «بانوراما» من المشاهد التاريخية فحسب، فتجسيم التاريخ وحده يرضي الكثير من حاجات المشاهدين ويبعدنا بالتالي عن الخبرة التاريخية الحقيقة.

تستسلم الدراما التاريخية خلال القرن التاسع عشر لهذا الاغراء، وهو ما يتضح من



□ اخناتون في تل العمارنة يبني مدينته على هيئة قرص الشمس «اخيتاتون».

مراجعة إنتاج كتاب هذا الجنس الأدبي. لقد تتابع طوفان المسرحيات التاريخية التي عرفت باسم «مسرحيات مدرّسي المدارس». تتابعت هذه المسرحيات الوطنية التاريخية في المناسبات والاحتفالات بشكل مقلق. واعتنق مؤلفو هذه المسرحيات كلمة أوجست فلهيلم شليجل (Schlegel) التي ألقاها في محاضراته الأخيرة في فينا («عن الفن الدرامي والأدب» ـــ ١٨٠٨):
Über dramatische Kunst und Literatur

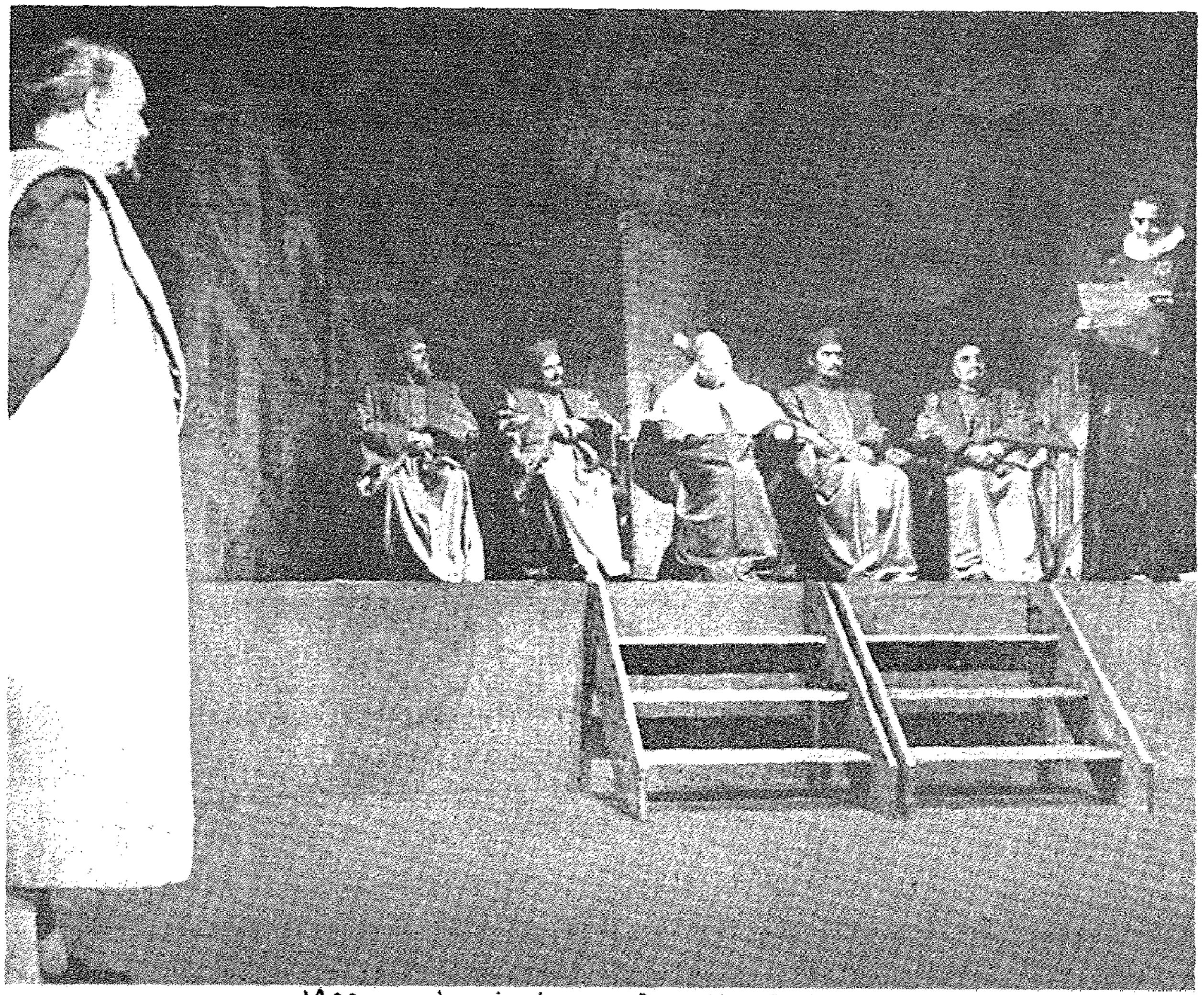
إن وظيفة المسرحية التاريخية أن تلم شمل الألمان حول تاريخهم القومي «وكأنهم يجتمعون حول راية مقدسة».

هكذا نهضت المسرحية التاريخية لكي تؤكد التاريخ القومي حتى اننا نرى أرنست فون فيلدنبروخ في مسرحية «السيد الجديد» (١٨٩١). يستخدم تاريخ «الدوق الأكبر بعد توليه الحكم كي يبرر سياسة القيصر الثاني».

هكذا يتحول التاريخ إلى محجر يقتطع منه كل امرىء ما يريد وفقاً لحاجته وما عليه غير أن يصقل ما اقتطع. وبالمثل نرى خلال عروض المسارح التي أشرف عليها الدوق «جيورج الثاني» (الاحتفالات المسرحية بين عام ١٨٧٤ ــ ١٨٩٠) كيف اقتصر الأمر على محاكاة التاريخ من خلال الديكور والملابس وغير ذلك من التفاصيل والجزيئات.

ترتبط أزمة المسرحية الدرامية بتطور الموجة التاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أثارت هذه الموجة حملة شديدة من النقد كانت لها آثار واضحة. ومن إعلام هذا النقد «فريدريش نيتشه» في مؤلفه فوائد التاريخ للحياة ومضاره (١٨٧٤).

لا ينكر «نيتشه» على زمنه الاعتزاز بالمعرفة التاريخية لكنه يهاجم استخدام التاريخ كنوع من الترف، بحيث نرى كما يقول «المواطن العاطل المرفه يتنزه في حدائق المعرفة» مستمتعاً بالتاريخ. ولا جدل في أن الحياة تحتاج إلى التاريخ، ولكن الاسراف في التاريخ يضر بالأحياء. ينصب نقد «نيتشه» على تعاطي التاريخ في صورته الضحلة المعادة والمكررة وفي قوالبه المستهلكة، ولكن نقد نيتشه قد هز الثقة الثابتة في مغزى التاريخ، وهذا المغزى هو شيء حيوي بالنسبة لنشأة الدراما التاريخية وبالنسبة لفاعليتها وتأثيرها.



□ هلموت هاينزلمان في دور جاليلي خلال تقديم المسرحية بمسرح ليسنج بهامبورج ١٩٥٥.

لن تنهض المسرحية التاريخية وتتخطى أزمتها من خلال أمجاد التاريخ، وهي أمجاد لا تخلو من إشكالية أو شك. لن تنهض المسرحية التاريخية بتحولها إلى «أسطورة أدبية» لأمة من الأمم.

اعتقدت «الحركة التعبيرية» (Expressionismus) أن بإمكانها أن تحاكم المسرحية التاريخية وأن تقرر مصيرها نهائياً. ولكن الاهتمام بالتاريخ والحاجة إلى التاريخ من أجل التعرف على الذات في الحاضر لا يمكن أن يكبت إلا لأجل محدود. لقد استطاع جرهارد هاوبتمان (G. Hauptmann) (١٨٦٢ — ١٩٤٦) بمسرحية «النساجون» (Die Weber) (١٨٩٢) أن يفتح مجالاً أمام مسرحية اجتماعية تاريخية. ومنذ العشرينات في هذا القرن يتجه المسرح بوضوح إلى التاريخ المعاصر وبالتالي إلى المسرحية المعاصرة.

لم يعد الفرد العظيم والبطل الملهم يحتل مركز الثقل أو محور الحدث المسرحي، بل وكثيراً ما يوضع هذا البطل المنفرد موضع النقد والمحاكاة الساخرة في هذه المسرحيات. ومن جانب آخر نرى الانسان المميز الذي يعبر عن القوى التاريخية المتطورة محوراً جديداً للمسرحية التاريخية.

لم يعد البحث عن هذه الذوات الهامة مقصوراً على ميدان التاريخ السياسي وإنما امتد إلى ميادين العلم. فالعلوم تجدد الآن بشكل لم يعرف من قبل حياة الفرد والمجتمع، كما يتضح من مسرحية برخت «جاليلي» وكيبهارت «أوبنهايمز» يطور برخت، على الرغم من أنه أهم كاتب قد أعاد الدماء إلى الأمثولة الدرامية (Parabel)، يطور نظريته المسرحية — على ما قد يبدو في ذلك من تناقض — وفقاً لقوانين

المسرحية التاريخية، وإن قام في نفس الوقت بقلب نظرية المحاكاة التي تقوم عليها المسرحية التاريخية. فتكنيك التغريب للمؤلف المسرحي وللممثل في المسرح الملحمي يستهدف أن يخلع على مجاري الأحداث طابع الشيء الماضي، أي ينظر إليها كأحداث فردية طارئة وغير قابلة للنقض، وبالتالي كأحداث تاريخية. فعلى الممثل أن «يحتفظ إزاء الوقائع والسلوكيات الحاضرة بالمسافة التي يحتاجها المؤرخ» («التكنيك الجديد لفن التمثيل»).

وحتى المسرحيات المعاصرة يجب أن تمسرح كمسرحيات تاريخية وأن تقدم إلى المشاهد باعتباره «مؤرخاً» باعتباره مؤرخاً متنوراً يتابع «تغير الأشياء».

ما يعنيه برخت بمصطلح «التأريخ» (Historisierung)، يقلب معنى استحضار الماضي في الدراما التاريخية إلى العكس. المؤرخ بمعنى برخت (كمشاهد ومتفرج) لا يقع تحت سحر الايحاء بالحياة المجسمة على المسرح، فهو يرى في «التمثيلية التاريخية» قوالب الحياة التاريخية دون أن يختصر المسافة التي تفصله عنها. «المؤرخ» والدراما التاريخية بمعنى برخت يمثلان هكذا القطب المضاد للمؤرخ بمعنى «ارنست يونجر» وللمسرحية التي يقدمها جهاز «لومينار».

ما يرمي إليه مفهوم المسرح عند برخت هو أن يقدم خبرة جوهرية تاريخية من خلال وسائل التواصل الجمالية. وعلى الرغم من أن شرط هذه الخبرة التاريخية الجوهرية كما يرى هو الفلسفة المادية التاريخية فليس هناك ما يحول دون استخدام تكنيك «التأريخ» الذي طوره. هذه على أية حال وسيلة من الوسائل للتغلب على مأزق الدراما التاريخية، ذلك المأزق الذي يجعل من المشاهد عاطلاً في حديقة المعارف، أو يسطح التاريخ إلى تتابع من «التابلوهات» التاريخية.

لم يعد التاريخ كمسرحية بمعنى المصطلح القديم «العالم كمسرح كبير» أو الحياة كمسرحية أو أدوار تؤدي وفقاً لارادة الله. بتزايد مستمر اصبح واضحاً أن الانسان هو الذي يحرك التاريخ، وفي نفس الوقت فالتاريخ كمسرحية يبرز بوضوح أن الشخوص على مسرح الأحداث تؤدي أدواراً أو تتعامل من خلال أدوار لا تقررها بمفردها.

في عالمنا اليوم كما يقال نرى الفيلم والتليفزيون في طريقهما إلى تولي «التراث الشرعي للمسرحية التاريخية». على أننا حالياً على الأقل نشاهد كيف أن الديكور والأزياء تحتل مكان الصدارة في هذه الأفلام وتجعل من العسير تطوير أسس درامية مقبولة للفيلم التاريخي. ثم إن صناعة الترويح والتسلية تحول التاريخ إلى مجرد سلعة استعراضية أو استهلاكية. وما ينطبق على الفيلم التاريخي ينطبق أيضاً على المسرحية التاريخية. فلن يفصح التاريخ في شكله المصور والمشخص عن مغزاه، طالما أننا لا ننظر إليه كشيء فعال ومؤثر.

تزداد حدة هذه القضية عند استيعاب المسرحيات التاريخية للحقب السابقة وللمؤلفين السابقين، فالدراما التاريخية، إذا استعرنا مقولات هيجل، تتميز بالتصادم بين حقب مختلفة («فلسفة الجمال» ١/٢٦٠)، أي بالتوتر بين العالم التاريخي الذي تصوره الدراما وبين اهتمامات المؤلف الدرامي والوعي النابع من الحقبة التي يعيش فيها. هذا إلى جانب الوعي الذاتي والاهتمام الذاتي للقارىء أو المتفرج في العصر الحاضر. هكذا تلتقي هنا ثلاثة مستويات تاريخية وتتقاطع. ولا سبيل لمخرج المسرحية التاريخية الكلاسيكية أو القديمة حتى يستحضر القضايا التي تعالجها المسرحية وحتى يقرب هذه القضايا إلى عصرنا الحاضر، لا سبيل له غير أن يخترق هذا الغلاف التاريخي المزدوج. لا بد له أن يعيد تشكيل هذه المستويات التاريخية.

الحيز المتاح لهذا التشكيل أو التحويل بلا حدود، أي إخراج جسور لمسرحية كلاسيكية عرضة لمخاطر كثيرة وعرضة للفشل، بل وقد يكون لهذا الفشل صدى الفضيحة. ولعل أسوأ نصيحة على هذا الطريق هي الادعاء والتطاول والمعرفة السطحية. ولا جدل في أن المسرحية التاريخية بوجه خاص، من بين جميع المسرحيات الكلاسيكية بوجه عام، تحتاج إلى مُخرج على قدر كبير من الذكاء واتساع الأفق.



رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «نايف صياغة» عرض لرسالته الماجستير بعنوان: «الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق خلال الفترة ما بين ١٨٤٠ ــ ١٨٥٨» ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق

خلال الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٥٨

د. نايف صياغة

- **رسالة ماجستير ــ قسم التاريخ، جامعة دمشق ١٥/١٢/١٩٨٤.**
- **اللجنة مؤلفة من الدكتور عبدالكريم رافق مشرفاً، الدكتور محمد خير فارس عضواً والدكتورة خيرية قاسمية عضواً.**
- **التقدير: جيد جداً.**

على الرغم من أن فترة الدراسة كانت قصيرة نسبياً من حيث الزمن إلا أنها كبيرة بأحداثها مليئة بالمتغيرات ومرحلة انتقال من حالة اقتصادية بسيطة إلى حالة اقتصادية أكثر تعقيداً. لقد كانت بداية الفترة ١٨٤٠ حيث رحل إبراهيم باشا عن دمشق وبدأت الدولة العثمانية إصلاحاتها الخيرية بإصدار خط كلخانة ١٨٣٩ وانتهت بإصدار قانون الأراضي عام ١٨٥٨ وجاءت هذه الاصلاحات نتيجة ضغوط سياسية خارجية، ففي بداية تولي السلطان عبدالمجيد السلطة ١٨٣٩ كادت الامبراطورية أن تسقط بيد إبراهيم باشا لولا تدخل الدول الأوروبية وإجبار جيش إبراهيم باشا على الانسحاب من سورية، وهذا التدخل الأجنبي كان نتيجة رد فعل تجاه طموحات محمد علي باشا التي أقلقت الدول الأوروبية التي رأت من الأفضل أن تكون الامبراطورية العثمانية ضعيفة تحت حكم السلطان من أن



تكون قوية تحت حكم محمد علي الطموح، هذه الأحداث كانت بداية مؤشر جديد لتعاظم قوى ذاتية داخل الامبراطورية، تطمح للاستقلال والتحرر من الحكم العثماني من جهة، وبداية للتدخل الأجنبي في شؤون الامبراطورية من جهة ثانية. وإزاء هذه المتغيرات، حاول السلطان عبدالمجيد أن يجدد دماء الامبراطورية فقام بنشر إصلاحاته التي شملت النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في كامل أقاليم الامبراطورية، بعد عهود طويلة فتميزت بالجمود ما عدا عهد السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني. وقابل ذلك محاولات تعطيل من قبل القوى المحافظة.

وفي خضم الأحداث، بدأت تظهر مؤشرات جديدة، كبدايات لتغير أساسي تعبر عن نفسها، رافقها متغيرات اقتصادية هامة، كالصناعات الأجنبية الوافدة، والرأسمال الأجنبي القوي، الذي أخذ يتغلغل في الامبراطورية. وكذلك دخول الأجانب إلى دمشق ومنافسة البضائع الأجنبية للصناعة المحلية، وسيطرتها على الأسواق، وظهور عصر برجوازي تجاري ــ صناعي جديد. وبداية التنظيم الاقتصادي والسياسي للمجتمع، إلى جانب ظهور علاقات زراعية جديدة كتحطيم الأقطاع، والغاء الالتزام، وزوال النظام الزراعي التقليدي.

كما شهدت الفترة مواجهة غربية قوية باقتصادها، ورأسمالها الكبير، وثورتها الصناعية الناشئة، وسلعها المصنعة التي غزت أسواق دمشق، وأضرَّت بالصناعة الدمشقية التقليدية، وقضت عليها أو كادت. وظهرت أيضاً مؤسسات اجتماعية واقتصادية حددتها المصالح الأجنبية، ودعمتها فئات من المجتمع كانت تنحو إلى التحرر من الطبيعة المحافظة للمجتمع التقليدي المحلي. كما أن التغير الكبير في العادات، وتغيير أساليب السلوك القديمة بدأت تأخذ طريقها إلى المجتمع الدمشقي. وبرزت بوادر اجتماعية واقتصادية غير معروفة سابقاً. فتأثرت دمشق كسائر مدن الامبراطورية بالاقتصاد العالمي، وظهر هذا التأثير كذلك في الريف، وخرج الريف عن عزلته المألوفة، وأصبح اقتصاد الريف يدور في اطار التبعية للصناعة الأوروبية، وهذا العامل الاقتصادي الخارجي قلب المفاهيم الاقتصادية

السائدة، وأصبح الاقتصاد بنوعيه «ريفي — مديني» خاضعاً للاقتصاد الأجنبي.

أما من الناحية الزراعية، فقد بدأت الدولة العثمانية إصلاحاتها في هذا المجال تظهر لأول مرة بإلغاء الالتزام حيث أعلن عن أول بادرة إصلاح في خط كلخانة الصادر في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٩، وتعززت في النمط الهمايوني ١٨٤٦. وعلى الرغم من عودة ولاية سورية إلى السلطان العثماني بعد خروج إبراهيم باشا منها إلا أن الاصلاحات التي أتت مع الحملة المصرية أفادت الكثير وأصبح من الصعب العودة إلى الوراء. كما أن الدولة العثمانية رأت في الاصلاحات التي رافقت الادارة المصرية أن خللًا ما كان حاصل في الامبراطورية، وحاولت الآن تجاوزه، فجاءت الاصلاحات في هذا المجال وصدرت قوانين جديدة كخط كولخانة، وخط همايون، وبلغت ذروتها في قانون الأراضي العثماني عام ١٨٥٨. كما صادفت حرب القرم أيضاً في هذه الفترة ١٨٥٣ — ١٨٥٦ فكان لها صدى واسعاً ومتغيرات اجتماعية واقتصادية كبيرة، كالتأثير الاقتصادي الذي أصاب دمشق مركز الفعالية العظمى في الولاية، والمدينة الأهم في كامل المنطقة، من حيث المركز الديني والاقتصادي، ومنطلق قافلة الحج الشامي، ذي الأهمية الاقتصادية. إضافة إلى أحداث ومتغيرات كثيرة جرت في المركز «استانبول»، فقد تم الغاء الديوان السلطاني، وقيام مجلس وكلاء الدولة، وتودي بالمساواة بين كافة الطوائف الدينية، وجرت محاولات القضاء على الرشوة والفساد، وضبط الأنظمة والضرائب. وتحديد مدة الخدمة العسكرية، كما شهدت الفترة أول عملية تحديث للمدن ونموها بشكل سريع، بالنسبة للفترات السابقة وتغيرت الحياة داخل دمشق تحت تأثير التقنينات المستوردة من أوروبا والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة. فالاحتكاك الواسع بالحضارة الأوروبية الوافدة بدأت تياراً قوياً يدعو للعصرية، وتقليد الحياة الأوروبية — وإن بدا هذا التقليد ذا طابع سطحي — كالتقليد، في اللباس والمسكن، وطرق المعيشة، واقتناء الحاجيات المستوردة، والاعراض عن كل ما هو محلي. كما تكونت طبقة برجوازية من التجار، وأصحاب المصانع وتجار الاستيراد والتصدير، والوسطاء والسماسرة والمرابين. انضم إليها أبناء الاقطاعيين والأثرياء. وفي الزراعة بدأت «تتكون ملكيات وحيُازات متوسطة إلى جوار المدنية بهدف تمويل السكان. كما ظهرت بعض المناطق الزراعية المرتبطة بالتصدير والتجارة والصناعة والخدمات والحرف الناشئة. وأصبح أيضاً الرأسمال الأجنبي هو الغالب بين أشكال الرساميل، وغزت البنوك مدن الامبراطورية، ولعب هذا الرأسمال دوراً أساسياً في حياة دمشق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وشاع استعمال العملات الذهبية والمسكوكات الأخرى. كما عرفت الفترة لأول مرة اصطلاح «مصاري» الذي ترافق مع دخول إبراهيم باشا إلى دمشق، وكذلك بداية التعامل بالنقد الأوروبي حيث كان التعامل بالقرش الفضي الصاغ الميري. كما ان وثائق المحكمة الشرعية بدمشق والتي اعتمدناها في هذه الدراسة أوضحت الكثير من الحالات الاقتصادية لطبقات المجتمع الدنيا والوسطى والتي تتصل حالاتها الاقتصادية بحيازة الأرض والعمل بها، والفئات الغنية المالكة للدكاكين في الأسواق المختصة والطواحين والخانات. كما أظهرت الوثائق شكل البيوع العديدة في الأسواق مما يدل على وقوع أزمات في حرفة ما أدت إلى ترك الحرفة بسبب البضائع الأجنبية المستوردة. كما أظهرت الدراسة دور المرأة المتميزة في دمشق حيث عملت مع الرجل أو بدونه وما زالت على تلك الحال حتى يومنا هذا. وخاصة الريف.

ولما كان تأريخ دمشق يشكل ركناً أساسياً في الوطن العربي من جهة والأساس في هذه الدراسة من جهة أخرى، فقد تنوعت المصادر والمراجع المتعلقة به لاعطاء صورة عن الحالة الاقتصادية في تلك الفترة. وكانت محاولة تتبع الوسائل التي قامت بها الدولة العثمانية في تلك الفترة وما طرأ على مدينة دمشق من تطورات اقتصادية أنشأتها الظروف التي أدت إلى تكوين حالة اقتصادية جديدة جديرة بالبحث والتقصي ودراسة كافة النواحي من زراعة وصناعة وتجارة فالأطروحة تقع في ٢٥٦ صفحة احتوت على أربعة فصول عدا المقدمة والملحق والفهارس.

١ ــ الفصل الأول يتحدث عن الزراعة وما يرتبط بها من تعريف بنوع ملكية الأرض واستقلالها ومظاهر الفلاحين، وطرق سقاية الأرض ومصطلحات الري المعروفة آنذاك. وأنواع المزروعات وكيفية تصريف الناتج الزراعي.

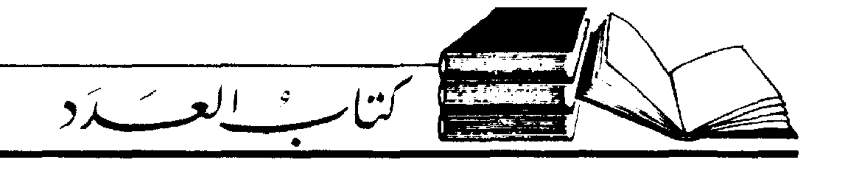
٢ ــ الفصل الثاني في الصناعة وأموال الطوائف الحرفية، وأنماطها. وكيفية ممارسة بعض الحرف والصناعات التقليدية، وفيه أيضاً شرح لآثار التدخل الأجنبي، وما سببه من تدمير الصناعة الدمشقية، وكذلك شرح لتصريف المنتجات الصناعية.

٣ ــ الفصل الثالث في التجارة: يشمل التجارة المحلية، ونقابات التجار، وعاداتهم، والطرق التي يتم بها المتاجرة داخل دمشق، وأعمال التجار الأجانب، والتجارة الخارجية، والنقود المتداولة، وعرض لأسعار الحاجيات وأنواع السلع المستوردة، وقوافل التجارة، والبيوتات التجارية، وقافلة الحج الشامي.

٤ ــ وأتت الخاتمة التي تتحدث عن قانون الأراضي عام ١٨٥٨ وما خلفه من سلبيات انعكست على المجتمع الدمشقي بعد أن اعتبر ثورة في عالم الزراعة أثناء صدوره. وإن ما حدث بالفعل كان بعكس ما ارتجاه واصفوه، حيث انحصرت فائدته بالأغنياء وأصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة فازدادت ملكياتهم اتساعاً وبصورة قانونية، مقابل حرمان الفلاح المعدم من فائدته حيث وضع القانون أصلاً من أجله.

وكان لا بد من وضع ملحق للبحث يتحدث وبصورة موجزة عن الحوادث الدامية التي جرت عام ١٨٦٠ والتي سميت بالحوادث الطائفية ولكن بالحقيقة هي نتيجة ذلك الوضع الاقتصادي الذي آلت إليه مدينة دمشق من جراء المداخلات الأجنبية وتدهور الصناعة المحلية، والغبن الذي لحق بالفلاح والعامل الزراعي والعامل الصناعي والتأثير الاقتصادي المرتبط بحالة السكان والدولة على السواء. ثم جاءت الفهارس وأسماء المصادر والمراجع المعتمدة، وبهذه الأطروحة التاريخية، يضاف إلى مكتبتنا العربية إرث تاريخي جديد، يشرح فترة قصيرة مهملة من حياة مدينة دمشق كانت مليئة بالأحداث والمتغيرات.





الموسوعة الفلسطينية

الموسوعة الفلسطينية (القسم العام)
إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية (دمشق ١٩٨٤)
رئيس مجلس الادارة: أحمد المرعشلي، رئيس التحرير: عبدالهادي هاشم
المستشار: أنيس صايغ
٤ مجلدات من القطع الكبير. الثمن: مئة دولار.

قسم التوثيق والأبحاث

ما أكثر الكتب التي تخرجها المطابع، وما أقل الجاد الرصين من بينها. فطابع السرعة، أو التسرع، يغلب على كثير مما تعرضه واجهات المكتبات العربية في أيامنا هذه، لذلك، تكون الفرحة كبيرة حين نستقبل عملاً متزناً ناضجاً، فنتلقاه بما يستحقه من الاهتمام والعناية.

من بين ثمرات المطابع الناضجة التي طلعت على الدارسين المثقفين مؤخرا، إن لم يكن في مقدمتها نضجاً واتزاناً، الكتاب الشامل الأول عن القضية الفلسطينية، وهو (**الموسوعة الفلسطينية**) التي خرجت إلى عالم النور بعد سنوات من العمل الجاد بذل فيها المشرفون على تحريرها جهوداً كبيرة ليخرجوها الاخراج الفني والعلمي الجدير باسمها وبمحتواها، وبالقضية النبيلة التي تختص بها.

و(**الموسوعة الفلسطينية**) التي تتصدر اليوم رفوف المكتبات العربية هي أول مؤلف شامل، يضم مجمل الدراسات المتعلقة بأرض فلسطين وتاريخها وشعبها وحضارتها وقضيتها، معروضاً بأسلوب علمي موضوعي، وفي بحث متكامل، يجلو إسهام هذا القطر في مسيرة الحضارة والانسانية، ويوضح ما بيت له أعداؤه من مؤامرات، وما ألحقوه بشعبه من ظلم واضطهاد، وما روّجوه من مزاعم باطلة زائفة.

وهي مجلدات أربعة ضخمة أنيقة الطباعة، دقيقة الترتيب تقارب صفحاتها الثلاثة آلاف صفحة، وتناهز موضوعاتها الألفين، وتعتمد الترتيب الألفبائي وفق أحدث الأنماط الموسوعية المعروفة، مع العناية بكل ما يسهل للقارىء أمر مراجعة الموضوع الذي يريد بيسر ودقة، ويحيله إلى موطنه، فلا يطول تقليبه للصفحات وانتقاله بين المجلدات. وحتى يتم النفع وتعمم الفائدة أرفق كل بحث بما يحتاج إليه من خريطة موضحة أو صورة دالة، وألحق بثبت للمراجع العربية والأجنبية يلجأ إليها من رغب في الاستزادة ومعرفة التفاصيل.

ولا يمكن للمرء أن يفي هذا العمل العظيم حقه من التقدير في هذا العرض السريع، ولا بد للمثقف من أن يطلع بنفسه على هذه الموسوعة ليرى مصداق ذلك، وليقدر الجهد المبذول حق قدره. فالموسوعة الفلسطينية حصيلة تعاون بنّاء مثمر بين منظمة التحرير الفلسطينية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عكف على إنجازه مئات الباحثين المختصين في مختلف الحقول والميادين على طول امتداد الوطن العربي، وصرفوا من أجله الوقت الطويل، يعملون بصمت وروية ليقدموه في مضمون مركز وفي حلة متميزة، فيقف جنباً إلى جنب مع أرقى الموسوعات العالمية التي تفاخر بها الأمم. وبذلك يثبتون القدرة العربية على العطاء.

مَوطنهَا لبـــنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

جُذورهَا راسِخة في الشرق الأوسَط

وأغصانهَا ممتدّة في أرجاء الدّنيا



كتب وردتنا

□ **المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت**
مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط
الجامعة الأميركية في بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥ ...... إعداد: الدكتور يوسف ق. خوري

□ **الموسوعة الفلسطينية**
٤ مجلدات ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ ــ دمشق............ هيئة الموسوعة الفلسطينية
أحمد المرعشلي
عبدالهادي هاشم
د. أنيس صايغ

□ **دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣ ــ ١٩٤٣**
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت .... د. حسان حلاق

□ **سلسلة الجزيرة العربية (١)،**
كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة
الناشر: دلمون للنشر ــ نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٥ .... إعداد: أحمد عبيدلي

□ **الوجيز في الادارة العامة (الجزء الأول)**
تكوين الادارة اللبنانية
المركز الاقليمي للدراسات والأبحاث
المكتبة الادارية.. حسن الحلبي

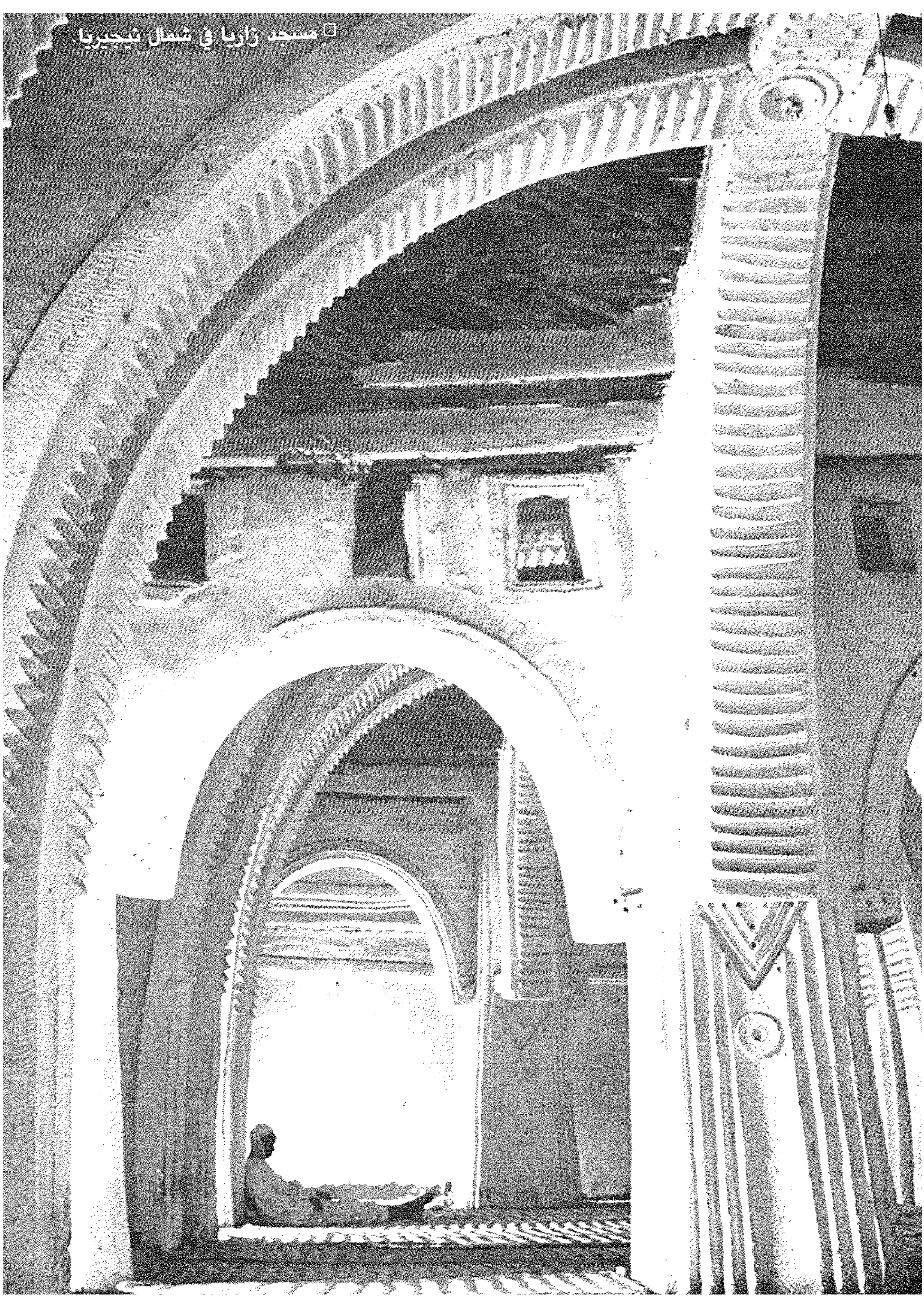
□ **الكتاب السنوي في الادارة العامة ١٩٨٢**
التنمية الادارية والتدريب
المركز الاقليمي للدراسات والأبحاث المكتبة الادارية (١) ......

□ **الصراع الطبقي الألماني في العصر الامبريالي**
دمشق ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ .... عبدالباقي شنان

□ **الضاحية الجنوبية أيام زمان**
دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة،
بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤ .... محمد كزما

□ **تاريخ وادي التيم والأقاليم المجاورة**
(ثلاثة أجزاء في كتاب واحد)
الطبعة الأولى ــ بينطا ــ ١٩٨٥ .... محمد كزما

□ **أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني**
سجلات المحكمة الشرعية في بيروت
المركز الإسلامي للإعلام والإنماء.................. تقديم ودراسة وتحقيق د. حسّان حلاّق



مسجد زاريا في شمال نيجيريا.